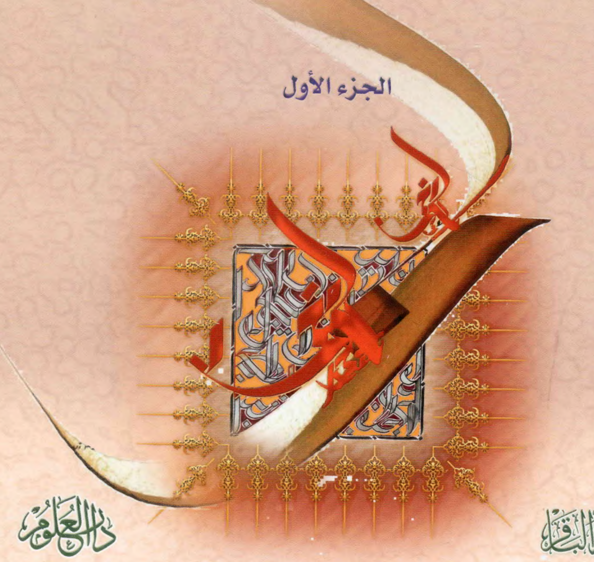
هادي المدرّسي

أخلاقيات الإمام علي أمير المؤمنين (ع)

قراءة في تعاملات الإمام من موقع المؤمن الصادق والمعارض المخلص، والحاكم العادل

الجزء الأول



دار العلوم

مؤسسة البلاغ



أخلاقيات الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام

قراءة في تعاملات الإمام من موقع المؤمن الصادق
والمعارض المخلص، والحاكم العادل

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ/٢٠١٠م





المكتب : الرويس - بناية عروس الرويس - تلفاكس : 03/473919 - 01/545182
ص .ب : 140 / 24 - المستودع : بئر العبد - مقابل البنك اللبناني الفرنسي - هاتف : 01/541650
www.daraloloum.com E-mail:info@daraloloum.com

أخلاقيات الإمام علي
أمير المؤمنين عليه السلام

قراءة في تعاملات الإمام من موقع المؤمن الصادق
والمعارض المخلص، والحاكم العادل

هادي المدرّسي

الجزء الأول





بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (١)

ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٢) ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (٣)
مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ (٥)
ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ (٦) صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ
غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ (٧)

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة على محمد سيد المرسلين وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين.

ـ على أي منهج نسير في الحياة؟

وما هو النموذج الأفضل لنظامنا؟

ـ من هو القدوة في ذلك؟

وما هو الميزان؟

تلك هي بعض الأسئلة التي يحاول هذا الكتاب الإجابة عليها، من خلال استعراض مواقف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وكلماته وحكمه. بأعتبارها منهجاً متكاملاً للحياة، ونموذجاً فريداً للاقتداء..

ذلك أنّ هذا الكتاب ليس سرداً تاريخياً لحياة الإمام، ولا محاولة لتسليط الضوء على أبعاد شخصيته الكريمة، وتراثه المجيد، لأنه لا يتحدّث عن الماضي برجاله وتاريخه للهروب من الحاضر والتراجع إلى الوراء، بل يتحدث عن الماضي لإعادته إلى الحاضر، والانطلاق به إلى المستقبل..

إنه محاولة لتصوّر الإمام حاضراً بيننا، يمشي معنا في الأسواق، ويتعامل مع الناس، ويصدر تعليماته لهم ويبيّن رؤاه، لكي نتبيّن على ضوئها مواقع أقدامنا، وواجبات أُمّتنا في الوقت الحاضر..

ولقد اعتمدت في تأليف هذا الكتاب، على الاستفادة من كلمات الإمام واستشراف بصائره حول كل موضوع، وذكر مواقفه عليه السلام، ليس من خلال سياقها التاريخي، لأن الجوهر الذي انصب التأليف عليه كان توضيح الجانب الأخلاقي في حياة الإمام الفردية، والاجتماعية والسياسية باعتباره النموذج الصالح للعبد المؤمن، والحاكم العادل، والمعارض الحكيم.. وآثرت أن أذكر النص التاريخي من غير تدخل فيه أو تصرف، مع ذكر المصدر، وثبت الصفحات..

وقسّمت الكتاب إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: أخلاقيات المؤمن.

القسم الثاني: أخلاقيات المعارضة.

القسم الثالث: أخلاقيات الحاكم.

ومن الله أستمد التوفيق، إنه من وراء القصد.

هادي المدرّسي

١٠/٦/ ١٤١٠هـ - ٧/١/ ١٩٩٠م

أخلاقيات المؤمن

التقوى والإخلاص

تتمحور حياة النَّاس عادة حول إحدى محاور ثلاثة:

الأول: محور الإيمان بالله، وما يتعلق به من قضايا العبادة والأخلاق، والالتزام بالأحكام..

الثاني: محور «قضية» معيّنة ترتبط بقيمة من القيم، أو مصلحة من المصالح العامة.

الثالث: محور الذّات، وما يتعلّق بها من الشهوات والملّذات والمصالح.

وغالبية النَّاس عادة هم من الّذين تدور حياتهم حول المحور الثالث، ذلك لأنه ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[1].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤.

وقلّة هم الّذين يتحملون قضية معيّنة، ويناضلون من أجلها كتحرير بلدانهم، أو تحقيق العدالة فيها، أو الاستقلال لها أو ما شابه.

أمّا الأقلون فهم المؤمنون الّذين تدور حياتهم حول الإيمان بالله.. ومن ثم العمل من أجل الآخرة.

وهؤلاء هم الّذين قال عنهم ربّنا: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[1]...

وهم المتّقون الّذين يشفقون من أمر ربّهم، وهم «أهل الفضائل»[2].

ويميّزهم عن غيرهم أن «منطقهم الصواب، وملبسهم الاقتصاد ومشيهم التواضع، غضّوا أبصارهم عمّا حرّم الله عليهم، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم. نزلت أنفسهم منهم في البلاء كالتي نزلت في الرخاء، ولولا الأجل الّذي كُتب الله عليهم لم تستقرّ أرواحهم في أجسادهم طرفة عين، شوقاً إلى الثواب، وخوفاً من العقاب. عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دون ذلك في أعينهم»[3].

أمّا فيما يرتبط بالحياة الدنيا، فهم لا ينسون نصيبهم منها،

---

(١) سورة سبأ، الآية: ١٣.

(٢) نهج البلاغة: الخطب ١٩٣.

(٣) المصدر السابق.

ولكن قلوبهم متعلقة بالآخرة «فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذّبون. قلوبهم محزونة وشرورهم مأمونة، وأجسادهم نحيفة، وحاجاتهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة»[١].

«صبروا أياماً قصيرة، أعقبتهم راحةً طويلة، تجارة مربحة يسّرها لهم ربهم. أرادتهم الدنيا فلم يريدوها، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها»[٢].

تلك هي من أقوى ميزات أهل التقوى، فالدنيا التي يريدها أصحاب الملذّات والمصالح، ويركضون وراءها، أرادتهم ولكنهم لم يريدوها وقصدتهم ولكنهم رفضوها، لأنهم أرادوا الآخرة وما فيها من النعيم المقيم. وحينما أسرتهم الدنيا، فدوا أنفسهم بمجاهدة النفس والعبادة والطاعة والخشوع..

«أما الليل فصافون أقدامهم، تالين لأجزاء القرآن يرتّلونها ترتيلاً يحزّنون به أنفسهم ويستثيرون به دواء دائهم»[٣].

غير أنّ تلاوتهم للقرآن ليست تلاوة ألفاظ، بل تلاوة تفاعل وتأمل وعمل «فإذا مرّوا بآية فيها تشويق ركنوا إليها

---

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.

طمعاً وتطلّعت نفوسهم إليها شوقاً، وظنّوا أنها نُصب أعينهم. وإذا مرّوا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنّوا أن زفير جهنم وشهيقها في أُصول آذانهم»[1].

إن العبادة بالنِّسبة إليهم عمل مستقلّ، وليس مقدمة لحاجة أخرى، فلا يراؤون بعبادتهم، ولا يتظاهرون بها. . «فهم حانون على أوساطهم، مفترشون لجباههم، وأكفّهم، وركبهم، وأطراف أقدامهم، يطلبون إلى الله تعالى في فكاك رقابهم»[2].

ولا يعني ذلك أنّهم يعبدون الله تعالى بالصلاة وحدها، بل يعبدونه بكل وجودهم، بالنشاط، والجهاد، والعلم والحلم وكثرة العمل، فهم في اللّيل ـ حيث الآخرون يغطون في النوم ـ يعبدون ربهم «وأمّا في النهار فحلماء، علماء، أبرار، أتقياء. قد براهم الخوف بري القداح ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى، وما بالقوم من مرض. ويقول لقد خولطوا، ولقد خالطهم أمرٌ عظيم، لا يرضون من أعمالهم القليل، ولا يستكثرون الكثير، فهم لأنفسهم متّهمون، ومن أعمالهم مشفقون»[3].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) نهج البلاغة: الخطب ١٩٣.

ولذلك فإنّهم متواضعون جداً، بعيدون عن الزهو والخيلاء: «إذا زكّى أحد منهم خاف مما يقال له فيقول: أنا أعلم بنفسي من غيري، وربّي أعلم بي منّي بنفسي. اللّهُمّ لا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني أفضل مما يظنون واغفر لي ما لا يعلمون»[١].

ولا شكّ أن رجالاً من هذا الطراز يتمتعون بصفات شخصية عالية إذ «من علامة أحدهم أنك ترى له قوة في دين، وحزماً في لين، وإيماناً في يقين، وحرصاً في علم، وعلماً في حلم، وقصداً في غنى، وخشوعاً في عبادة، وتجمّلاً في فاقة، وصبراً في شدّة، وطلباً في حلال، ونشاطاً في هدى، وتحرّجاً عن طمع، يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل، يمسي وهمّه الشكر، ويصبح وهمّه الذكر. يبيت حذراً، ويصبح فرحاً، حذراً لما حذر من الغفلة، وفرحاً بما أصاب من الفضل والرّحمة»[٢].

وهؤلاء أشدّاء مع النفس، فلا يسلسون القياد لذواتهم فيما تحب أو تكره. فإن أحدهم «إن استصعبت عليه نفسه فيما تكره لم يعطها سؤلها فيما تحب»[٣].

---

(١) نهج البلاغة: الخطب ١٩٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

وهم لهذا زهّاد في أمور الدنيا، حريصون على أعمال الآخرة، فترى أحدهم «قرة عينه فيما لا يزول، وزهادته فيما لا يبقى، يمزج الحلم بالعلم، والقول بالعمل، تراه قريباً أمله، قليلاً زلله، خاشعاً قلبه، قانعة نفسه منزوراً أكله، سهلاً أمره، حريزاً دينه، ميتة شهوته مكظوماً غيظه»[1].

أتُرى أن من كان الإيمان بالله محور حياته، هل يؤذي أحداً؟ وهل يترك عملاً صالحاً؟ وهل يتعامل بالأحقاد؟

لا شك أن مثل هذا النموذج «الخير منه مأمول، والشرّ منه مأمون، إن كان في الغافلين كتب في الذاكرين، وإن كان في الذاكرين، لم يكتب في الغافلين. يعفو عمّن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه، بعيداً فحشه، ليناً قوله، غائباً منكره، حاضراً معروفه، مقبلاً خيره، مدبراً شرّه، في الزلازل وقور، وفي المكاره صبور، وفي الرخاء شكور، لا يحيف على من يبغض، ولا يأثم فيمن يحب، يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه، لا يضيع ما أستحفظ ولا ينسى ما ذكّر، ولا ينابز بالألقاب ولا يضار بالجار، ولا يشمت بالمصائب ولا يدخل في الباطل، ولا يخرج من الحق، إن صمت لم يغمّه صمته، وإن ضحك لم يعلُ صوته، وإن بُغي عليه صبر حتى يكون الله هو الذي ينتقم له،

(١) المصدر السابق.

نفسه منه في عناء والناس منه في راحة، أتعب نفسه لآخرته وأراح الناس من نفسه، بعده عمّن تباعد عنه زهد ونزاهة، ودنوّه ممّن دنا منه لين ورحمة، ليس تباعده بكبر وعظمة ولا دنوّه بمكر وخديعة..»[1].

وحياة علي أمير المؤمنين عليه السلام تطبيق دقيق لهذه المواصفات: محورها رضا الله، وهدفها عبادته، ومفرداتها العمل الصالح في كل مواقفه.

ولا شك أن من لا يفهم «تقوى الإمام» يحتار في تفسير كثير من مواقفه، وقد يتساءل كما تساءل بعض معاصريه: هل للإمام علم بأُصول السياسة أو كما قال بعضهم: «إن ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب»[2].

إنّ كثيراً من الخطط الممكنة، والخطوات التي نصحه البعض بها لإحراز الانتصار كانت في الحقيقة تصطدم بإيمان الإمام عليه السلام، والتزامه بالأخلاق، وتعهّده للرسالة، وزهده في الحياة الدنيا.

إنَّ نقّاد التاريخ ربما نظروا إلى المسائل من خلال عينيّ السياسي، وليس من خلال عيني المؤمن.. لأن البوصلة في قلب السياسي ربما تتّجه نحو النجاح بأي ثمن، ولكن بوصلة

---

(١) نهج البلاغة: الخطب ١٩٣.

(٢) الكامل ـ للمبرد: ج ١، ص ١٣.

المؤمن تتجّه نحو الإيمان والالتزام بالقيم، والحفاظ على التقوى.

ومن هنا فإنّ العبادة عند الإمام ـ وهو رئيس دولة ـ لم تصبح «فرعاً» بل بقيت «أصلاً» والخشوع لله لم يتحوّل إلى قضية هامشية، لانشغاله بأُمور الدولة مثلاً.. فأي شيء أهم من عبادة الله، وكسب رضاه؟

لقد أوصى الإمام «محمد بن أبي بكر» حين ولّاه مصر، بقوله: «لا تسخط الله برضى أحد من خلقه، فإن في الله خلفاً من غيره، وليس من الله خلف في غيره».

وأضاف: «صلّ الصلاة لوقتها المؤقت لها، ولا تعجّل وقتها لفراغ، ولا تؤخّرها عن وقتها لاشتغال، واْعلم أن كل شيء من عملك تبع لصلاتك»[1].

حقاً كان الإمام ممّن قال عنهم ربنا ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾[2].

فلقد «كان أمير المؤمنين أعبد الناس وأكثرهم صلاة وصوماً، ومنه تعلّم الناس صلاة الليل وملازمة الأوراد وقيام النافلة، وما ظنّك برجل يبلغ من محافظته على عبادته أن يبسط له قطع ما بين الصفّين ليلة الهرير فيصلّي عليه، ويؤدّي وِرده

---

(١) نهج البلاغة، باب الكتب.

(٢) سورة النور، الآية: ٣٧.

بينما السهام تقع بين يديه تمرّ على صماخيه يميناً وشمالاً فلا يرتاع لذلك، ولا يقوم حتّى يفرغ من وظيفته.

«وما ظنّك برجل كانت جبهته كثفنة البعير لطول سجوده، وأنت إذا تأمّلت دعواته ومناجاته، ووقفت على ما فيها من تعظيم الله سبحانه وإجلاله، وما يتضمّنه من الخضوع لهيبته والخشوع لعزّته والاستحذاء له، عرفت ما ينطوي عليه من الإخلاص، وفهمت من أيّ قلب خرجت وعلى أيّ لسان جرت»[1].

وحينما قال له أحدهم ليلة الهرير: «يا أمير المؤمنين.. ألا تؤجلها، أي الصلاة؟».

قال: «ويلك!. وعلى مَ نقاتلهم؟».

إن التقوى عند الإمام هي المحور، لا السياسة.. والصلاة عنده الأهم لا الزعامة.. والخشوع عنده الأساس لا الانتصار.. وهو إذ يقاتل مناوئيه فلكي يؤمنوا بالله، ويعبدوه، لا لكي يتأمّر عليهم.. كما كان مناوئوه يفعلون!

كان الإمام يرى «الصلاة قربان كل تقي»[2] و«معراج كل مؤمن» ولذلك فإنه كان يكثر منها.. وهو العارف بحقيقة الصلاة..

---

(١) ابن أبي الحديد ـ شرح النهج: ج ١، ص ٢٦٥.
(٢) الخصال ـ للصدوق: ج ٢، ص ١٦٢.

كان يعلم أن العبادة ليست مظهراً، إنما قيمتها بمقدار ما تضيء في القلب من نور التقوى وكان يقول: «ليست الصلاة قيامك وقعودك وإنما الصلاة إخلاصك»[1].

ولإخلاصه وإيمانه وتقواه، كان إذا حضر وقت الصلاة، يتلون وجهه عليه السلام ويتزلزل فيقال له: ما لك؟

فيقول: «جاء وقت أمانة عرضها الله تعالى على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، وحملها الإنسان في ضعفه، فلا أدري أحسن إذا ما حملت أم لا؟»[2].

يقول حفيده الإمام علي بن الحسين عليه السلام: «صلّى أمير المؤمنين عليه السلام الفجر، ثم لم يزل في موضعه حتى صارت الشمس على قدر رمح، وأقبل على الناس بوجهه فقال: «والله لقد أدركت أقواماً يبيتون لربّهم سجداً وقياماً يخالفون بين جباههم وركبهم، كأنّ زفير النار في آذانهم، إذا ذكر الله عندهم مادوا كما يميد الشجر»!.

ثم قام، فما رُئي ضاحكاً حتى قُبض[3].

وكما كان يقيم الصلاة، فإنه كان يطلب من المؤمنين أن يتعاهدوا أمرها. وكان يقول عليه السلام: «تعاهدوا أمر الصلاة،

(١) علي إمام المتّقين: ج ١، ص ٥١.
(٢) بحار الأنوار: ج ٤١، ص ١٧.
(٣) الكافي: ج ٣، ص ٢٣٦.

وحافظوا عليها وأستكثروا منها، وتقرّبوا بها فإنها ﴿كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾[1] ألا تسمعون إلى جواب أهل النار حين سئلوا ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾[2] وإنها لتحتّ الذنوب حتَّ الورق وتطلقها إطلاق الربق، وشبهها رسول الله ﷺ بالحَمَّة تكون على باب الرجل، فهو يغتسل منها في اليوم والليلة خمس مرات، فما عسى أن يبقى عليه من الدَّرن؟ وقد عرف حقّها رجال من المؤمنين الّذين لا تشغلهم عنها زينة متاع، ولا قرّة عينٍ من ولد ولا مال. يقول الله سبحانه: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾[3]. وكان رسول الله ﷺ نِصباً بالصلاة بعد التبشير له بالجنّة لقول الله سبحانه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[4]. فكان يأمر بها أهله، ويصبر عليها نفسه[5].

فلا الإمارة، ولا الزعامة، ولا الحروب، ولا الأموال، ولا النساء ولا الأولاد شغلت علياً عليه السلام عن الصلاة، والعبادة، والبكاء من خشية جبّار السموات والأرضين.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٣.
(٢) سورة المدثر، الآيتان: ٤٢، ٤٣.
(٣) سورة النور، الآية: ٣٧.
(٤) سورة طه، الآية: ١٣٢.
(٥) نهج البلاغة: الخطب ١٩٩.

وقد روي في ذلك أن ضرار بن ضمرة دخل على معاوية، فقال له معاوية: صف لي عليًّا؟

فقال: أو تعفيني من ذلك؟

فقال: لا أعفيك!

فقال: «كان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فضلاً ويحكم عدلاً، يتفجّر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدّنيا وزهرتها، ويستأنس باللّيل ووحشته. . كان والله غزير العبرة، طويل الفكرة، يقلّب كفّيه، ويخاطبه نفسه، ويناجي ربّهُ، يُعجبه من اللّباس ما خشن، ومن الطعام ما جشب. . كان والله فينا كأحدنا يدنينا إذا أتيناه، ويجيبنا إذا سألناه وكان مع دنوّه منّا وقربنا منه لا نكلّمه لهيبته، ولا نرفع عيننا لعظمته، فإن تبسّم فعن مثل اللّؤلؤ المنظوم، يعظّم أهل الدين، ويحبِ المساكين، لا يطمع القويّ في باطله، ولا ييأس الفقير من عدله».

فقال معاوية: زدني في صفته.

فقال ضرار: «رحم الله علياً عليه السلام كان واللهِ طويل السهاد، قليل الرقاد، يتلو كتاب الله أناء الليل وأطراف النهار، ويجود الله بمهجته، ويبوء إليه بعبرته لا تغلق له الستور، ولا يدّخر عنّا البدور، ولا يستلين الاتكاء، ولا يستخشن الجفاء، فأشهد

بالله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى اللّيل سدوله، وغارت نجومه وهو قائم في محرابه قابض على لحيته يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين، فكأنّي الآن أسمعه وهو يقول:

«يا دنيا أبي تعرّضت؟ أم إليّ تشوّقت؟ هيهات هيهات غرّي غيري لا حاجة لي فيك، قد طلّقتك ثلاثاً لا رجعة لي فيها، فعمرك قصير وخطرك يسير وأملك حقير، آه، آه، من قلّة الزّاد وبعد السَّفر، ووحشة الطّريق وعظيم المورد».

فسالت دموع معاوية على لحيته فنشفها بكمّه، ثم قال: «كان والله أبو الحسن كذلك، فكيف صبرك عنه يا ضرار؟»

قال ضرار: «صبر من ذبح واحدها على صدرها، فهي لا ترقى عبرتها ولا تسكن حسرتها، ثمّ قام وخرج وهو باك»[1].

* * *

ثم إن العبادة لم تكن عند الإمام مجرد خشية من النار، أو رغبة في الجنّة، بل كانت عبادة من يعرف حق مولاه، وعظمة سيّده، ويريد أن يؤدّي ذلك الحق.. وهو القائل:

«إنّ قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجّار، وإنَّ قوماً

---

(١) إرشاد القلوب: ص ١٣ ـ ١٤.

عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وإنّ قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار»[1].

والقائل: «إلٰهي.. ما عبدتك إذ عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنّتك، بل وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك».

ولقد كان الإمام يتمتع بذلك الإخلاص الذي لا يوصف، لأنه كان موقراً في قلبه، سارياً في خلجات روحه، شاغلاً لبّه..

وكيف يمكن أن نَزِن مدى إخلاص الإمام لربّه؟ وكيف يمكننا الإحاطة ببحر حبّه؟

لقد قال مرةً: «عباد الله.. إنَّ أنصح الناس لنفسه أطوعهم لربّه، وإنّ أغشّهم لنفسه أعصاهم لربّه، والمغبون من غَبَن نفسه والمغبوط من سلم له دينه. واْعلموا أنّ يسير الرياء شرك[2].

فلم يكن الإمام يعمل للناس، ولا يعبد الله لرياء!..

وكان كما قال عن «المؤمن لا يمسي ولا يصبح إلّا ونفسه ظنون عنده»[3].

ولذلك كان يعمل لله، ويعطي لله، وهو مع ذلك لا يرى ما فعله كافياً.. فقد روي أنّه:

---

(١) محاضرات الأدباء: ج ١، ص ١٤.
(٢) المحاسن ـ للبرقي: ص ٢٣٣.
(٣) نهج البلاغة: الخطب ١٧٦.

«قيل لعليّ عليه السلام: كم تتصدّق؟ كم تخرج من مالك؟ ألّا تمسك؟

فقال: «إنّي والله لو أعلم أن الله تعالى قبل منّي فرضاً واحداً لأمسكت، ولكنّي والله لا أدري أقبل سبحانه منّي شيئاً، أم لا»[1].

ومع كل ما أثر عنه من العبادة، والجهاد، والطاعة، والعمل الصالح، والزهد والتقوى، فهو لم يزل يتّهم نفسه، ويخشى أن لا تقبل عبادته..

وهذا لعمري هو الإخلاص بعينه، والخضوع للحق بعينه، والصدق مع الله بعينه..

* * *

والحق أن من يعرف الله حقّ قدره، لا يتوانى عن عبادته، وأن من يخشى الله في سرّه تتجافى جنوبه عن المضاجع لمناجاته.. وهكذا كان أمير المؤمنين عليه السلام. فقد روي عن حبّة العرني قال: «رأيت علياً عليه السلام ليلة في «رحبة القصر» واضعاً يده على الحائط شبيه الواله، وهو يقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ

(١) بحار الأنوار: ج ٤١، ص ١٣٨.

﴿ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1] . . وأخذ يقرأ هذه الآية ويكررها، ويمرّ شبه الطائر عقله!.

فقال لي: «يا حبّة: أراقد أنت أم رامق؟

قلت: بل رامق. . يا أمير المؤمنين، أنت هكذا فكيف نحن؟

فأرخى عينيه وبكى، ثم قال: «يا حبّة. . إن الله أقرب إليّ وإليك من حبل الوريد، يا حبّة إنه لن يحجبني ولا إياك عن الله شيء». .

ثم قال: «إن طال بكاؤك في هذا الليل مخافة من الله تعالى، قرّت عيناك غداً بين يدي الله عزّ وجلّ. إنّه ليس قطرة قطرت من عين رجل من خشية الله إلّا أطفأت بحاراً من النيران، وإنه ليس من رجل أعظم منزلة عند الله من رجل بكى من خشية الله، وأحبّ في الله، وأبغض في الله، إنه من أحبَّ في الله لم يستأثر على محبّته، ومن أبغض في الله لم ينل ببغضه إلّا خيراً».

ثم جعل يمرّ وهو يقول: «ليت شعري في غفلاتي أمعرض أنت عنّي أم ناظر إليّ؟ وليت شعري في طول منامي وقلّة شكري في نعمك عليّ، ما حالي؟»[2].

* * *

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٤.

(٢) بحار الأنوار: ج ٤١، ص ٢٣ ـ ٢٢.

ولـقـد كـانـت عـبـادة الإمـام مـتـمـيـزة عـنـد صـحـابـة رسول الله ﷺ، فبمقدار ما كان يقينه بالله عظيماً كان اجتهاده في عبادته شديداً. وكان يعبد الله كأنه يراه، ويخشاه وكأنه في حفرته، ويتهيّبه وكأنّه معه. . لقد كان كما قال لأصحابه: «لا يرجونَّ أحد منكم إلّا ربّه، ولا يخافنَّ إلّا ذنبه»[1] أو كما قال: «من أصلح سريرته أصلح الله علانيته»[2]. فقد أنشغل بإصلاح سريرته، ورجا ربه، وخاف ذنبه فكان أكثر الناس عبادة وخشوعاً لله تعالى. .

وقد روى في ذلك عروة بن الزبير قال: «كنّا جلوساً في مجلس في مسجد رسول الله ﷺ فتذاكرنا أعمال أهل بدر وبيعة الرضوان.

فقال أبو الدّرداء: «يا قوم ألا أُخبركم بأقلّ القوم مالاً وأكثرهم ورعاً وأشدّهم اجتهاداً في العبادة؟

قالوا: من؟

قال: أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

قال عروة: «فوالله إن كان في جماعة أهل المجلس إلّا معرض عنه بوجهه، ثمّ أنتدب له رجل من الأنصار فقال له: يا عويمر لقد تكلّمت بكلمة ما وافقك عليها أحد منذ أتيت بها.

---

(١) حلية الأولياء: ج ١، ص ٧٥.

(٢) نهج البلاغة: الحكم، ٤٢٣.

فقال أبو الدّرداء: «يا قوم إنّي قائل ما رأيت، وليقل كلّ قوم منكم ما رأوا، شهدت عليَّ بن أبي طالب عليه السلام بشويحطات النجّار، وقد أعتزل عن مواليه وأختفى ممّن يليه، وأستتر بمغيلات النخل، فأفتقدته وبعد عليَّ مكانه، فقلت: لحق بمنزله، فإذا أنا بصوت حزين ونغمة شجيّ وهو يقول: «إلٰهي، كم من موبقة حلمتُ عن مقابلتها بنقمتك؟، وكم من جريرة تكرّمتَ عن كشفها بكرمك؟ إلٰهي إن طال في عصيانك عمري وعظم في الصحف ذنبي فما أنا مؤمّل غير غفرانك، ولا أنا براج غير رضوانك».

فشغلني الصّوت وأقتفيت الأثر، فإذا هو عليّ عليه السلام بعينه، فأستترت له وأخملت الحركة، فركع ركعات في جوف اللّيل الغابر، ثمّ فرغ إلى الدّعاء والبكاء والبثّ والشكوى، فكان ممّا به الله ناجاه أن قال: «إلٰهي، أُفكّر في عفوك فتهون عليّ خطيئتي، ثمّ أذكر العظيم من أخذك فتعظم عليَّ بليّتي».

ثم قال: «آه إن أنا قرأت في الصّحف سيّئة أنا ناسيها وأنت محصيها!، فتقول: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾[1] فيا له من مأخوذ لا تنجيه عشيرته، ولا تنفعه قبيلته، يرحمه الملأ إذا أُذن فيه بالنّداء.

---

(١) سورة الحاقة، الآية: ٧.

ثمّ قال: «آه. . من نار تنضج الأكباد والكلى، آه. . من نار نزّاعة للشّوى، آه من غمرة من ملهبات لظى».

ثمّ أنعم في البكاءِ فلم أسمع له حسّاً ولا حركة، فقلت: غلب عليه النوم لطول السَّهر، أُوقظه لصلاة الفجر، فأتيته فإذا هو كالخشبة الملقاة، فحرّكته فلم يتحرّك، وزويته فلم ينزو، فقلت: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[1] مات والله عليّ بن أبي طالب:

فأتيت منزله مبادراً أنعاه إليهم، فقالت زوجته: يا أبا الدّرداء ما كان من شأنه ومن قصّته؟ فأخبرتها الخبر.

فقالت: هي والله يا أبا الدّرداء الغشية الّتي تأخذه من خشية الله.

ثمّ أتوه بماء فنضحوه على وجهه فأفاق، ونظر إليّ وأنا أبكي، فقال: ممّا بكاؤك يا أبا الدّرداء؟

فقلت: ممّا أراه تنزله بنفسك.

فقال: «يا أبا الدّرداء فكيف ولو رأيتني، ودُعي بي إلى الحساب، وأيقن أهل الجرائم بالعذاب، واحتوشتني ملائكة غلاظ وزبانية فظاظ، فوقفت بين يدي الملك الجبّار، قد

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٦.

أسلمني الأحبّار، ورحمني أهل الدنيا، لكنت أشدّ رحمة لي بين يدي من لا تخفى عليه خافية».

فقال أبو الدّرداء: فوالله ما رأيت ذلك لأحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله[1].

ولقد كانت تقوى الإمام عليه السلام منذ صغره تقوى العارف بالله، والخاشع لجبروته، فقد روي أنه حينما وقف يصلي مع رسول الله علناً، وهو ابن عشر سنوات، قال له بعض المشركين: هل استشرت أباك حينما عبدت الله؟

فأجاب عليه السلام: «وهل استشار الله أبي حينما خلقني»؟.

وحينما كان لا يزال شاباً، ومن أصغر صحابة الرسول صلى الله عليه وآله جلس مع رسول الله وبعض الصحابة في المسجد، وكان أحدهم يقرأ القرآن حتى بلغ الآية: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[2] قال الرسول وهو يحاور صحابته: «قولوا الآن قولكم: ما أول نعمةٍ رغبكم الله تعالى فيها وبلاكم بها»؟ فذكروا نعمة الله أنعم عليهم بها من العافية، والمال والذرية والأزواج، فقبل منهم الرسول صلى الله عليه وآله

---

(١) أمالي الصدوق: ص ٤٨ ـ ٤٩.

(٢) سورة لقمان، الآية: ٢٠.

ما قالوه، ولم يستزد واحداً منهم إلّا علياًعليه السلام. فقد التفت النَّبي إلى علي بن أبي طالب، وكان أصغرهم سناً وقال:

«يا أبا الحسن قل، فقد قال أصحابك».

فقال: «وكيف لي بالقول فداك أبي وأمي وإنما هدانا الله بك»؟!.

قال: «ومع ذلك فهات، قل ما أول نعمة بلاك الله عزّ وجلّ وأنعم عليك بها؟

قال: «أن خلقني جلّ ثناؤه ولم أك شيئاً مذكوراً». ولم يكتفِ الرسول بهذا الجواب بل قال: «صدقت فما الثانية»؟

قال: «أن أحبّني إذ خلقني فجعلني حياً لا ميتاً».

قال: «صدقت فما الثالثة»؟

قال: «أن أنشأني ـ فله الحمد ـ في أحسن صورة وأعدل تركيب».

قال: «صدقت فما الرابعة»؟

قال: «أن جعلني متفكراً راغباً، لا ساهياً».

قال: «صدقت فما الخامسة»؟

قال: «أن جعل لي مشاعر أدرك بها ما ٱبتغيت وجعل لي سراجاً منيراً (أي عقلاً يكشف الحق والباطل والحسن والقبح)».

قال: «صدقت فما السادسة»؟

قال: «أن هداني لدينه ولم يضلّني عن سبيله».

قال: «صدقت فما السابعة»؟

قال: «أن جعل ليَ مردّاً في حياة لا ٱنقطاع لها».

قال: «صدقت فما الثامنة»؟

قال: «أن جعلني ملكاً مالكاً لا مملوكاً».

قال: «صدقت فما التاسعة»؟

قال: «أن سخّر لي سماءه وأرضه وما فيهما وما بينهما من خلقه».

وقال: «صدقت فما العاشرة»؟

فأطرق عليّ قليلاً ثم قال في دعابة: «أن خلقني ذكراً ولم يخلقني أنثى». فضحكوا حتى بدت نواجذهم.

قال الرسول: «وما بعد هذا»؟

قال: «كثرت نِعَمُ الله يا نبي الله فطابت، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾[1]».

فتبسّم رسول الله في رضا عنه وقال: «ليهنئك الحكمة، ليهنئك العلم يا أبا الحسن. أنت وارث علمي والمبين لأُمّتي ما ٱختلفت فيه بعدي. من أحبّك لدينك وأخذ بسبيلك فهو

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.

ممّن هُدِيَ إلى صراط مستقيم. ومن رغب عن هداك وأبغضك لقي الله يوم القيامة لا خلاق له»[١].

* * *

وفي الحقيقة فإن التقوى عن الإمام، كانت محور حياته، ومنها تشعّبت صفاته العظيمة، وأخلاقه الكريمة، ولو أردنا أن نشبّه تقواه بشيء فلا بد أن نقول إن حياة الإمام كانت مثل شجرة باسقة، جذورها التقوى، وجذعها الإخلاص، وأغصانها الأعمال الصالحة، وثمارها الأخلاق الفاضلة..

وكما قال «التقى رئيس الأخلاق»[٢] فإن تقواه كانت منبع أخلاقه، وما من موقف وقفه في عمره الكريم كله إلّا وكان للتقوى فيه أثر واضح.. وكان في ذلك ينافس أنبياء الله العظام، في الوقت الذي كان الآخرون يتنافسون فيما بينهم على الدنيا وزينتها وزبرجها..

ولذلك «كان إذا بدهه أمران ينظر أيّهما أقرب إلى الهوى فيخالفه[٣] ولقد «أحيا عقله، وأمات نفسه حتى دقّ جليله، ولطف غليظه»[٤].

---

(١) علي إمام المتّقين: ج ١، ص ٥٢ ـ ٥٣.

(٢) مجمع الأمثال: ج ٢، ص ٤٥٤.

(٣) الأدب الكبير ـ لابن المقفع: ص ١٤٥.

(٤) غرر الحكم: ٢٣٣.

كان يرى التقوى هي المنار، وهي المنجاة، وهي الوسيلة، وهي الهدف. . فكان يقول: «أوصيكم عباد الله، بتقوى الله، التي هي الزاد، وبها المعاذ: زاد مبلغ ومعاذ منجح. دعا إليها أسمع داع، ووعاها خير واع، فأسمع داعيها، وفاز واعيها»[1].

فالتقوى الحرز هنا، والحرز يوم القيامة. كان عليه السلام يقول: «عباد الله! أُوصيكم بتقوى الله، فإنها حق الله عليكم، والموجبة على الله حقّكم، وأن تستعينوا بها على الله. فإن التقوى في اليوم الحرز والجُنّة، وفي غدٍ الطريق إلى الجنة»[2].

وهكذا فإن «التقوى» هي وصيته الرئيسية والأساسية التي يبدأ بها أكثر خطبه، ورسائله، ونصائحه. .

ولربما كان ينصح أحد ولده بوصايا كثيرة، ثم يقول له: «واْعلم يا بني، إن أحبّ ما أنت آخذ به، من وصيتي: تقوى الله. . واْبدأ قبل نظرك في ذلك بالاستعانة بإلٰهك، والرغبة إليه في توفيقك»[3].

وكان يرى التقوى عملاً يومياً، يجب أن يلتزم به المؤمن في سرّه وعلانيته، وفي إيمانه وعمله، وفي كل صغيرة وكبيرة

---

(١) نهج البلاغة: الخطب ١٤٤.
(٢) نهج البلاغة: الخطب ١٩١.
(٣) نهج البلاغة: الكتب ٣١.

من أعماله. وكان يقول لبعض أصحابه: «اتّق الله فيما لديك»[1] ويقول: «اتّق الله في كل صباح ومساء»[2].

ويطالب المؤمن، ولو ببعض التقوى، ويقول: «اتّق الله ببعض التقى، وإن قلّ، واجعل بينك وبين الله ستراً وإنّ رقّ»[3].

فالتقوى شيء عظيم، وأمر جليل، حتى أنه «لا يقلّ عمل مع التقوى، وكيف يقل ما يتقبّل»[4]؟.

فلا بدّ من الحفاظ على هذه الجوهرة الثمينة، والتي بها تحرز الجنّة، وعليها الحساب يوم نلقى الله.. لأنها جوهر العبادات، ولباب الطاعات، ورادعة الموبقات، وماحية السيئات..

يقول الإمام عليه السلام: «أيقظوا بها (التقوى) نومكم، واقطعوا بها يومكم، وأشعروها قلوبكم، وأرحضوا بها ذنوبكم، وداووا بها الأسقام، وبادروا بها الحمام»[5].

وقد يسأل البعض ما هي التقوى؟

---

(١) الطراز ـ لليماني: ج ٢، ص ١٢٣.
(٢) كتاب صفّين: ص ١٢١.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم ٦٣.
(٤) حلية الاولياء: ج ١، ص ٧٥.
(٥) نهج البلاغة: الخطب ١٩١.

والجواب: أن نرى الله تعالى حاضراً في كل مكان، وشاهداً في كل موقع، فلا نعمل ما لا يرضاه، ولا نرتكب ما نهى عنه، ولا نترك ما أوجبه.. ونصلح سرائرنا كما نحاول أن نصلح علانيّتنا..

يقول الإمام عليه السلام: «اتّقوا معاصي الله في الخلوات، فإن الشاهد هو الحاكم»[1].

ويقول: «طوبى لمن ذلّ (لله) في نفسه، وطاب كسبه، وصلحت سريرته»[2].

ويقول: «ولا تهتكوا أستاركم عند من يعلم أسراركم»[3]

إذن، فإن «من لم يختلف سرّه وعلانيته، وفعله ومقالته فقد أدّى الأمانة، وأخلص العبادة»[4].

فإصلاح السريرة، وإخلاص النيّة، وتطهير الدوافع، وتزكية النفس، هي الخطوة الأُولى في التقوى، والمدخل إلى إصلاح العمل، لأن «من أصلح ما بينه وبين الله، أصلح الله ما بينه، وبين الناس»[5]، «ومن أصلح أمر آخرته، أصلح الله له

---

(١) نهج البلاغة: الحكم ٣٢٤.
(٢) روضة الواعظين: ٤٩٠.
(٣) عيون أخبار الرضا: ج١، ص٢٩٨.
(٤) دعائم الإسلام: ج ١، ص ٢٥٢.
(٥) المحاسن ـ للبرقي: ج ١، ص ٢٩.

أمر دنياه[1] لأن ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾[2] من الفتن، ونوراً من الظّلم»[3].

ولكن مجرد إصلاح السريرة لا يكفي، بل لا بدّ من العمل بمقتضى التقوى، فالطاعة في الواجبات والمحرّمات، جزء من التقوى. . والصبر في الحق جزء آخر.

يقول الإمام عليه السلام: «استتموا نعمة الله عليكم بالصبر على طاعة الله، والمحافظة على ما استحفظكم من كتابه»[4].

ويقول: «عوّد نفسك التصبّر على المكروه، ونعم الخلق والتصبّر في الحق»[5].

وكذلك الجهاد في سبيل الله، فإن «الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصّة أوليائه، وهو لباس التقوى»[6] «وجاهد في الله حق جهاده، وخض الغمرات للحق»[7].

وكما الجهاد، كذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومواجهة الظالمين، من أعداء الداخل والخارج،

---

(١) تذكرة الخواص: ص ١٣٣.
(٢) سورة الطلاق، الآية: ٢.
(٣) تفسير البرهان: ج ١، ص ٩.
(٤) تحف العقول: ص ١٣٠.
(٥) نهج البلاغة: الكتب ٣١.
(٦) مقاتل الطالبيين: ص ٢٧.
(٧) العقد الفريد: ج ٣، ص ١٥٦.

يقول الإمام عليه السلام: «ما أعمال البرّ كلها والجهاد في سبيل الله، عند الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، إلّا كنفثة في بحر لجّي»[1] «وأفضل من ذلك كلّه كلمة عدلٍ عند إمام جائر»[2].

وعلى أية حالٍ «فإنّ التقوى دار حصن عزيز، والفجور دار حصن ذليل، لا يمنع أهله، ولا يحرز من لجأ إليه، وبالتقوى تقطع حُمّة الخطايا، وباليقين تدرك الغاية القصوى»[3].

إن من يفكر بشكل صحيح، لا يملك إلّا أن يتّقي الله، ويعمل من أجله، لأن الله قهر عباده بالموت والفناء، والناس مجموعون لربّهم، وهم مجزّيون بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشرّ. . وليس غير التقوى ما ينفع هناك. . لقد روي أن الإمام عليه السلام في رجوعه من صفّين، مرّ بالقبور بظاهر الكوفة فوقف يخاطبها، بقوله:

«يا أهل الديار الموحشة، والمحال المفقرة، والقبور المظلمة». .

«يا أهل التربة، يا أهل الغربة، يا أهل الوحدة، يا أهل الوحشة». .

«أنتم لنا فرط سابق، ونحن لكم تبع لاحق. . أمّا الدور

(١) البداية والنهاية: ج ١٢، ص ١٥٠.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم: ٤٩.
(٣) النهاية: ج ٢، ص ٥١٠.

فقد سكنت، وأمّا الأزواج فقد نكحت، وأما الأموال فقد قسمت، هذا خبر ما عندنا، فما خبر ما عندكم»؟

ثم إن الإمام التفت إلى أصحابه وقال: «أما لو أُذن لهم في الكلام لأخبروكم، إنّ خير الزاد التقوى»[1].

ولقد حمل الإمام هذا الزاد معه، فكانت التقوى نوراً في قلبه، وعملاً صالحاً في جوارحه، وأخلاقاً كريمة في مواقفه، وعلماً وحكمة في بيانه، وجهاداً في يده، وزهداً في دنياه، وصبراً على البلاء، وشكراً في الرخاء.

ولذلك فحينما دنا أجله، وكانت لحظاته الأخيرة من الدنيا، رأوه ينظر إلى زاوية من الغرفة، ويقول: «وعليكم السلام يا ملائكة ربي. .» ثم يتوجّه لمن حوله ويقول: «لمثل هذا فليعمل العاملون» ويغمض جفنيه، ويسلّم نفسه لبارئها، بعد أن صبر أياماً قليلة، ليعقبها راحة طويلة في ملك دائم، ونعيم قائم. .

(١) من لا يحضره الفقيه: ج ١، ص ١١٤.

الالتزام بالأخلاق الفاضلة

إن حدود الشخصية العظيمة ترسمها الأخلاق. فسموّ الذات إنما هو بسموّ المعنى، وعلوّ المكانة هي في تلك الأصول الأخلاقية التي يلتزم بها الرجال، وهي المقياس في تقييم أعمالهم وأفعالهم.

ومن دون الأخلاق، فإن أكبر الانتصارات في التّاريخ يمكن أن تتحوّل إلى هزائم إذا كان أصحابها يتوسلون للنيل بها إلى الغدر والخيانة والمكر والخداع. لأنه «ما ظفر من ظفر الإثم به، والغالب بالشر مغلوب»[1].

فقيمة الإنسان بإنسانيته..

وقيمة العمل بمحتواه.

وقيمة الدين بالترفّع عن الدنايا.

وميزان البطولة هو الأخلاق.

---

(١) سراج الملوك، ص ٣٨٤.

فـ «الـخـلـق وعـاء الـديـن»[١] وهـو «عـنـوان صـحـيـفـة المؤمن»[٢].

و«ما يوضع في ميزان امرىء يوم القيامة أفضل من حسن الخلق»[٣].

و«حسن الخلق رأس كل برّ»[٤] وهو «من أفضل القسم وأحسن الشيم»[٥].

من هنا فإنه «لا قرين كحسن الخلق»[٦] و«لا عيش أهنأ من حسن الخلق»[٧].

لأن «من حسُنت خليقته طابت عشيرته»[٨] وعلى كل حال فإن «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً»[٩] «فالأخلاق من ثمار العقل»[١٠].

صحيح أن في داخل كل إنسان كوامن خيّرة، تدعوه إلى

---

(١) كنز العمال: خ ٥١٣٧.
(٢) بحار الأنوار: ج ٧١، ص ٣٩٢.
(٣) الكافي: ج ٢، ص ٩٩.
(٤) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٥) المصدر السابق.
(٦) بحار الأنوار: ج ٦٩، ص ٣٠٦.
(٧) بحار الانوار: ج ٧١، ص ٣٨٩.
(٨) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٩) الكافي: ج ٢، ص ٩٩.
(١٠) غرر الحكم ودرر الكلم.

الالتزام بالأخلاق، والعمل الصالح، وكوامن شرّيرة تدعوه إلى الفساد والشرّ ومناوئة الصالحين، غير أن العقل والعلم والدين إذا كانت في امرىء فإنها تُثير كوامنه الخيّرة، وتقمع كوامنه الشريرة، فيكون ملتزماً بالأخلاق.

يقول الإمام علي عليه السلام: «رأس العلم: التمييز بين الأخلاق، وإظهار محمودها وقمع مذمومها»[١] ويقول: «ابذل في المكارم جهدك تخلص من المآثم وتحرز المكارم»[٢] ويقول: «عليكم بمكارم الأخلاق فإنها رفعة، وإياكم والأخلاق الدنيئة فإنها تضع الشريف وتهدم المجد»[٣].

وبمقدار ما تكون الأخلاق الحسنة مطلوبة، فإن «سوء الخلق» مذموم حيث إن «الخلق السّيئ يفسد العمل كما يفسد الخلّ العَسَل»[٤]. فـ «سوء الخلق شر قرين»[٥] وهو «نكد العيش وعذاب النفس»[٦] كما أنّه «ذنب لا يغفر»[٧] لأن

(١) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٢) ميزان الحكمة: ج ٣، ص ١٤٧.
(٣) بحار الأنوار: ج ٧٨، ص ٥٣.
(٤) بحار الأنوار: ج ٧٣، ص ٢٩٧.
(٥) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٦) المصدر السابق.
(٧) بحار الأنوار: ج ٧٣، ص ٢٩٧.

«صاحب الخلق السّيئ إذا تاب من ذنب، وقع في أعظم من الذنب الذي تاب منه»[١].

ولهذا فقد سئل الإمام علي عليه السلام عن أدوم الناس غماً، فقال عليه السلام: «أسوأهم خلقاً»[٢] لأن «من ساء خلقه عذّب نفسه»[٣] و«من ضاقت ساحته، قلّت راحته»[٤] و«ملّه أهله»[٥] وهو حتماً «كثير الطيش منغّص العيش»[٦].

* * *

وقد يتساءل البعض ما هي الأخلاق الحسنة، وما هي الأخلاق السيئة؟

والجواب أن الأخلاق الحسنة والتي قد يعبّر عنها بمكارم الأخلاق هي في بعض مفرداتها: «صدق البأس، وصدق اللسان، وأداء الأمانة وصلة الرّحم. وإقراء الضّيف، وإطعام السائل، والمكافأة على الصنائع. والتذمم للجار، والتذمم للصاحب. ورأسهن الحياء»[٧] و«الصبر. والشكر. والحلم.

---

(١) مستدرك الوسائل: ج ٢، ص ٣٣٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) بحار الأنوار: ج ٧٨، ص ٢٤٦.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم.

(٥) المصدر السابق.

(٦) المصدر السابق.

(٧) كنز العمال: ج ٣، ص ٤.

والسخاء، والغيرة. والشجاعة. والمروءة»[1] و«الصفح عن الناس. ومواساة الرجل أخاه في ماله»[2] و«العدل. والورع»[3] و«تجنّب الحرام»[4] و«الإيثار»[5] و«قضاء اللوازم»[6] و«العفو عمّن ظلمك، وصلة من قطعك، وإعطاء من حرمك، وقول الحق ولو على نفسك»[7].

وإذا كانت تلك هي الأخلاق الحسنة، فإن أضدادها تكون هي الأخلاق السيئة. .

وما يميّز الصادقين عن غيرهم هو مقدار ترفّعهم عن شرار صفات الرجال، وتمسّكهم بخيار صفاتهم. أمّا الكاذبون فهم من يتوسّل لنيل مقاصده بكل ما يستطيع، من غير أن يلزم نفسه بحدود، أو يلزمها بأخلاق. . معتبراً النجاح، لا الالتزام، ميزان العمل. .

ولقد كان الإمام علي عليه السلام إلى جانب إيمانه وحكمته، وعلمه، وبلاغته في القمّة من الناحية الخُلقية، وذلك من

---

(١) بحار الأنوار: ج ٦٩، ص ٣٦٨.
(٢) بحار الأنوار: ج ٦٩، ص ٣٧٣.
(٣) كنز العمال: خ ٤٣٥٤٢.
(٤) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٥) المصدر السابق.
(٦) المصدر السابق.
(٧) بحار الأنوار: ج ٦٩، ص ٣٦٨.

أسباب تميّزه على مناوئيه على مرّ التاريخ. . فقد كان صورة حيّة للمروءة، والصدق، والوفاء، وكرم النفس، والصراحة، والشجاعة والعطف، والنبل، والصّبر، ونكران الذات. .

وعلى العكس كان مناوئوه الّذين كانوا نموذجاً للإثرة، والأنانية والملق، والدجل، والمكر، والانحدار في الأخلاق. .

وبالرغم من أن العصر الذي عاش فيه، كان عصر حب الدنيا والإقبال عليها، وعصر الذهب والفضة، والمداورة، والمؤامرة والزيف والحيف، فإن الإمام رفض أن ينتصر على حساب أخلاقه، وكان يقول لمن كان يوصّيه بخلاف ذلك: «أتأمروني أن أطلب النصر بالجور، والله لا أطور به ما سَمَر سمير وما أمّ نجم في السماء نجماً»[1].

فالإمام علي عليه السلام ـ كما يقول أحدهم ـ «لا يرضى الدنية في دينه أو دُنياه، يعرف طريق الغدر ولا يسلكه، الخدعة عنده لا تجوز إلّا في الحرب ولا يمارسها، أما في زمن السلم فهي لون من الخيانة والكذب، ومسلك زري لا يجمل بالإنسان التقي. .

هو قدوة: له قيمه العليا ومثله السامية التي يتمسّك بها ولا

---

(١) نهج البلاغة: الخطب ١٢٦.

يتنازل عنها لأنه تربّى عليها، ولأنها وحدها هي الجديرة ـ في رأيه ـ بإصلاح الناس..

يعرف ما يرضي الناس ـ كما قال لهم ـ ولكنه لا يأتيه، لأنه يرى فيه ظلماً لآخرين، وإغضاباً لله!.

الإمام عليٌّ رجل دولة بصير بسياسة أُمور الرعية، ولكنه يريد أن يقيم سياسته على دعائم من مكارم الأخلاق، ولا يضيره ما يعاني وهو يشقّ الطريق الوعر إلى الحقيقة، ليقيم العدل، ويحقق للناس المساواة، ويدفع الظلم، ولو أنه عدل عن نهجه السوي لحظة، لتهدّمت قيم نبيلة، وانهارت مثل عليا».

«الإمام عليٌّ يرى أن صلاح الغاية لا يتم إلّا بصلاح الوسيلة، وغايته مصلحة الأُمة، وصلاحها.

ولأن يخسر أمنه، وراحته، خير من أن يهدر قيمه.. ولأن يهدي به الله رجلاً واحداً، خير له من الدنيا وما فيها!!

الإمام علي استقى من منبع النبوّة، وتربّى بخلق النبوة، فكان رباني هذه الأُمة»[١].

ذات مرة سأل معاوية أحد رؤساء العرب: «لم أحببتَ علياً؟

---

(١) علي إمام المتّقين: ج ٢، ص ٢٣٠.

فقال ـ «لثلاث خصال: حلمه إذا غضب، وصدقه إذا قال، وعدله إذا حكم».

وهكذا كان الإمام كريم النفس، عظيم الصدق، كثير الوفاء، فلم تكن القضايا التافهة ـ بما فيها الدنيا وما فيها ـ لتسلبه القدرة على ضبط النفس، والعمل بالحلم، والعفو. .

لقد جاءته فرصة ذهبية للتخلّص من أحد ألدّ أعدائه، وهو عمرو بن العاص، الذي كان المخطط الأول لمعاوية، ولكنه عليه السلام فوّتها على نفسه لحيائه. .

وخلاصة ذلك أن علياً عليه السلام بعد أن كثر القتل والقتال في الناس في صفّين علا فوق التل، ونادى بأعلى صوته: يا معاوية، فأجابه معاوية، فقال الإمام: «علامَ يقتتل الناس؟ ابرز إليّ ودع الناس فيكون الأمر لمن غلب»!.

فقال عمرو بن العاص لمعاوية: «أنصفك الرجل». فضحك معاوية وقال: «طمعت فيها (الخلافة) يا عمرو؟» ـ ويقصد أنه إن هو بارز علياً فهو مقتول لا محالة، فعند ذاك يحصل عمرو على مطمعه في الخلافة.

فقال عمرو: «واللهِ. . ما أراه يجمل بك، إلّا أن تبارزه».

فقال معاوية: «والله ما أراك إلّا مازحاً. نلقاه بجمعنا»

يريد بذلك أن علياً لا يجرؤ الأفراد على مبارزته، بل الجماعات.

وبعد أن تكرّرت دعوة الإمام لمعاوية بالمبارزة، وإحجامه عن الإجابة ومجادلته مع عمرو بن العاص الذي كان يصرّ على معاوية أن يبارز الإمام، أخذت عمراً العزّة بالإثم فقال في إحداها: «أتجبن عن عليّ، وتتّهمني في نصيحتي إليك؟، والله لأبارزنه ولو متّ ألف موتة».

وبارز عمرو علياً، فما هي إلّا لحظات حتى طعنه عليّ فصرعه، ثم ومض سيفه كشعلة من النار فوق هامته فأدرك عمرو أنه هالك فكشف عن عورته وهو يتخبّط على الأرض - فصرف الإمام وجهه عنه، وتركه يسرع هارباً. وكان الإمام لا ينظر إلى عورة أحد حياءً أو تكرّماً.

فقال بعض أصحاب الإمام: «أفلت الرجل يا أمير المؤمنين..» فقال عليه السلام: «تلقّاني بعورته، فصرفت وجهي عنه»[1]!.

وروى عمرو ما حدث له مع الإمام، فقال له معاوية: «اِحمد الله، وعورتك»! ثم قال شعراً يزري بعمرو، فقال عمرو: «ما أشدّ تعظيمك علياً في أمري هذا. وهل هو إلّا

---

(١) علي وعصره: ج ٤، ص ٢٥٨.

رجل لقيه ابن عمه فصرعه! فترى أن السماء قاطرة لذلك دماً»؟.

قال معاوية: «لا . . ولكنّها معقبة لك خزياً». .

وبالرغم من أن مصرع عمرو بن العاص ـ لو كان يتمّ ـ كان ربما يغير معادلة الحرب كلها لمصلحة الإمام لما كان يسبّبه من الذعر في جيش الشام، بالإضافة إلى أن ذلك كان يعني القضاء على الساعد الأيمن لمعاوية، وصاحب الحيلة الأولى في أصحابه، فإن الإمام التزم بكرم النفس، ولم يلتزم بإحراز النصر. .

ثم إنه شاع خبر الطريقة التي تخلّص بها عمرو من سيف ذي الفقار فأتبعها أشخاص آخرون من قادة جيش معاوية منهم «بسر بن أرطأة» وهو من أقوى فرسان معاوية، حيث إنه تقدّم لعلي عليه السلام وكان الإمام في الدروع والزرود لا يتبيّن منه إلّا عيناه فلم يعرف «بسر» أنه علي عليه السلام فتصدّى له، فلما تلقّى أول ضربة منه، في الصراع، أدرك من ثقل الضربة أنها لعلي! فقد أوقعته من على ظهر فرسه، فما كان من «بسر» ـ وقد أدرك خطورة الموقف ـ إلّا أن قلّد عمرو، وكشف عن عورته. وكان موقف عليّ منه كما كان مع عمرو، فكشح بوجهه عنه وتركه يفلت هارباً. .

إنه كريم النفس، وهو إذ يفعل ما يفعل فهو لا يتكلّف ذلك لأنه ملتزم بالأخلاق ولا يرضى لنفسه إلّا أن يلتزم بها. .

أو ليس هو القائل: لو كنّا لا نرجو جنَّة، ولا نخشى ناراً، ولا ثواباً ولا عقاباً، لكان ينبغي لنا أن نطلب مكارم الأخلاق فإنها مما تدلّ على سبيل النجاح»[١]؟

وأين تظهر مكارم أخلاق الرجل؟ أليس حينما تتناقض مصالحه مع مبادئه، وقيمه مع رغبته؟

ثم إن الإمام كان يعفو، ويصفح عن عدوّ ويعرف سلفاً أنه لو كان هو المنتصر لم يكن ليصفح عنه أو يعف، أو يرحم!

من ذلك أنه عليه السلام حينما صرع عمرو بن عبد ودّ العامري في معركة الخندق رفض أن يسلِبه درعه، بعد أن قال له عمرو ـ والإمام على صدره ينوي قتله ـ:

«لا تكشف سوأة ابن عمك ولا تسلبه سلبه».

فقال له الإمام: «ذاك أهون عليّ!»

وحينما عاد إلى رسول الله منتصراً، قال له عمر بن الخطاب: «هلّا سلبت درعه، فإنها تسوى ثلاثة آلاف، وليس للعرب مثلها؟!

فقال الإمام: «إني استحيت أن أكشف ابن عمّي».

---

(١) مستدرك الوسائل: ج ٢، ص ٢٨٣.

ولكرم النفس هذا روي أنه حينما جاءت أخت عمرو ورأته غير مسلوب، قالت: «إنما قتله كريم»[1].

ولقد قال الإمام فيما ينسب إليه من الشعر عن عفّته في سلب عمرو:

وعففت عن أثوابه لو إنّني كنتُ المقطَّر بزّني أثوابي

هذا وكان الإمام يوصي قنبراً خادمه بقوله: «يا قنبر لا تعرٌ فرائسي» ويقصد بذلك أن لا تسلب قتلاي[2].

* * *

لقد كان عليه السلام عظيماً في شخصيته، ولم يكن يستمدّ شخصيته من مظاهر القوة الفارغة من البطش والتنكيل، وما شابه ذلك. ولم يكن ممّن يُغريه سلطانه، وقوّته الجسدية، أن يأخذ أحداً بأكثر مما يستحق، أو أن تسمح له سلطاته الواسعة تجاوز مفردة واحدة من مفردات الأخلاق الرفيعة. . بل كان يردّ البذاءة الشخصية بالعفو والصفح، والردّ الجميل.

من ذلك ما روي أنه بعد ثلاثة شهور من مبايعة الناس له، وطلب الإمام من معاوية الدخول في الطاعة، ولزوم الجماعة، ومعاوية لا يردّ على رسائل الإمام أرسل معاوية رجلاً من بني عبس ومعه كتاب، فلما فضه عليٌّ وجده خالياً من الكتابة! فقال للرسول: «ما وراءك»؟!:

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ج ١، ص ٣١٩.

(٢) بحار الأنوار: ج ٤١، ص ٧٣.

قال: «وأنا آمن»؟

قال الإمام: «إن الرُسُل لا تُقتل».

قال: «تركت قوماً لا يرضون إلّا بالقَوَد».

قال الإمام: «ممّن»؟

قال العبسي: «من خيط رقبتك! وتركت ستّين ألف شيخ كلهم يبكي تحت قميص عثمان، وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق»!

قال الإمام: «أمنّي يطلبون دم عثمان؟ ألست موتوراً بترة عثمان؟ اللَّهُمّ إني أبرأ إليك من دم عثمان! نجا والله قتلة عثمان إلّا أن يشاء الله، فإنه إذا أراد أمراً أصابه. أُخرج».

قال العبسي: «وأنا آمن»؟

قال الإمام: «وأنت آمن».

وحاول بعض أصحاب الإمام أن يفتكوا بالعبسي، فأنقذه الإمام وحماه... ثم أمر بعض أصحابه أن يُحسنوا إليه، فما زالوا به حتى أنضمّ إليهم وهجر معاوية، وكشف لهم خطة معاوية للقتال، وللزحف على المدينة، وما يدور بين معاوية وبين خصوم الإمام من مراسلات...[1]

* * *

(١) علي إمام المتّقين: ج ١، ص ٢٤٤.

إن كرم النفس عند الإمام والتزامه بالأخلاق الحسنة كانت تدعوه إلى الصفح والعفوّ حتى لألدّ أعدائه والحرب لا تزال قائمة . .

ومن ذلك ما روي عن إطلاق سراح أسرى جيش الشام، من غير فدية، أو عقاب. بالرغم من أن خصمه معاوية أوشك أن يقتل الأسرى من جيش الإمامعليه السلام ذلك أن هذا الأخير كان قد أسر بعض أصحاب الإمام، فقال عمرو لمعاوية: «أُقتلهم»، وهمّ معاوية بذلك.

فقال له أحد الأسرى، وهو من قبيلة الأزد: «لا تقتلني فإنك خالي».

[illegible] معاوية: «من أين أنا خالك ولم يكن بيننا وبين أزد مصاهرة؟» قال الأزدي: «إن أخبرتك فهو أماني عندك»؟

قال معاوية: «نعم».

قال: «أليست أختك أم حبيبة بنت أبي سفيان زوجة النبي»؟

قال: «بلى».

قال: «أليست هي أم المؤمنين؟ فأنا ابنها، وأنت أخوها، فأنت خالي».

فأعجب معاوية بدهاء الأزدي، وسُرّ بحسن حيلته،

وصفّق طرباً، وقال: «ما له! لله أبوه! أما كان في هؤلاء الأسرى من يفطن لها غيره»؟ وأطلقه.

فأشار عمرو عليه أن يقتل الأسرى الآخرين.

وإن معاوية ليوشك أن يقتل الأسرى من أصحاب علي، إذ بأصحاب معاوية الّذين كان قد أسرهم عليّ يعودون، فيشيدون بحسن المعاملة التي لقوها، ويحملون إلى معاوية ومن معه فتوى الإمام: «إن أسير أهل القبلة لا يفادى، ولا يُقتل».

فأطلق معاوية الأسرى من أصحاب علي، وهو يقول لعمرو مؤنباً: «يا عمرو، لو أطعناك في هؤلاء الأسرى لوقعنا في قبيح من الأمر»[1].

كان الإمام يقاتل أعداءه، ولكنه كان خصماً يلتزم بمبادىء الشرف والفروسية ولا يتجاوز حدود ما أنزل الله، فلم يكن ينطلق من البغضاء والشحناء بل من مبدأ مقاومة الظلم والعدوان.

فمع أنه كان يقاتل أعداءه، فإنه لم يكن ليسمح لأصحابه بأن يشتموهم ويلعنوهم.. فللّعدو احترامه، بالرغم من أنّه يجوز قتله..

(١) المصدر السابق: ج ٢، ص ٩٩.

فقد روي «أن الإمام علياً خرج إلى النَّاس فوجدهم يشتمون ويلعنون معاوية ومن تبعه، فزجرهم الإمام:

فقال الأشتر: «ألسنا محقّين»؟

قال: «بلى».

قال حجر بن عدي: «أليسوا مبطلين»؟

قال: «بلى».

فقال الناس: «فلمَ تمنعنا عن شتمهم»؟

قال: «إني أكره لكم أن تكونوا سبّابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم، كان أصوب في القول وأبلغ في العذر. فإن قلتم مكان سبّكم إيّاهم: «اللّهُمَّ احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واَهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق منهم من جهله، ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به» كان هذا أحبّ إليّ، وخيراً لكم».

فقال الأشتر وحجر بن عدي: «يا أمير المؤمنين نقبل عظتك. ونتأدّب بأدبك»[1].

ومن ذلك أيضاً ما روي أن أصحابه سألوه عن الخوارج: «أمشركون هم يا أمير المؤمنين».

قال: «من الشرك فرّوا».

قالوا: «أمنافقون»؟.

(١) كتاب صفّين: لنصر بن مزاحم، ص ١٠٣.

قال: «إن المنافقين لا يذكرون الله إلّا قليلاً»!.

قالوا: «فمن هم يا أمير المؤمنين»؟

قال: «إخواننا بغوا علينا فقاتلناهم على بغيهم. فاْذكروا عني إذا لقيتموهم من بعدي أنهم طلبوا الحق فأخطأوه، أما القاسطون فقد طلبوا الباطل فأصابوه»![1].

فهو يقاتلهم، ولكنه يأبى أن يتّهمهم بما ليس فيهم!

ثم إن القتال عنده له أُصوله أيضاً، فليس الغدر قتالاً، ولا المباغتة من دون الأعذار جائزاً عنده، بل لا بد من الالتزام بالأصول الأخلاقية. ومن هنا فإن الإمام حينما أرسل الأشتر في مقدمة الجيش إلى مناوئيه أوصاه قائلاً:

إيّاك أن تبدأ بقتال إلّا أن يبدأوك، حتى تلقاهم فتدعوهم وتسمع منهم، ولا يحملك بغضهم على قتالهم قبل دعائهم والإعذار إليهم مرة بعد مرة، واْجعل على ميمنتك زياداً وعلى ميسرتك شريحاً، ولا تَدْنُ منهم دُنوّ من يريد أن ينشب الحرب، ولا تتباعد عنهم تباعد من يهاب البأس. حتى أقدم إليك حثيث المسير في إثرك إن شاء الله تعالى»[2].

---

(١) علي إمام المتّقين: ج ٢، ص ٢٠٢.

(٢) المصدر السابق: ج ٢، ص ٢٦.

وأوصى معطل بن قيس الرياحي حين أنفذه إلى الشام في ثلاثة آلاف كمقدمة لجيشه، قائلاً:

«أتق الله الذي لا بدّ لك من لقائه، ولا منتهى لك دونه، ولا تقاتلن إلّا من قاتلك... فإذا لقيت العدو فقف من أصحابك وسطاً، ولا تدن من القوم دنوّ من يريد أن يُنشب الحرب، ولا تباعد عنهم تباعد من يهاب البأس، حتى يأتيك أمري، ولا يحملنّك شنآنهم على قتالهم قبل دعائهم والاعذار إليهم»[١].

لقد كان الإمام يتمتّع بصفة التورّع عن البغي، والمرونة مع الخصم سواء كان خصمه قوياً أم ضعيفاً، كما كان يتمتع بصفة سلامة الصدر من الضغن على العدوّ بعد الفراغ من القتال..

فمن تورّعه عن البغي، مع قوّته البالغة وشجاعته المعروفة، أنه لم يبدأ أحداً قط بقتال وله مندوحة عنه. كان لا يدعو إلى مبارزة، ولكنه إذا دُعي إليها يهرول إليها هرولة الولهان..

لقد علم أنّ الخوارج بدأوا يفارقون عسكره ليحاربوه، وقد قيل له: «إنهم يُبيّتون النية للخروج عليك فبادرهم قبل أن يبادروك» فقال: «لا أقاتلهم حتى يقاتلوني. وسيفعلون»[٢].

---

(١) كتاب صفّين: ص ١٩٨.

(٢) عبقرية الإمام علي: ص ١٩.

وكذلك فعل قبل وقعة الجمل، وقبل وقعة صفّين، وقبل كل المعارك صغرت أم كبرت، سواء كانت نية العدو واضحة في العدوان أم غير واضحة، كان يدعوهم إلى السلام، وينهى أصحابه عن المباداة بالشّر، فما رفع يده بالسيف قطّ إلّا وقد بسطها للسلام من ذي قبل.

ولقد أصاب المقتل من أعدائه عدّة مرات، فلم يهتم بالفرصة السانحة بين يديه، لأنّه كان ملتزماً بأخلاقيات المقاتل المؤمن، وكان يريد أن ينتصر على عدوّه أنتصار الشريف، لا أنتصار الأنذال، ولم يكن يريد قط أن يستلب الغلبة قصاصاً أو تشفياً . .

ففي معركة الجمل، لاحت له فرصة أن يمنع أعداءه الماء، فأبىٰ أن ينتهزها كما فعل ذلك فيما بعد معه أصحاب معاوية . .

وبعد المعركة، منع الإمام أصحابه أن يستبيحوا السّبي، ويأخذوا غنائم منهم، فغضب بعض أصحابه من ذلك فقالوا له: «يا أمير المؤمنين . . أتراه تحلّ لنا دماءهم، وتحرّم علينا أموالهم؟».

فقال عليه السلام: «إنما القوم أمثالكم . . من صفح عنّا فهو منّا

ونحن منه، ومن لجَّ فقتاله منّي حتى يُصاب على الصدر والنحر»[1].

وكان عليه السلام لا يتّبع منهزماً، ولم يكن يجهز على جريح[2] وكان يوصي أصحابه بذلك أيضاً. فقد قال قبيل معاركه مع أهل الشام:

«لا تقاتلوهم حتى يقاتلوكم. وأنتم ـ بحمد الله ـ على حجّة، وترككم قتالهم حتى يبدأوكم حجّة أخرى لكم عليهم، فإذا هزمتموهم بإذن الله فلا تقتلوا مدبراً، ولا تصيبوا معوراً ولا تجهزوا على جريح، ولا تكشفوا عورة، ولا تمثلوا بقتيل، فإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا ستراً، ولا تدخلوا داراً إلّا بإذن، ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم إلّا ما وجدتم في عسكرهم من عدّة الحرب وأدواتها[3].

* * *

وكان مع عدوّه رحيماً.. يريد له الخير، وينصحه لعلّه يؤوب عن ذنبه، ويخلّص نفسه من نار جهنم. لقد خرج عليه طلحة والزبير فوقف معهما الإمام ينصحهما طويلاً، حتى ٱستطاع أن يؤثّر على الزبير فٱعتزل عن القتال، ولكن أحدهم

---

(١) عبقرية الإمام علي: ص ٣٧.

(٢) بحار الانوار: ج ٤١، ص ٧٣.

(٣) مروج الذهب: ج ٢، ص ٧٣١.

تعقّبه طمعاً في بعض المغنم فقتله، ثم جاء بسيفه إلى الإمام، وهو يظن أنه عَلَيْتَلِا سيثمن عمله، ويمنحه الجائزة على ذلك، فغضب الإمام، وقال وهو يقلّب سيف الزبير:

«سيفٌ طالما كشف الكرب عن وجه رسول الله»!.

كان متأثراً مما آل إليه أمر الزبير، فإذا بالزبير يجرّد سيفه الذي كشف به الكرب عن وجه رسول الله، في وجه وصيّه فتأثر الإمام لمقتله، وبكاه..

ثم التفت إلى قاتله وقال:

ـ «سمعت رسول الله يقول: بشّر قاتل ابن صفيّة بالنار».

وطرده من محضره!

لقد كان الإمام يتمنّى على طلحة والزبير أن يعودا إلى رشدهما، ولكم حذّرهما من مغبّة تسعير نار الحرب. وفتح باب الفتنة.

ولكن الشيطان غلبهما من قبل، فوقع ما وقع، وقد قال لهما ولرجالهما، قبيل اندلاع المعارك: «..إن الأمر الذي كنت أحذّركم منه قد وقع، والذي وقع لا يُدرك، وإنّها لفتنة كالنار، كلّما سعرت ازدادت اضطراماً. وسأمسك الأمر ما استمسك، فإذا لم أجد بُداً، فآخر الدواء الكيّ»[1].

---

(١) التاريخ ـ للطبري: ج ٥، ص ١٥٨.

ووقعت الحرب، وتساقط القتلى على الجانبين، عشرات عشرات ثم مئات ومئات، وأحيط بطلحة، وأوشك أن يُقتل فصاح الإمام بأصحابه: «إياكم وصاحب البرنس!. إياكم وطلحة!. إياكم أن تقتلوه»![1].

ولكن طلحة قُتل فيما بعد بسهم مروان بن الحكم فأصاب مقتله..

وآستعرت المعركة من جديد، وخاضت الخيل في دماء الرجال، ورأى الإمام أنه ما من سبيل لحقن الدماء بعد.. فالجنون والغيظ والاحتدام والانفعالات المدمرة هي التي تحرّك سواعد الرجال!! ورآهم يتساقطون صرعى حول الجمل، فصاح: «اِعقروا الجمل، فإنه إن عُقر تفرّقوا». ولم يقل عليه السلام: آقتلوا صاحبة الجمل، ولا آقتلوا الرجال من حولها، بل قال: «آعقروا الجمل» ليحقن الدّماء!

وبعد المعارك.. بكى أعداءه لدخولهم النار، كما بكى أصحابه لمقتلهم ظلماً وعدواناً، وصلّى عليهم صلاة الجنازة ودفنهم!.

يقول أحدهم:

«لقد كان رضاهُ من الآداب في الحرب والسلم رضا الفروسية العزيزة من جميع آدابها ومأثوراتها.

---

(١) علي إمام المتّقين: ج ١، ص٢٧٩.

فكان يعرف العدوّ عدواً حيثما رفع السيف لقتاله. ولكنه لا يعادي امرأةً، ولا رجلاً مولّياً، ولا جريحاً عاجزاً عن نضال، ولا ميّتاً ذهبت حياته ولو ذهبت في مواجهته. . بل لعلّه يذكرُ له ماضيه يومئذٍ فيقفُ على قبره ليَبكيه ويرثيه ويصلّي عليه»[1].

* * *

كان يعاقب على قدر الذنب، ويأخذ على قدر الاستحقاق.

فبالرغم مما كان بينه وبين مُعاوية وجنوده من اللدد في العداء فإنّه لم يكن ينازلهم ولا يأخذ من ثاراته وثارات أصحابه عندهم إلّا بمقدار ما استحقوه في موقف السَّاعة: ففي يوم من أيام صفّين اتفق أن خرجَ من أصحاب معاوية رجل يسمى «كريز بن الصباح الحميري» فصاح بين الصفين: من يبارز؟ . .

فخرج إليه رجل من أصحاب علي فقتله ووقف عليه ونادى: من يبارز؟

فخرج إليه آخر فقتله وألقاه على الأوّل، ثم نادَى: من يُبارز؟

فخرج إليه الثالثُ فصنعَ به صنيعه بصاحبيه.

---

(١) عبقرية الإمام علي: ص ٣٨.

ثم نادى رابعة: مَن يُبارز؟. فأحجم الناسُ ورجَعَ من كانَ في الصفّ الأول إلى الصف الذي يليه.

وخاف عليّ أن يَشيع الرّعب بين صُفوفه فخرجَ إلى ذلك الرجل المدّل بشجاعته وبأسه فصرعه ثم نادى نِداءه من يبارز؟ حتى أتمّ ثلاثة قتلهم جميعاً صنعَ بهم صنيعه بأصحابه فكلما خرج أحد أصحاب معاوية، صرعه الإمام ونادى من يبارز؟ حتى أتمّ الثلاثة، ثم قال مسمِعاً الصفوف:

يا أيها الناس. إن الله عزّ وجلّ يقول: «الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص ولو لم تبدأونا ما بدأناكم».

ورجع إلى مكانه![1].

* * *

..وكانت للّرحم عنده حرمة خاصة، يأمر بأحترامها ويعتبرها مهماً إلى جانب الإيمان، والجهاد، والإخلاص، والصلاة والصوم، كما كان يعتبر صلة الرحم «مثراةً في المال ومنسأة في الأجل»[2] فحتى في حالة الحرب كان يأمر أن يُحترم الرحم، ففي صفّين «تبارز رجلان، فصرع أحدهما الآخر، فسقطت خوذة المغلوب، فإذا هو شقيق الغالب،

---

(١) عبقرية الإمام علي عليه السلام: ص ٢٠.

(٢) نهج البلاغة ـ الخطب: ١١٠.

فتوقّف حتى اَستأذن الإمام في أمره، فأمره الإمام أن يدع أخاه ويعفو عنه»[1].

* * *

وفي حالات السّلم «كان للناس أباً رحيماً» ـ حسب تعبير أحد أصحابه ـ ولقد ظهرت أخلاقه الكريمة، والتزامه بالأُصول الإنسانية في كثير من المواقف والأعمال نكتفي فيما يلي ببعضها . .

١

بالرغم من أنه عليه السلام كان يحكم بلاداً شاسعة، فإنه كان يمشي وحده من غير حرس أو حاشية، وذات يوم شاهد في الطريق المشترك بين البصرة والكوفة، رجلاً فسأله عن وجهته فقال إنه يقصد البصرة وفي المقابل كان الإمام يقصد الكوفة. وبعد أن سأله الإمام عن اسمه وقبيلته تبيّن أنه ليس مسلماً بل هو ذمّي. كان الطريق مشتركاً، وحينما وصلا إلى المفترق انصرف الرجل نحو طريق البصرة ففوجيء بالإمام ينصرف معه في ذات الطريق.

فقال للإمام ـ ولم يكن يعرفه بعد ـ: «ألم تقل إنك تقصد الكوفة؟

(١) علي إمام المتّقين: ج ٢، ص ٦٤.

قال الإمام: بلى.

فقال الرجل: . . ولكن هذا طريق البصرة.

قال الإمام: «قد عرفت. ولكن نبيّنا أمرنا أن نشيّع أصحابنا أربعين خطوة.

فقال الرجل: وهل أصبحت صاحبك؟

قال الإمام: نعم. . أنت صاحبي في هذا الطريق.

فسأل الإمام عن اسمه، فتبيّن له أنه أمير المؤمنين. فأسلم على يديه وقال: «والله إنها أخلاق الأنبياء»[1].

٢

بلغ من عمق تأثير أخلاق الإمام علي بن أبي طالب على الناس أنه ٱشترى عبداً، فعلّمه الإسلام وأعتقه، لكن العبد لزمه. . حتى إذا مات النجاشي ملك الحبشة، وٱضطربت الأمور من بعده، ٱكتشف الملأ من الحبشة أن هذا العبد هو ابن للنجاشي قد خطفه تجّار الرقيق وهو غلام وباعوه في مكة!!

فجاءه الملأ من الحبشة يعرضون عليه مُلك الحبشة خلفاً

---

(١) الإسلام في مواجهة الجاهلية: ص ١٥٧.

لأبيه النجاشي، لكنه رفض الملك وآثر البقاء على الإسلام في صحبة علي!![1].

٣

جاء رجل إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام فقال له: يا أمير المؤمنين إنّ لي إليك حاجة.

فقال: اكتُبها في الأرض فإنّي أرى الضرَّ فيك بيّناً.

فكتب في الأرض: أنا فقير محتاج.

فقال عليّ عليه السلام: يا قنبر اكسه حلّتين.

فأنشأ الرجل يقول:

كسوتني حلّة تبلى محاسنها
فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا

إن نلت حسن ثنائي نلت مكرمة
ولست تبغي بما قد نلته بدلا

إنّ الثناء ليحيي ذكر صاحبه
كالغيث يحيي نداه السهل والجبلا

لا تزهد الدهر في عرف بدأت به
فكلّ عبد سيجزى بالّذي فعلا

فقال عليه السلام: أعطوه مائة دينار.

---

(١) علي إمام المتّقين: ج ١، ص ١٧.

فقيل له: يا أمير المؤمنين، حلّة ومائة دينار؟ لقد أغنيته!

فقال: إنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنزلوا النَّاس منازلهم».

ثمَّ قال عليه السلام: إنّي لأعجب من أقوام يشترون المماليك بأموالهم ولا يشترون الأحرار بمعروفهم[1].

٤

يروى أنّ أعرابياً جاء الإمام فقال: يا أمير المؤمنين إنّي مأخوذ بثلاث علل: علّة النفس، وعلّة الفقر، وعلّة الجهل.

فأجابه أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: يا أخا العرب علّة النفس تعرض على الطبيب، وعلّة الجهل تعرض على العالم، وعلّة الفقر تعرض على الكريم.

فقال الأعرابيّ: يا أمير المؤمنين أنت الكريم، وأنت العالم، وأنت الطبيب، فأمر أمير المؤمنين عليه السلام بأن يُعطى له من بيت المال ثلاثة آلاف درهم، وقال: تنفق ألفاً بعلّة النفس، وألفاً بعلّة الجهل، وألفاً بعلّة الفقر[2].

٥

لقد هاله ترك علماء الشام مسؤولياتهم الأخلاقية فأرسل

---

(١) أمالي الصدوق: ص ١٦٤.

(٢) جامع الأخبار: ص ١٥٨.

إلى بطانة معاوية من علماء الشام، الّذين زعموا أن انضمامهم لمعاوية ضد أمير المؤمنين قضاء من الله وقدره: «أما بعد. .

أتأمرون الناس بالتقوى وبكم ضلّ المتّقون؟!، وتنهون النَّاس عن المعاصي وبكم ظهر العاصون؟!

هل منكم إلّا مفترٍ على الله يحمل إجرامه عليه وينسبه علانية إليه؟!. .

وهل منكم إلّا مَن السيف قلادته، والزور على الله شهادته؟

خالفتم أهل الحق حتى ذلّوا وقلّوا، وأعنتم أهل الباطل حتى عزوا وكثروا، فأنيبوا إلى الله وتوبوا، وتاب الله على من تاب، وقبل من أناب»[1].

وهكذا كان الإمام عصامياً في تمسكّه بالأخلاق لا يتنازل عنها مهما كلّفه من أمر، وهكذا يجب أن يكون المؤمنون في كل موقع ومورد.

وتلك هي وصيته للناس: أن تعصبوا للأخلاق الكريمة. . فهو القائل: «إن كان لا بد من العصبيّة، فليكن تعصّبكم لمكارم الخصال، ومحامد الأفعال، ومحاسن الأُمور التي تفاضلت فيها المجداء والنجداء من بيوتات العرب، ويعاسيب

---

(١) علي إمام المتّقين: ج ٢، ص ٣٦٧.

القبائل بالأخلاق الرغيبة، والأحلام العظيمة، والأخطار الجليلة، والآثار المحمودة.

فتعصّبوا لخلال الحمد: من الحفظ للجوار والوفاء بالذمام. والطاعة للبرّ. والمعصية للكبر. والأخذ بالفضل. والكفّ عن البغي. والإعظام للقتل. والإنصاف للخلق. والكظم للغيظ. وآجتناب الفساد في الأرض..

وآحذروا ما نزل بالأُمم قبلكم من المثلات بسوء الأفعال، وذميم الأعمال، فتذكروا في الخير والشرّ أحوالهم، وآحذورا أن تكونوا أمثالهم»[1].

(١) اعلام النبوّة ـ للماوردي: ص ٩٧.

اليقين

زاد العاملين في مواجهة الصعاب ثلاث: الاعتزاز بالله تعالى والثقة بالنفس، واليقين. فإذا ٱجتمعت في ٱمرىء فلا بد أن يشفع علمه بعمله، ويقينه بإقدامه.

فبمجرد أن تعلموا فلا بد أن تعملوا.

وبمجرد أن تتيقّنوا فلا بدّ أن تقدموا..

وإذا بدأتم فلا بد من مواصلة المسير من غير ما تردد أو تخاذل أو تراجع..

فـ «لا تجعلوا يقينكم شكاً ولا علمكم جهلاً، فإذا علمتم فٱعملوا، وإذا تيقّنتم فأقدموا»[1].

إن اليقين قد ينقلب إلى شك إذا ٱنفصل عن العمل،

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم.

فمشاكل الحياة وضغوط الأعداء وأهواء النفس، قد تحمل الشخص على التشكيك في معتقداته، والتردّد في مواقفه، والتراجع عن حقوقه..

وهنا تبرز قيمة «اليقين» في العمل، وضرورة الإصرار على الموقف في الممارسة، فـ «باليقين تدرك الغاية القصوى»[1] و«كفى باليقين غنى»[2] لأنّ «من أيقن أفلح»[3] و«ما أعظم سعادة من بوشر قلبه باليقين»[4]. وهكذا فإن «اليقين رأس الدين»[5] و«عماد الإيمان»[6].

ولقد كان أمير المؤمنين عليه السلام يطلب من الناس أن يسألوا الله تعالى اليقين ويقول: «أيها الناس.. سلوا الله اليقين، وارغبوا إليه في العافية فإن أجلّ النعمة العافية، وخير ما دام في القلب اليقين، والمغبون من غبن دينه، والمغبوط من غبط يقينه»[7].

---

(١) نهج البلاغة ـ الخطب: ١٥٧.
(٢) البحار: ج ٧٠، ص ١٧٦.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٤) مستدرك الوسائل: ج ٢، ص ٢٨٤.
(٥) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٦) المصدر السابق.
(٧) البحار: ج ٧٠، ص ١٧٦.

ونظراً إلى ما لليقين من الدور الهائل فقد قال عليه السلام: «نوم على يقين خير من صلاة على شك»[1] وقال: «يحتاج الإيمان إلى إيقان»[2]. .

وفي الحقيقة فإن يقين الفرد هو الذي يدفعه إلى الجهاد والصمود، فإن «من يستيقن يعمل جاهداً»[3] كما أنّه سبب الحزم ومجاهدة النفس، فإن «الموقن أشدّ الناس حزماً على نفسه»[4] إذ «يستدلّ على اليقين بقصر الأمل، وإخلاص العمل، والزهد في الدنيا» فإن «المؤمن يرى يقينه في عمله، وإن المنافق يرى شكّه في عمله»[5].

ولهذا كله كان «الصبر أول لوازم الإيقان»[6] فهو الدافع للاستقامة تماماً كما أن «سبب الإخلاص من اليقين»[7]وهو سبب الاستهانة بالمصائب. يقول الإمام علي عليه السلام في وصيته لابنه الحسن عليه السلام: «اِطرح عنك واردات الهموم بعزائم الصّبر

---

(١) تنبيه الخاطر، ص ٢٤.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٣) ميزان الحكم: ج ١٠، ص ٧٨٢.
(٤) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٥) المصدر السابق.
(٦) المصدر السابق.
(٧) المصدر السابق..

وحُسن اليقين . . وأحي قلبك بالموعظة، وأمته بالزهادة، وقوّه باليقين، ونوّره بالحكمة»[1].

* * *

ولقد كان الإمام عليه السلام على اليقين من أمره، والثقة بدينه، والاعتزاز بالله وهذه الصفات هي وراء عظمة شخصيته، حيث إنه لم يشك ولا لحظة واحدة في أنه على حق، وأن مناوئيه على باطل.

وكما يقول أحدهم «كانت لديه الثقة التي تتراءى مكشوفة في صراحتها واستقامتها، لأن صاحبها لم يتكلّف مداراتها، ولم يحسّ أنه يحتاج إلى مداراتها، ولأنه يعقدها ولا يتعمّد إبداءها، ولقد كانت فيه ثقة أصيلة لم تفارقه منذ حبا ودرج، وقبل أن يبلغ مبلغ الرّجال فما منعته الطفولة الباكرة يوماً أن يعلم أنه شيء في هذه الحياة الدنيا، وأنه قوة لها جوار يركن إليه المستجير. ولقد كان في العاشرة أو نحوها يوم أحاط القروم القرشيون بالنبي صلى الله عليه وآله ينذرونه وينكرونه وهو يقلّب عينيه في وجوههم ويسأل عن النصير ولا نصير. فلو كان بعليّ أن يرتاع في مقام نجدة أو مقام عزيمة لارتاع يومئذٍ بين أولئك الشيوخ الّذين رفعتهم الوجاهة ورفعتهم آداب القبيلة البدوية

---

(١) تحف العقول: ص ٥٢.

إلى مقام الخشية والخشوع. ولكنه كان علياً في تلك السن المبكّرة، كما كان علياً وهو في الخمسين أو الستين. فما تردّد - وهم صامتون مستهزئون - أن يصيح صيحة الواثق الغضوب: أنا نصيرك! فضحكوا منه ضحك الجهلِ والاستكبار. وعلم القدر وحده في تلك اللحظة أن تأييد ذلك الغلام أعظم وأقوم من حرب أولئك القروم»[١].

ومن شواهد هذه الثقة بالنفس، أنه حملها من ميدان الشجاعة إلى ميدان العلم والرأي حين كان يقول: «سلوني قبل أن تفقدوني فوالذي نفسي بيده لا تسألوني في شيء فيما بينكم وبين الساعة، ولا عن فئة تهدي مائة وتضلّ مائة، إلّا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها، ومناخ ركابها ومحط رحالها..»!.

ومن شواهدها أنه كان يقول - والخارجون عليه يرجمونه بالمروق -: «ما أعرف أحداً من هذه الأُمّة عبد الله بعد نبيّنا غيري، عبدت الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة تسع سنين»[٢].

لقد كان الإمام على يقين من إيمانه، وعلمه، وموقفه،

---

(١) عبقرية الإمام علي عليه السلام: ص ٢٥.
(٢) المصدر السابق: ص ٢٠٠.

وصدق عزيمته وهو القائل: «إني على يقين من ربّي، وغير شبهة من ديني»[1].

ولقد قال له أحدهم: يا أمير المؤمنين هل رأيت ربّك حين عبدته؟

فقال: «ويلك ما كنت أعبد ربّاً لم أره».

قال: وكيف رأيته؟

قال: «ويلك لم تره العيون بمشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان»[2].

لقد عبد الله تعالى عبادة من يراه، وهو القائل: «ما رأيت شيئاً، إلّا ورأيت الله قبله، ومعه، وبعده»!.

وكما في العبادة، كذلك في المواقف السياسية كان على يقين من أمره، فقد جاءه أحد رجاله فقال: «يا أمير المؤمنين، ما أرى عائشة وطلحة والزبير اجتمعوا إلّا على حق».

فقال: «إن الحق والباطل لا يُعْرَفان بالناس، ولكن اعرف الحق تعرف أهله، واعرف الباطل تعرف من أتاه».

فقال الرجل: فهلا أكون كعبد الله بن عمر وسعد فأعتزلكم جميعاً؟

---

(١) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٥٤.
(٢) التوحيد: ص ٩٦.

فقال الإمام: «إنهما خذلا الحق، ولم ينصرا الباطل. متى كانا إمامين في الخير يتبعهما الناس»!!

فأقسم الرجل أن يتبع أمير المؤمنين وحده![1].

وإذا كان الإمام عليه السلام يجادل أعداءه فلكي يهديهم الطريق ويرشدهم السبيل، وإلّا فلم تكن به حاجة إلى ذلك فيما يرتبط بيقينه فهو على بصيرة من دينه، وبيّنة من ربه، لم يكذب ولم يكذَّب، وهو القائل: «ما كذبت ولا كذّبت، ولا ضللت ولا ضلّ بي»[2] والقائل: «فوالذي لا إلٰه إلّا هو إني لعلىٰ جادة الحق، وإنهم (الأعداء) لعلىٰ مزلة الباطل»[3].

وقال قبيل معركة الجمل ـ بعد أن آستيأس من أن عائشة وطلحة والزبير سيجيبونه إلى السلام، وحقن الدماء، ورأى ما صنعوا آنفاً بعامله على البصرة عثمان بن حنيف، وقتلهم أنصاره، ولما رجعت رسله من عند عائشة وطلحة والزبير يؤذنونه بالحرب لا محالة!.. قال عند ذلك:

«إني قد راقبت هؤلاء القوم كي يَرْعَوُوا، أو يرجعوا، وَوبَّختهم بنكثهم، فلم يستحيوا، وأخرجوا ابن حنيف عاملي

---

(١) علي إمام المتّقين: ج ١، ص ٢٦٤.

(٢) نهج البلاغة: الحكم ١٨٥.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٤٣.

على البصرة بعد الضرب المبرح، والعقوبة الشديدة، وقتلوا رجالاً صالحين، ثم تتبعوا منهم من نجا، وقتلوهم صبراً! ما لهم قاتلهم الله أنى يؤفكون؟! وقد بعثوا إليّ أن أبرز للطعان، وأصبر للجلاد هبلتهم الهبول، لقد كنتُ وما أُهدَّد بالحرب ولا أُرهب بالضرب. فليرعووا فقد رأوني قديماً، وعرفوا نكايتي، فكيف رأوني»؟![1]. .

«أنا أبو الحسن الذي فللت حدّ المشركين، وفرّقت جماعتهم! وبذلك القلب ألقى اليوم عدوّي، وإني لعلى ما وعدني ربي من النصر والتأييد، وعلى يقين من ربّي، وفي غير شبهة من ديني».

«أيها الناس إن الموت لا يفوته المقيم، ولا يعجزه الهارب، ليس عن الموت محيد ولا محيص. من لم يقتل مات، والذي نفس عليّ بيده لألف ضربة بالسيف أهون من ميتة على الفراش»[2].

وقال عن طلحة والزبير ـ بعد الاحتجاج معهما: ـ «إن شأنهما مختلف، فأما الزبير فما أحسبه يقاتلنا وإن قاده اللجاج! وأما طلحة فسألته عن الحق فأجابني بالباطل، ولقيته

---

(١) كشف المحجّة: ص ١٧٣.
(٢) العقد الفريد: ج ٢، ص ٢٨٢.

باليقين، فلقيني بالشكّ، فوالله ما نفعه حقي، ولا ضَرّني باطله، وهو مقاتل غداً فمقتول في الرعيل الأول»[(١)]!

لقد قال الإمام ذات مرة: «ما شككت في الحق منذ أريتهُ، لم يوجس موسى عليه السلام خيفة على نفسه، بل أشفق من غلبة الجهّال ودول الضلال، اليوم تواقفنا على سبيل الحق والباطل... من وثق بماء لم يظمأ»[(٢)].

فقال له بعض من سمعه: «يا أمير المؤمنين ما سمعنا قبل اليوم مثل هذا!! إنه أفضل تفسير لقوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾[(٣)] وأفضل تبرئة لنبي الله من الشكّ في أمره»!

ولأنه عليه السلام ما شكّ في الحق منذ رآه، فإنه كان مستعداً للمواجهة مع الباطل ـ بعد الاحتجاج عليه، وإتمام الحُجّة له ـ مهما كانت النتائج بما في ذلك الهزيمة. ولقد قال: «ما على المسلم من غضاضة في أن يكون مظلوماً ما لم يكن شاكًا في دينه، ولا مرتاباً بيقينه»[(٤)].

وحينما أغار أحد أصحاب معاوية ـ وأسمه الضحّاك ـ

(١) علي إمام المتّقين: ج ١، ص ٢٧٠.
(٢) المسترشد ـ للطبري: ص ٩٥.
(٣) سورة طه، الآية: ٦٧.
(٤) صبح الأعشى: ج ١، ص ٢٩٩.

برجاله على الحيرة واليمامة، فنهبوا بيت المال، وهربوا إلى الشام. أرسل إليه أخوه عقيل بن أبي طالب كتاباً ينبئه فيه بأمر هذه الغارة، ويعرض عليه أن يخرج إليه ليؤيده. فردّ عليه الإمام علي عليه السلام برسالة جاء فيها: «. . . إن قريشاً قد اجتمعت على حرب أخيك، اجتماعها على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل اليوم. وجهلوا حقي، وجحدوا فضلي، ونصبوا لي الحرب وجدّوا في إطفاء نور الله، اللَّهُمّ فأجز قريشاً عني بفعالها، فقد قطعت رحمي وظاهرت علي».

أما ما ذكرت من غارة الضحّاك على الحيرة واليمامة، فهو أذلّ وألأم من أن يكون مرَّ بها، فضلاً عن الغارة، ولكنه جاء في خيل، فسرّحت إليه جند المسلمين، فلما بلغه ذلك ولّى هارباً، فاتّبعوه فلحقوه ببعض الطريق. حين همّت الشمس للإياب، فاقتتلوا، وقتل من أصحابه بضعة عشر رجلاً ونجا هارباً بعد أن أخذوا منه بالمخنق، ولولا الليل ما نجا!

«وأما ما سألت أن أكتب إليك فيه، فإن رأيي الجهاد حتى ألقى الله، لا يزيدني كثرة الناس حولي عزّة، ولا تفرّقهم عنّي وحشة، لأني محق، والله مع المُحقّ. . ».

«وما أكره الموت على الحق، لأن الخير كله بعد الموت لمن عقل ودعا إلى الحق».

«وأما ما عرضت به من مسيرك إليّ ببنيك وبني أبيك، فلا حاجة إلى ذلك، فذرهم راشداً مهدياً، فوالله ما أحبّ أن تهلكوا معي إن هلكت»[1].

وفي المعمعة من المعارك في صفّين. خرج رجل من أهل الشام ينادي بين الصفين: «يا أبا الحسن، يا علي، اِبرز إليّ».

فبرز إليه الإمام فقال: «يا علي! إن لك قدماً في الإسلام والهجرة، فهل لك في أمر أعرضه عليك يكون فيه حقن هذه الدماء»؟

قال له علي: «وما ذاك»؟

قال: «ترجع إلى عراقك فنخلّي بينك وبين العراق، ونرجع نحن إلى شامنا فتخلّي بيننا وبين شامنا».

فقال له علي: «لقد عرفت. إنما عرضت هذا نصيحة وشفقة. ولقد أهمني هذا الأمر وأسهرني، وضربت أنفه وعينيه، فلم أجد إلّا القتال أو الكفر بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وآله. إن الله تبارك وتعالى لم يرض من أوليائه أن يُعْصَى في الأرض وهم سكوت مذعنون، لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، فوجدتِ القتال أهون على نفسي من

(١) الأغاني: ج ١٥، ص ٤٤.

معالجة الأغلال في جهنم وموتات الدنيا أهون عليّ من موتات الآخرة»[1].

ولقد حاول معاوية، حينما رأى في إحدى مراحل الحرب أن الدائرة توشك أن تدور عليه، وأن علياً يوشك أن يكسب الحرب، فأراد التخلّص من ذلك بحيلة التظاهر بالمنطق والتلاعب بالألفاظ والتشكيك في حق الإمام فقال لعمرو: «قد رأيت أن أكتب لعليٍّ كتاباً أسأله الشام ـ وهو الشيء الأول الذي ردّني عنه وألقى في نفسه الشكّ والريبة». فضحك عمرو قائلاً: «أين أنت يا معاوية من خدعة علي»؟

فقال: «ألسنا بني عبد مناف»؟

قال عمرو: «بلى ولكن لهم النبوّة دونك! وإن شئت أن تكتب فاكتب».

فكتب معاوية لعليٍّ: «أما بعد، فإني أظنّك أن لو علمت أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت وعلمنا، لم يجنها بعضنا على بعض وإنّا وإن كنا قد غلبنا على عقولنا فقد بقي لنا منها ما نندم به على ما مضى، ونصلح به ما بقي، وقد كنت سألتك الشام على ألّا يلزمني لك طاعة ولا بيعة، فأبيت ذلك عليَّ. فأعطاني الله ما منعت، وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس، فإني

(١) مصباح المتهجّد: ص ٤٢٩.

لا أرجو من البقاء إلّا ما ترجو، ولا أخاف من الموت إلا ما تخاف، وقد والله رقت الأجناد، وذهبت الرجال، ونحن بنو عبد مناف ليس لبعضنا على بعض فضل إلّا فضل لا يُستذلّ به عزيز، ولا يُسترقّ به حُرّ، والسلام».

· فلما قرأ الإمام كتاب معاوية قال: «العجب لمعاوية وكتابه»!.

ثم كتب إلى معاوية: «أما بعد، فقد جاءني كتابك تذكر أنك لو علمت وعلمنا أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنها بعضنا على بعض.

فأنا وإياك منها في غاية لم نبلغها. وإني لو قتلت في ذات الله وحييت، ثم قتلت ثم حييت سبعين مرة، لم أرجع عن الشدة في ذات الله، والجهاد لأعداء الله.

وأما قولك أنه قد بقي من عقولنا ما نندم به على ما مضى، فإني ما نقّصت عقلي، ولا ندمت على فعلي. فأما طلبك الشام، فإني لم أكن لأعطيك اليوم ما منعتك أمس، وأما قولك: «إن الحرب قد أكلت العرب إلا حشاشات أنفس بقيت». ألا ومن أكله الحق فإلى الجنة. ومن أكله الباطل فإلى النار، وما استواؤنا في الخوف والرجاء فلستَ أمضى على الشكّ مني على اليقين، وليس أهل الشام بأحرص على الدنيا من أهل العراق على الآخرة.

وأما قولك: «فإنّا بنو عبد مناف ليس لبعضنا على بعض فضل»، فلعمري إنّا بنو أب واحد، ولكن ليس أمية كهاشم، ولا حرب كعبد المطلب، ولا أبو سفيان كأبي طالب، ولا المهاجر كالطليق ولا الصريح كاللصيق، ولا المحقّ كالمبطل. ولا المؤمن كالمدغل، ولبئس الخلف خلف يتّبع سلفاً هوى في نار جهنم.

وفي أيدينا بعدُ فضل النبوّة التي أذللنا بها العزيز، وأعززنا بها الذليل، ولما أدخل الله العرب في دينه أفواجاً، وأسلمت له هذه الأُمة طوعاً وكرهاً، كنتم ممّن دخل في الدّين، إمّا رغبةً وإمّا رهبة، على حين فاز أهل السبق بسبقهم وذهب المهاجرون الأولون بفضلهم، فلا تجعلن للشيطان فيك نصيباً ولا على نفسك سبيلاً والسلام»[1].

فلما قرأ معاوية كتاب الإمام، أخفاه.

ثم إن عمرو بن العاص ألحّ على معاوية حتى أطلعه على كتاب الإمام، فأثنى عمرو عليه، وأغضب ذلك معاوية.. فقال لعمرو عاتباً: «أردت تسفيه رأيي وإعظام عليّ! وقد فضحك» وكان عمرو يعظم عليًّا لأنه بعد أن صرعه لم يجهز عليه بل أشاح عنه بوجهه وتركه ينجو. فقال عمرو: «أما إعظامي عليًّا

(١) الفتوح ـ لابن أعثم: ج ٣، ص ٢٥٩.

فإنك بعظمته أشدّ معرفة مني، ولكنك تطوي ما تعرفه وأنا أنشره، وأما أنه فضحني يوم صارعته، فلم يفتضح أمراً لقي أبا الحسن»[1].

وبمقدار ما كان الإمام عليه السلام على يقين من أمره، كان أصحابه كذلك، فهذا «عمار بن ياسر» حينما انتصر مع الإمام على عائشة في معركة الجمل جاءها معاتباً لها عمّا فعلت، فقالت له:

ـ «أترى أنكم حين انتصرتم علينا كنتم على حق وكنا على باطل؟

فقال لها عمار:

ـ «والله لو ضربتمونا حتى بلغتم بنا سعفات هجر: لعلمنا أنّا على حق وأنكم على باطل، وإن قتلانا في الجنة، وإن قتلاكم في النار».

فالقضية بالنسبة إليه لم تكن قضية انتصار أو هزيمة فلو أنهم كانوا ينهزمون لكانوا على ما هم عليه: يقين بلا حدود، وإيمان بلا دخل..

وكما كان عمار بن ياسر، كذلك كان الكثيرون من صحابة الإمام.. فمثلاً حينما ذاع في جند العراق أن معاوية يعد من

---

(١) علي إمام المتّقين: ج ٢، ص ٨٨.

ينضم إليهم منهم بالغنى والجاه. . جاء إلى عليٍّ فارس من همدان فقال له: «يا أمير المؤمنين إن أقواماً طلبوا من معاوية العطاء فأغدق عليهم، فباعوا الدين بالدنيا. وإنّا رضينا بالآخرة من الدنيا، وبالعراق من الشام، وبك من معاوية.

يا أمير المؤمنين. . والله لآخرتنا خير من دنياهم، ولعراقنا خير من شامهم، ولإمامنا أهدى من إمامهم، فٱستفتحنا بالحرب، وثق منا بالنصر، وٱحملنا على الموت»[1].

هؤلاء كانوا من الّذين وصفهم عليه السلام بقوله:

ـ «إن من أحب عباد الله إليه عبداً أعانه الله على نفسه، فٱستشعر الحزن، وتجلبب الخوف، فزهر مصباح الهدى في قلبه، •أعدّ القرى ليومه النازل به، فقرّب على نفسه البعيد، وهوّن الشديد. . قد أبعد طريقه وسلك سبيله، وعرف مناره، وقطع غماره، واستمسك من العرى بأوثقها، ومن الحبال بأمتنها، فهو من اليقين على ضوء الشمس»[2].

---

(١) علي إمام المتّقين: ج ٢، ص ٩٦.

(٢) نهج البلاغة ـ الخطب ٨٧، وربيع الأبرار ـ للزمخشري ـ باب العزّ والشرف.

الزهد

ما من نبي من أنبياء الله العظام، إلّا وبشّر الناس بالآخرة ودعاهم إلى العمل من أجلها.

وما من صالح من الأولياء، إلّا وطلب منهم الزهد في درجات هذه الدنيا. ليس لأن هنالك تناقضاً بين الدنيا والآخرة، بل لأن الأولى خُلقت للأخرى. وليس لأن علينا أن نهمل حياتنا، بل لأن علينا أن نصلحها.. ولا صلاح للنفس إلّا بالزهد والتقوى، والورع والاجتهاد، والعفّة والسداد.

وبحق أقول لكم:

إن من يعرف حقيقة الدنيا، يزهد، لا محالة فيها.

وإن من يجهل حقيقتها، يتيّم - ولا شك - بها.

فمن عرف النهاية، زهد في البداية، ومن تذكر الموت والبلى عمل الخير والهدى، وشتّان ما بين من يعمل لآخراه، وبين من يعمل لدنياه.. وبين من انشغل بالصلاح، ومن انشغل باللذّات، وبين من عبد الله، ومن اتّخذ إلٰهه هواه..

والحق فإن «الزهد شيمة المتّقين[1] وهو أصل الدين»[2] و«ثمرته»[3] و«ينته»[4] وهو «مفتاح الصلاح»[5] فقد «جعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا»[6]. فـ «الزهد ثروة»[7] و«الزهد متجر رابح»[8] و«مع الزهد يثمر الحكمة»[9].

هـذا بـالإضـافـة إلـى أن «الـزهـد فـي الـدنـيـا: الـراحـة العظمى»[10] لأن «الزهد في الدنيا يريح القلب، والبدن»[11] بينما «الرغبة في الدنيا تورث الغمّ والحزن»[12] فإن «من زهد في الدنيا استهان بالمصيبات»[13] و«أعتق نفسه وأرضى ربّه»[14].

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٢) المصدر السابق.
(٣) ميزان الحكم: ج ٤، ص ٢٥٠.
(٤) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٥) المصدر السابق.
(٦) بحار الأنوار: ج ٧٣، ص ٤٩.
(٧) نهج البلاغة: الحكم ٤.
(٨) مستدرك الوسائل: ج ٢، ص ٣٣٢.
(٩) ميزان الحكمة: ج ٤، ص ٢٦٣.
(١٠) كنز العمال: خ ٦٠٦٠.
(١١) بحار الأنوار: ج ٧٨، ص ٢٤٠.
(١٢) حلية الأولياء: ج ١، ص ٧٤.
(١٣) غرر الحكم ودرر الكلم.
(١٤) مستدرك الوسائل: ج ٢، ص ٣٣٣.

ولهذا كله فإنه «ما عبد الله بشيء، أفضل من الزهد في الدنيا»[١]، ولذلك أيضاً «ما اتخذ الله نبيًّا إلّا زاهداً»[٢].

* * *

ثم إن أول موجبات الزهد: النظر إلى الآخرة، والاهتمام بها فإن «أصل الزهد حسن الرغبة فيما عند الله»[٣]، فقد أوحى الله إلى موسى: «أن عبادي الصالحين زهدوا فيها (الدنيا) بقدر علمهم بي، وسائرهم من خلقي، رغبوا فيها بقدر جهلهم بي، وما من أحد من خلقي عظّمها فقرّت عينه»[٤].

وهكذا فإن «زهد المرء فيما يفنى (من الدنيا) بقدر يقينه بها يبقى»[٥] وإلّا «كيف يزهد في الدنيا من لا يعرف قدر الآخرة»[٦]؟

* * *

وثاني موجبات الزهد: تذكر الموت، وما فيه من البلى.

فما قدر لذة تفنى، ونعيم يزول، وراحة يعقبها التعب، وشهوة تزول وملك لا يبقى؟

---

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.
(٣) ميزان الحكمة: ج ٤، ص ٢٥٥.
(٤) بحار الأنوار: ج ١٣، ص ٣٣٩.
(٥) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٦) المصدر السابق.

أن «من صور الموت بين عينيه، هان أمر الدنيا عليه»[١]، ولذلك فـ «إن العقلاء زهدوا في الدّنيا، ورغبوا في الآخرة، لأنّهم علموا أن الدنيا طالبة ومطلوبة، وأن الآخرة طالبة ومطلوبة، فمن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى يستوفي منها رزقه، ومن طلب الدّنيا طلبته الآخرة، فيأتيه الموت فيفسد عليه دنياه وآخرته»[٢].

ولقد مرّ أحد الأولياء على قبر، فقال: «إنّ شيئاً هذا آخره لحقيق أن يزهد في أوّله. وإنّ شيئاً هذا أوّله لحقيق أن يخاف آخره»[٣].

وثالث موجبات الزهد: معرفة نواقص الدنيا، فهي بقدر ما تنفع تضرّ، وهي بقدر ما تفرح تحزن، وهي بمقدار ما تعطي تأخذ، وهي بمقدار ما تعافي تمرض، وهي بمقدار ما تكون لك فهي عليك فإنّ «الدهر يومان، يوم لك ويوم عليك»[٤]، وهي تنقلب عليك بينما أنت تركن إليها، وتفجعك بينما أنت فرح بها.

فإنما «مثل الدنيا، كمثل الحيّة ليّن مسّها، والسّم الناقع

---

(١) ميزان الحكمة: ج ٤، ص ٢٥٦.
(٢) بحار الانوار: ج ٧٨، ص ٣٠١.
(٣) بحار الانوار: ج ٧٨، ص ٣٢٠.
(٤) تحف العقول ـ للحراني: ص ٢٠٧.

في جوفها، يهوى إليها الغرّ الجاهل، ويحذرها ذو اللّب العاقل»[1].

والحق «أن الدنيا كالشبكة تلتف على من رغب فيها، وتتحرر عمّن أعرض عنها، فلا تمل إليها بقلبك، ولا تقبل عليها بوجهك، فتوقعك في شبكتها، وتلقيك في هلكتها»[2].

وهكذا فإن «. . متاع الدنيا حطام موبوء فتجنّبوا مرعاه. . قلعتها أحظى من طُمأنينها، وبُلغتها أزكى من ثروتها، حكم على مكثرٍ منها بالفاقة، وأعين من غني عنها بالراحة، ومن راقه زبرجها أعقبت ناظريه كَمَهاً، ومن استشعر الشغف بها ملأت ضميره أشجاناً، لهن رقص على سويداء قلبه، همٌّ يشغله وهمٌّ يحزنه، كذلك حتى يؤخذ بكظمه فيلقى بالفضاء منقطعاً أبهراه، هيناً على الله فناؤه وعلى الإخوان إلقاؤه»[3].

فـ «كم أكلت الأرض من عزيز جسد وأنيق لون، كان في الدنيا غذّي (يتغذّى) ترف. وربيب شرف، يتعلل بالسرور في ساعة حزنه، ويفزع إلى السلوة إنْ مصيبة نزلت به. . . فبينما هو يضحك إلى الدنيا وتضحك الدنيا إليه في ظل عيش غفول، إذ وطىء الدهر به حَسَكه (نبات فيه شوك قوي)، ونقضت الأيام

---

(١) الإرشاد ـ للمفيد: ص ١٢٤.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم: ١١٧.

(٣) نهج البلاغة: الحكم ٣٦٧.

قواه ونظرت إليه الحتوف من كثب. . . وإن الموت لغمرات. هي أفظع من أن تستغرق بصفة أو تعتدل على عقول أهل الدنيا»[1].

ورابع موجبات الزهد: الانشغال بإصلاح النفس.

فمن عرف قدر نفسه، روّضها بالقناعة والكفاف، وترك الشهوات والملذّات، وزكّاها بالانقطاع عن تلبية سؤلها، ومقاومة طلباتها، ومجاهدة رغباتها. فإن النفس غرارة غدارة، إلّا من أدبر عنها، وتحرّر من ربقتها. .

* * *

وقد يسأل البعض: إذا كان الزهد مطلوباً فما هو؟ وأين يكون؟ وما هي نتائجه؟

والجواب: «إن الزهادة في الدّنيا ليست بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكنّ الزهادة في الدنيا أن لا تكون بما في يديك أوثق منك بما في يد الله عزّ وجلّ»[2].

فـ «الزهادة قصر الأمل، والشكر عند النعم، والتورّع عن المحارم[3] وهو تركك كل شيء يشغلك عن الله، من غير

(١) مطالب السؤول: ج ١، ص ١٠٠.
(٢) كنز العمال: خ ٦٠٥٩.
(٣) روضة الواعظين: ص ٤٣٤.

تأسّف على فوتها، ولا إعجاب في تركها، ولا ٱنتظار فرج منها، ولا طلب محمدة عليها، ولا عوض منها»[١].

وهكذا فإن «الزهد كلمة بين كلمتين من القرآن: قال الله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[٢] «فمن لم يأس على الماضي، ولم يفرح بالآتي، فقد أخذ الزهد بطرفيه»[٣].

ولذلك فإن الإمام علي عليه السلام كان يوصي قائلاً: يا بن آدم.. لا تأسف على مفقود لا يردّه إليك الفوت، ولا تفرح بموجود لا يتركه في يديك الموت»[٤].

أما أين يكون الزهد، فأولاً: فيما حرّم الله. وثانياً: في الزيادة مما أحلّه الله.. فالزهد هو ترك الحرام مهما كانت لذّته، ومنفعته.. فـ «الزاهد في الدنيا من لم يغلب الحرام صبره، ولم يشغل الحلال شكره[٥] فلا زهد كالزهد في الحرام»[٦].

كما هو ترك الزائد من الحلال، فالزاهد هو «الذي يترك

---

(١) بحار الأنوار: ج ٧٠، ص ٣١٥.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٣.
(٣) البرهان في تفسير القرآن: ج ٤، ص ٢٩٦.
(٤) تنبيه الخواطر: ص ٣٥٥.
(٥) بحار الأنوار: ج ٧٨، ص ٣٧.
(٦) البصائر والذخائر: ص ٢٥.

حلالها (الدنيا) مخافة حسابه (الله تعالى)، ويترك حرامها مخافة عذابه»[1].

ولقد أوحى الله تعالى إلى نبيه ليلة أسرى به فقال: «يا أحمد.. إن أحببتَ أن تكون أورع الناس، فأزهد في الدنيا، وأرغب في الآخرة». فقال رسول الله ﷺ: «يا إلهي كيف أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة؟».

فقال تعالى: «خذ من الدنيا خِفّاً من الطعام والتراب واللباس»[2].

أما ما هي نتائج الزهد، ففي الآخرة ثواب الله العظيم، كما أن من نتائج حبّ الدنيا، وترك العمل للعقبى عقاب الله الأليم. ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[3].

وأما في الدّنيا فالزهد هو الطريق إلى الحق، وعبادة الله تعالى. يقول الإمام علي عليه السلام: «العلم يرشدك إلى ما أمرك الله به، والزهد يسهّل لك الطريق إليه»[4].

---

(١) ميزان الحكمة: ج ٤، ص ٢٥٣.
(٢) بحار الأنوار: ج ٧٧، ص ٢٢.
(٣) سورة النازعات، الآيات: ٣٧ ـ ٤١..
(٤) غرر الحكم ودرر الكلم.

وفي الحقيقة لا يمكن أن يرى الإنسان نواقص الدنيا، وعيوبها إلّا إذا زهد فيها، فإن حبّ الشيء يعمي ويصمّ. يقول الإمام عليه السلام: «اِزهد في الدنيا يبصّرك الله عوراتها»[1].

فالحكمة، في الفهم والعمل والوعي، هي من نتائج الزهد ذلك أنه «ما زهد عبد في الدنيا إلّا أنبت الله الحكمة في قلبه، وأنطق بها لسانه، ويبصّره عيوب الدنيا، وداءها ودواءها، وأخرجه منها سالماً إلى دار السلام»[2].

فمن يزهد في الدنيا يتحرر من الشهوات والرغبات والعقد النفسية، ولن يتعصّب لباطل، ولا ينحاز لمعصية، ولا يرغب في مضرّة أحد.. وبذلك يرى الحقيقة كما هي وتنبت الحكمة في قلبه..

هذا بالإضافة إلى أنّ الزهد يجعل الإنسان نشيطاً في العمل الصالح، قوياً في تحمّل المكاره، خلوقاً في التعامل مع الناس، ملتزماً بالعدل والإنصاف، لأنه لا يرغب في مصلحة حتى يظلم الآخرين من أجلها، ولا يخاف من مضرة حتى يغدر للتخلّص منها..

---

(١) بحار الأنوار: ج ٧٠، ص ٣١٩.
(٢) بحار الأنوار: ج ٦٩، ص ٤٠٦.

فالزاهد «يختار الجهد على الراحة، والجوع على الشبع والذكر على الغفلة»[1].

* * *

ولكل ما سبق، كان الإمام علي عليه السلام زاهداً في دنياه، موصياً بنيه وأصحابه بالزهد، تاركاً لملذات الحياة، صابراً على بلاء الله، طالباً أجر الآخرة، محبًّا للمساكين، صديقاً للفقراء، نشيطاً في العمل الصالح، راغباً عن حطام الدنيا.

لقد قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا علي! إن الله تعالى قد زيّنك بزينة لم تزين العباد بزينة أحب إلى الله تعالى منها وهي زينة الأبرار عند الله عزّ وجلّ: الزهد في الدنيا، فجعلك لا ترزأ (أي تصيب) من الدنيا شيئاً ولا ترزأ منك الدنيا شيئاً، ووهب لك حب المساكين، فجعلك ترضى عنهم أتباعاً ويرضونك إماماً، فطوبى لمن أحبّك وصدق فيك، وويل لمن أبغضك وكذب عليك. فأما الّذين أحبوك وصدقوا فيك فهم (في الآخرة) جيرانك في دارك ورفقاؤك في قصرك، وأما الّذين أبغضوك وكذّبوا عليك فحق على الله أن يوقفهم موقف الكذابين»[2].

---

(١) بحار الأنوار: ج ٧٠، ص ٣١٥.

(٢) بحار الأنوار: ج ٤٠، ص ٣٣٠.

فكان الإمام ينظر إلى الدنيا من منظور الآخرة، وهو القائل: «والله، لدنياكم هذه، أهون في عيني من عراق خنزير في يد مجذوم»[1].

ولقد كان لزهده عليه السلام ستة أبعاد..

البعد الأول: الزهد للبساطة في الحياة.

البعد الثاني: الزهد لترويض النفس.

البعد الثالث: الزهد للتأسّي بالفقراء والمساكين.

البعد الرابع: الزهد للعطاء للآخرين.

البعد الخامس: الزهد لرفض الترف والسلطان والأبّهة والجلال.

البعد السادس: الزهد للالتزام بالعدل.

* * *

ففي البعد الأول، وهو الزهد للبساطة في الحياة.

كان الإمام حريصاً على أن يعيش على الكفاف، في المأكل والملبس وكل شؤون الحياة، ففي المدينة المنوّرة حيث بويع بالخلافة كان مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله مقرّ حكومته، وبيته المتواضع مسكنه، لم يغير ولم يبدّل. وفي الكوفة رفض السكنى في دار الإمارة، بل بنى إلى جنبها بيتاً متواضعاً. من

---

(١) نهج البلاغة: الحكم ٢٣٦.

ثلاث غرف، وسكن فيه، ولا تزال آثار قصر الإمارة الضخم، وآثار بيته المتواضع إلى جنبه، موجودة في الكوفة. .

وكانت فلسفته في ذلك: «وما أصنع بفدك، وغير فدك، والنفس مظانها في غد جدث (قبر) تنقطع في ظلمته آثارها، وتغيب أخبارها، وحفرة لو زيد في فسحتها، وأوسعت يدا حافرها، لأضغطها الحجر، والمدر، وسدّ فرجها التراب المتراكم؟»[1].

ولقد حكم الناس خمس سنين ما وضع آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة، ولا قصبة على قصبة، ولا أورث بيضاء، ولا حمراء، إلّا سبعمائة درهم فضلت من عطائه، أراد أن يبتاع بها لأهله خادماً، وما أطاق عمله منّا أحد، وإن كان عليّ بن الحسين عليه السلام لينظر في كتاب من كتب عليّ عليه السلام فيضرب به الأرض ويقول: من يطيق هذا؟[2].

ومن كان يطيق أن يفترش الأرض ويلتحف السماء، ويأكل من الطعام ما جشب، ويلبس من اللباس ما خشن وهو أمير المؤمنين؟

ومن قبل ذلك أيضاً، عاش الزهد وهو في ريعان

(١) روضة الواعظين: ص ١٢٧.
(٢) الامالي ـ للصدوق: ص ٧٣.

الشباب، فحينما تزوج بفاطمة في ليلة زفافه جاء بالرّمل فأفرش به غرفته[١]. أما فراشه فكان كما قال: «ما كان لنا إلّا إهاب كبش (الجلد غير المدبوغ) أبيت مع فاطمة بالليل، ونعلف عليها الناضح (البعير ليُستقىٰ عليه) بالنهار»[٢].

«وكان أحياناً لا يجد عملاً يقتات منه إلّا أن يملأ الدلو في بستان أحد الأغنياء من يهود المدينة، ليروي به البستان، وكان اليهودي يعطيه في كل دلو تمرة، فيعود إلى فاطمة بتمر يطعمها هي وأولادهما، وربما أهدى منه الرسول، إذا أصابته عليه الصلاة والسّلام خصاصة.. ولكم كانت تصيبه!!.. هكذا كان ﴿يُؤْتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾[٣] وفي الحق أنه كان عند ربه مرضياً»[٤].

ثم إنه عليه السلام «ما شبع من طعام قط، وكان أخشن الناس أداماً وملبساً»[٥].

وماذا كان طعامه؟ وماذا كان ملبسه؟

---

(١) السبيل إلى إنهاض المسلمين: ص ٤٣٦.
(٢) المصدر السابق.
(٣) سورة الليل، الآيات: ١٨ ـ ٢١.
(٤) علي إمام المتّقين: ج ١، ص ٢٠.
(٥) السبيل إلى إنهاض المسلمين: ص ٤٣٧.

روى النضر بن منصور، عن عقبة بن علقمة قال: دخلت على علي عليه السلام فإذا بين يديه لبن حامض آذتني حموضته وكسرة يابسة.

فقلت: «يا أمير المؤمنين أتأكل مثل هذا؟!»

فقال لي: «يا أبا الجنوب كان رسول الله يأكل أيبس من هذا، ويلبس أخشن من هذا (وأشار إلى ثيابه) وأخاف إن لم آخذ بما أخذ به، أن لا ألحق به»[1].

.. وزاره رجل من أصحابه فطلب الطعام، ولم يكن أمير المؤمنين موجوداً فأخرج إليه أبناؤه قصعة فيها مرق بحبوب. فقال: «تطعمون هذا وأنتم أمراء الناس»؟.

قالوا: «كيف لو رأيت طعام أمير المؤمنين»!؟[2].

وقال عبد الله بن أبي رافع «دخلت إليه يوم عيد فقدّم جراباً مختوماً فوجدنا فيه خبز شعير يابساً مرصوصاً، فقدّم فأكل، فقلت: يا أمير المؤمنين فكيف تختمه؟ قال أما إنّي لا أختمه بخلاً به، ولكني خفت هذين الولدين أن يلتاه بسمن أو زيت».

وكان ثوبه مرقوعاً بجلد تارة وبليف أُخرى، ونعلاه من

---

(١) بحار الأنوار: ج ٤١، ص ١٣٧.

(٢) علي إمام المتّقين: ج ٢، ص ٢٩٨.

ليف، وكان يلبس الكرابيس الغليظة فإذا وجد كمّه طويلاً قطعه بشفرة فلم يخطه، فكان لا يزال متساقطاً على ذراعيه حتّى يبقى سدىً لا لحمة له.

كان يأتدم إذا ائتدم بخلّ أو بملح، فإن ترقّى عن ذلك فببعض نبات الأرض، فإن ٱرتفع عن ذلك فبقليل من ألبان الإبل، ولا يأكل اللّحم إلّا قليلاً ويقول: لا تجعلوا بطونكم مقابر للحيوانات.

وكان مع ذلك أشدّ الناس قوّة وأعظمهم يداً، لم ينقص الجوع قوّته ولم يخور الإقلال منّته وهو الذي طلّق الدنيا وكانت الأموال تُجبى إليه من جميع بلاد الإسلام إلّا من الشام فكان يفرّقها ويمزّقها ثم يقول:

هذا جناي وخياره فيه   إذ كلّ جان يده إلى فيه[1]

وكان عليه السلام لا يأكل من الأموال التي تجبى إليه من العراق، بل مما يؤتى به من الحجاز، حيث كانت له مزارع زرعها بيده[2].

وروي «أنه كانت له بالكوفة امرأتان، فإذا كان يوم هذه اشترى لحماً بنصف درهم، وإذا كان يوم هذه اشترى لحماً

---

(١) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ٨.

(٢) بحار الأنوار: ج ٤٠، ص ٣٢٥.

بنصف درهم. وكان ينفق هذه النفقة من شيء يأتيه من الحجاز»[1].

أمّا عن بساطة ثيابه فقد روي أنه «رأوه يحمل تمراً في ردائه، فقيل له: أعطنا نحمل عنك. فقال: ومن يحمل عني أوزاري يوم القيامة؟. فٱنطلق للبيت، ثم رجع مرتدياً الشملة ذاتها، وفيها قشور التمر، فصلّى بالناس فيها الجمعة»[2].

وكان يرقّع ثوبه عند ولده الحسن عليه السلام وقد قال كلمته الشهيرة: «والله لقد رقعت مدرعتي هذه حتى استحييت من راقعها ولقد قال لي قائل: ألا تنبذها؟ فقلت: أٰغرب عنّي!. فعند الصباح يُحمد القوم السرى»[3].

وقيل له: «لم ترقّع ثوبك؟

فقال: ليخشع القلب، ويقتدي به المؤمنون»[4].

وروي: أنه عليه السلام كان يطوف الأسواق بإزار، مرتدياً برداء، ومعه الدّرة، كأنه أعرابي، فطاف مرة حتى بلغ سوق الكرابيس، فٱشترى من غلام كان هناك قميصاً بثلاثة دراهم،

---

(١) علي إمام المتّقين: ج ٢، ص ٤٠.
(٢) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ٨.
(٣) السبيل إلى إنهاض المسلمين: ص ٤٣٥.
(٤) بحار الأنوار: ج ٤١، ص ١٦١.

فلما جاء أبوه، وعرف أن ولده باع أمير المؤمنين القميص بثلاثة دراهم، جاء إليه عليه السلام ليدفع له درهماً، فقال الإمام «ما هذا»؟

قال الرجل: يا مولاي.. إن القميص الذي باعك ابني كان يساوي درهمين.

فلم يأخذ الإمام الدرهم، وقال: «باعني برضاي، وأخذ برضاه»[1].

أمير المؤمنين، وقائد المسلمين، يلبس ثوباً بثلاثة دراهم، وذلك حينما كانت الأمبراطوريتان الثريتان: الرومانية، والفارسية قد سقطت بأيدي المسلمين، وكان كثير من الصحابة والتابعين، قد اغتروا بالمال والثراء، وكانت تُجبى إلى الإمام الملايين.. غير أنه يرفض ترك البساطة في الحياة، ويعتبرها قيمة من القيم.. ويقول: «ألا وإن لكلّ مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه، ألا وإنَّ إمامكم قد اكتفى من دُنياه بطمريه، ومن طعمه بقرصيه، ألا وإنّكم لا تقدرون على ذلك، ولكن أعينوني بورع واْجتهاد، وعفّة وسداد، فوالله ما كنزت من دنياكم تبراً، ولا ادَّخرت من غنائمها وفراً ولا أعددت لبالي ثوبي طمراً، ولا حزت من أرضها شبراً، ولا أخذت منه

(١) بحار الأنوار: ج ٤١، ص ١٦١.

إلّا كقوت أتانٍ دَبِرة (التي قرح ظهرها) ولهي في عيني أوهى وأهون من عفصةٍ مقرة»[1].

لقد كان زهد الإمام، زهد الحاكم المقتدر، لا زهد المحكوم العاجز، فلو شاء لعاش ـ على الأقل ـ كسائر الناس، وليس بشكل هم لا يقدرون على ما هو عليه: مجرد طمرين، ومجرد قرصين، ولا شبر من الأرض، ولا ادخار درهم أو دينار..

وحقاً فإن الإمام عليه السلام كان يرى البساطة مغنماً، والقناعة كنزاً، وعيش الكفاف فخراً واعتزازاً.

وملخّص فلسفته في رفض الزيادة على الكفاف أنه «من رضي من الدّنيا بما يجزيه كان أيسر ما فيها يكفيه، ومن لم يرضَ من الدّنيا بما يجزيه لم يكن فيها شيء يكفيه»[2].

أما البعد الثاني في زهد الإمام، فهو الزهد لترويض النفس، ومجانبة الهوى، ومقاومة الشهوات وتزكية الذات. فالإمام كان بشراً، تتوق نفسه إلى المسكن الهنيء، والمطعم الشهي والمركوب البهي، والزوج المرضي، ولكنه كان يزهد فيها جميعاً لكسب الأجر، فما من أجر كمثل أجر نهي النفس

---

(١) ربيع الأبرار: ص ٢١٦.

(٢) الكافي: ج ٢، ص ١٤٠.

عن الهوى.. وقد روي في ذلك أنه أهدي إلى علي عليه السلام وفاطمة بعض الفالوذج، فأطعما أولادهما ولم يطعما منه، وقال علي، وقد وضعه أمامه: «إنك طيب الريح، حسن اللون، طيب الطعم، ولكني أكره أن أعوّد نفسي ما لم تعتده»[1].

إنّه يريد ترويض نفسه، وهو القائل: «وإنما هي نفسي أروّضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر، وتثبت على جوانب المزلق ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفّى هذا العسل، ولباب هذا القمح ونسائج هذا القزّ، ولكن هيهات أن يغلبني هواي ويقودني جشعي إلى تخيّر الأطعمة... فما خلقت ليشغلني أكل الطيّبات كالبهيمة المربوطة همّها علفها، أو المرسلة شغلها تقمّمها، تكترش من أعلافها وتلهو عمّا يُراد بها، أو أُترك سدىً، أو أُهمل عابثاً، أو أجرَّ بحبل الضلالة، أو أعتسف طريق المتاهة.

وكأنّي بقائلكم يقول: إذا كان هذا قوت ابن أبي طالب فقد قعد به الضعف عن قتال الأقران ومنازلة الشجعان.

ألا وإنَّ الشجرة البرّية أصلب عوداً، والرواتع الخضرة أرقّ جلوداً، والنباتات البدوية أقوى وقوداً وأبطأ خموداً.

---

(١) علي إمام المتّقين: ج ١، ص ٩١.

وأنا من رسول الله ﷺ كالصنو من الصنو والذراع من العضد، والله لو تظاهرت العرب على قتالي لما ولّيت عنها، ولو أمكنت الفرصة من رقابها لسارعت إليها، وسأجهد في أن أُطهّر الأرض من هذا الشخص المعكوس والجسم المركوس حتى تخرج المدرة من بين حبّ الحصيد.

إليك عنّي يا دنيا فحبلك على غاربك، قد انسللت من مخالبك، وأفلت من حبائلك، وٱجتنبت الذهاب في مداحضك.

أين القرون الّذين غررتهم بمداعبك؟

أين الأُمم الّذين فتنتهم بزخارفك؟ ها هم رهائن القبور ومضامين اللحود.

والله لو كنت شخصاً مرئيّاً وقالباً حسّياً لأقمت عليك حدود الله في عباد غررتهم بالأمانيّ، وأُمم ألقيتهم في المهاوي، وملوك أسلمتهم إلى التلف، وأوردتهم موارد البلاء، إذ لا ورد ولا صدر.

هيهات من وطأ دحضك زلق ومن ركب لججك غرق، ومن ازورَّ عن حبالك وفّق، والسالم منك لا يبالي إن ضاق به مناخه، والدنيا عنده كيوم حان انسلاخه.

اعزبي عنّي فوالله لا أذلُّ لك فتستذلّيني، ولا أُسلس لك فتقوديني.

وأيم الله يميناً ـ أستثني فيها بمشيئة الله ـ لأروضنَّ نفسي رياضة تهشّ معها إلى القرص، إذا قدرت عليه، مطعوماً، وتقنع بالملح مأدوماً ولأدعنَّ مقلتي كعين ماء نضب معينها، مستفرغة دموعها.

أتمتلىء السائمة من رعيها فتبرك؟ وتشبع الربيضة من عشبها فتربض؟ ويأكل عليٌّ من زاده فيهجع!؟ قرّت إذن عينه، إذا ٱقتدى بعد السنين المتطاولة بالبهيمة الهاملة والسائمة المرعيّة.

طوبى لنفس أدّت إلى ربّها فرضها، وعركت بجنبها بؤسها، وهجرت في الليل غمضها حتّى إذا غلب الكرى عليها ٱفترشت أرضها، وتوسّدت كفّها، في معشر أسهر عيونهم خوفُ معادهم، وتجافت عن مضاجعهم جنوبهم، وهمهمت بذكر ربّهم شفاههم، وتقشّعت بطول استغفارهم ذنوبهم، أولئك حزب الله، إلا أن حزب الله هم المفلحون»[1].

وهكذا فإنه عليه السلام «كان يرى الزهد مكسباً للأجر، ومربحاً للثواب، وطريقاً إلى الجنة، بينما الترف، والتكاثر موجباً

(١) روضة الواعظين: ص ١٢٧.

للضلال، والطغيان، وهما يجرّان إلى النار . . فكان يروّض نفسه ليحيي قلبه، ويرى أن كثرة الطعام تميت القلب، كما تميت كثرة الماء الزرع»[1].

وكان عليه السلام يريد الثواب، لا الحطام، والجنة لا الدنيا، ورضى الله تعالى لا الراحة في الحياة. ولقد سأله رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً فقال:

«يا علي! كيف أنت إذا زهد الناس في الآخرة، رغبوا في الدنيا، وأكلوا التراث أكلاً لمّاً، وأحبوا المال حباً جمًّا»؟

فقال علي عليه السلام: «أتركهم وما ٱختاروا، وأختار الله ورسوله والدار الآخرة، وأصبر على مصيبات الدنيا وبلواها حتى ألحق بك إن شاء الله تعالى».

فقال الرسول: «صدقت. اللّٰهُمَّ ٱفعل ذلك به»[2].

وكان يوصي أصحابه فيقول:

«رحم الله رجلاً نزع عن شهوته، وقمع هوى نفسه، فإن هذه النفس أبعد شيء منزعاً، وإنها لا تزال تسرع إلى معصية في هوى، إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يقول: «إن الجنة حُفّت بالمكاره، وإن النار حُفّت بالشهوات»[3].

---

(١) علي إمام المتّقين: ج ٢، ص ٣٠١.

(٢) المصدر السابق: ج ١، ص ٣٩.

(٣) تفسير العياشي: ج ٢، ص ٢٦٢.

«التقي من ألزم نفسه العدل، فكان أول عدّته نفي الهوى عن نفسه».

«من لجّ قلبه بحب الدنيا التاط (التصق) قلبه بثلاثة: هم لا يبرحه، وحرص لا يتركه، وأمل لا يدركه»[1]..

«عباد الله، زنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وحاسبوها قبل أن تحاسبوا، وتنفسوا قبل ضيق الخناق، وٱنقادوا قبل عنف السِياق (انقادوا لما يطلب منكم قبل أن تُساقوا إليه بالعنف) وٱعلموا أنه من لم يُعن على نفسه حتى يكون له منها واعظ وزاجر: لم يكن من غيرها زاجر ولا واعظ».

«ٱتقوا الله تقية ذي لب شغل التفكير قلبه، وأنصب الخوف بدنه، وأسهر التهجّد غرار نومه، وأرجف الذكر بلسانه».

«ٱتقوا تقية من سمع فخشع. وٱقترف فٱعترف. ووجل فعمل، ورجع فتاب، وٱقتدى فٱحتذى»[2].

وهكذا، فإن الزهد عند الإمام كان لقمع الهوى، وكسب الأجر، وخفة الحساب يوم يقوم الناس لربّ العالمين.

أليس في حلال الدنيا حساب؟ وفي حرامها عقاب؟ فلم لا يزهد فيها؟

---

(١) بحار الأنوار: ج ٧٣، ص ٦٣٠.

(٢) النهاية: ج ٢، ص ٣٤٥.

ثم لماذا الاستزادة، والحرص، وجمع الأموال؟

يقول عليه السلام: «يا بن آدم، لا تحمل همّ يومك الذي لم يأت على يومك الذي قد أتاك، فإنّه إن يك من عمرك يأت الله فيه برزقك... واعلم أنك لا تكسب من المال شيئاً فوق قوّتك وإلّا كنت خازناً لغيرك فيه»[1].

* * *

لقد كان يجوّع نفسه متعمداً ليعلّمها القناعة، ويروّضها على طاعة الله، ويخشى إن لم يفعل ذلك أن يكون قد عصى الله تعالى.

وقد روي في ذلك أن عدي بن حاتم رآه، وبين يديه قراح ماء وكسرات خبز شعير وملح فقال: إني لا أرى لك يا أمير المؤمنين لتظل نهارك طاوياً مجاهداً، وبالليل ساهراً مُكابداً، ثم يكون هذا فطورك؟ فقال عليه السلام شعراً:

علّم النفس بالقنوع وإلّا طلبت منك فوق ما يكفيها[2]

وروي أيضاً «أنه ترصّد عمرو بن حريث غذائه فأتى له بجراب مختوم فأخرج منه خبزاً متغيراً خشناً، فقال عمرو لخادمته: يا فلانة لو نخلتِ هذا الدقيق وطيّبتِهِ؟

(١) عيون الأخبار: ج ٢، ص ٣٧١.

(٢) السبيل إلى إنهاض المسلمين: ص ٤٣٦.

قالت: كنت أفعل فنهاني، وكنت أضع في جرابه طعاماً طيباً فختم جرابه.

ثم إن أمير المؤمنين فتَّه في قصعة وصبّ عليه الماء، ثم ذرّ عليه الملح وأكل..

فلما فرغ من الأكل توجّه إلى عمرو قائلاً: «لقد خانت هذه (وأشار إلى لحيته) وخسرت هذه، إن أدخلتها النار من أجل الطعام، وهذا يجزيني»[1].

والحق أنه عليه السلام كان يريد النقص في دنياه، وكان يرى في ذلك كمالاً.. وهو الذي قال:

«اِعلموا أن ما نقص في الدنيا وزاد في الآخرة خير مما نقص في الآخرة وزاد في الدنيا، فكم من منقوص رابح ومزيد خاسر؟

إن الذي أمرتم به أوسع من الذي نهيتم عنه، فذروا ما قلّ لما كثُر، وما أحلّ لكم أكثر مما حرّم عليكم، وذروا ما ضاق لما اتسع، فالله قد تكفّل لكم بالرزق وأمركم بالعمل. فلا يكونن المضمون لكم طلبه أولى بكم من المفروض عليكم عمله.. فبادروا العمل، وخافوا بغتة الأجل، فإنه لا يرجى من رجعة العمر ما يرجى من رجعة الرزق، ما فات من الرزق

---

(١) المصدر السابق.

يرجى غداً زيادته، وما فات أمس من العمر لم يرج اليوم رجعته. الرجاء مع الجائي (ما سيجيء)، واليأس مع الماضي، فٱتقوا الله حق تقاته ولا تموتنّ إلّا وأنتم مسلمون»[١].

وبمقدار ما كانعليه السلام زاهداً في الدنيا، كانعليه السلام شديد الإلحاح على الناس في دعوته للزهد، فحتى الصغار كان يوصيهم بالزهد، كما يوصيهم بالتقوى والعبادة..

من ذلك ما رواه الحسن البصري فقال: «كنت جالساً بالبصرة ـ وأنا حينئذ غلام ـ أَتَطهّرُ للصلاة، إذ مرّ بي رجل راكبٌ بغلةً شهباء مُعْتَمٌّ بعمامة سوداء، فقال لي: «يا حسن! أحسن وضوءك يحسن الله إليك في الدنيا والآخرة. يا حسن! أما علمت أن الصلاة مكيال وميزان»؟

فرفعت رأسي فتأملتُ فإذا هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام، فأسرعت في طُهوري، وجعلت أقفو أثره إذ حانت منه التفاتة.

فقال لي: «يا غلام ألك حاجة»؟

قلت: «نعم يا أمير المؤمنين. تفيدني كلاماً ينفعني في الدنيا والآخرة».

---

(١) تحف العقول: ص ١٥٦.

قال: «يا غلام إنه من صدق الله نجا، ومن أشفق من ذنبه أَمِنَ الردى، ومن زهد في هذه الدنيا قَرّت عيناه بما يرى من ثواب الله غداً». ثم قال: «يا غلام ألا أزيدك»؟

قال: «بلى يا أمير المؤمنين».

قال: «إن سَرَّكَ أن تلقى الله غداً وهو عنك راض فكن في هذه الدنيا زاهداً وفي الآخرة راغباً، وعليك بالصدق في جميع أمورك تَنْجُ مع الناجين غداً، يا غلام إنْ تَضَعْ هذا الكلام نُصب عينيك، ينفعك الله به».

ثم أطلق عنان البغلة من يده، فجعلت أقفو أثره، إذ دخل سوقاً من أسواق البصرة، فسمعته يقول: «يا أهل البصرة يا أهل تدمر، يا عبيد الدنيا وعُمَّال أهلها، إذا كنتم بالنهار تخدمون الدنيا، وفي الليل تنامون، وفي خلال ذلك عن الآخرة تغفلون، فمتى تُحْرِزُون الزاد، وتفكرون في المعاد»؟

فقام إليه رجل من السوق فقال: «يا أمير المؤمنين إنه لا بد من طلب المعاش فكيف نصنع»؟.

فقال: «أيها الرجل إن طلب المعاش من وجهه الحلال لا يشغلك عن الآخرة، فإن قلت لا بد لنا من الاحتكار، لم تكن معذوراً». فتولّى الرجل وهو يبكي.

فقال أمير المؤمنين: «أَقْبل عَلَيَّ يا ذا الرجل أزدك تبياناً،

إنه لا بد لكل عامل من أن يوفَّ يومَ القيامة أجر عمله، فمن كان عمله للدنيا وحدها، فأجره النار»[1]

* * *

البُعد الثالث لزهد الإمام، هو الزهد للتأسّي بالفقراء والمساكين، فكثيراً ما كان الإمام يرفض مطعماً معيناً، أو مركباً معيّناً، أو ملبساً معيّناً لأن بعض أفراد الأُمّة لا يملك مثله..

والتأسّي عند الإمام، أصل من أُصول الأخلاق، خاصة عندما كان أميراً للمؤمنين، فكان يرى الزهد فيما لا يملكه الآخرون واجباً عليه بأعتباره أميراً لهم، فلا بدّ أن يعيش كأضعفهم..

يقول عليه السلام: «ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفّىٰ هذا العسل، ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القزّ، ولكن هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلى تخيّر الأطعمة ولعلَّ بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص ولا عهد له بالشبع.

أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى وأكباد حرّى؟، أو أكون كما قال القائل:

وحسبك داء أن تبيت ببطنة　　　وحولك أكباد تحنُّ إلى القدّ

(١) علي إمام المتّقين: ج ١، ص ٢٩١ ـ ٢٩٢.

أأقنع من نفسي بأن يقال: أمير المؤمنين، ولا أُشاركهم في مكاره الدهر؟ أو أكون أُسوة لهم في جشوبة العيش؟![1].

فعليٌّ إمام المساكين يضرب لهم مثلاً في الصبر والاحتمال ويعيش كأحدهم، فهو زاهد ناسك، يحب من اللباس ما قصر ومن الطعام ما خشن، فإن شعر بزهوّ يتسلل إلى نفسه قمعه بإذلال باطنه لله، واخشيشان ظاهره للناس، فهو كما قال عنه الرسول صلى الله عليه وآله «مخشوشن في الله»!.

يقول أحد أصحابه: «دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بالخورنق، وهو يرعد تحت سمل بالي فقلت له:

ـ «يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قد جعل لك، ولأهل بيتك في هذا المال ما يعمّ، وأنت تصنع بنفسك ما تصنع؟!

فقال: «واللهِ، ما أرزأكم من أموالكم شيئاً، وإن هذه لقطيفتي التي خرجت بها من منزلي من المدينة، وما عندي غيرها»[2].

والحق، أن الإمام لم يكن ليكتفي أن يكون كأحد المسلمين، ويعيش مثلهم فحسب، بل عاش أنزل منهم درجة، وأقلّ من أضعف من فيهم..

وفي ذلك روي:

(١) نهج البلاغة: الكتب ٤٥.

(٢) كشف الغمّة: ص ٤٩.

«أنّه أتى البزّازين فقال لرجل: بعني ثوبين. . فقال الرجل: يا أمير المؤمنين عندي حاجتك، فلمّا عرفه مضى عنه، فوقف على غلام فأخذ ثوبين أحدهما بثلاثة دراهم والآخر بدرهمين.

فقال: يا قنبر خذ الّذي بثلاثة.

فقال قنبر: أنت أولى به، تصعد المنبر وتخطب الناس.

فقال: وأنت شابٌّ ولك شره الشباب، وأنا أستحيي من ربّي أن أتفضّل عليك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألبسوهم ممّا تلبسون وأطعموهم ممّا تأكلون». فأخذ قنبر الثوب الذي بثلاثة دراهم وأخذ علي الذي بدرهمين.

فلمّا لبس القميص مدَّ كمَّ القميص فأمر بقطعه وٱتّخاذه قلانس للفقراء:

فقال الغلام: هلمّ أكفّه (أي أخيطه لك)، فقال: دعه كما هو، فإنّ الأمر أسرع من ذلك:

فجاء أبو الغلام فقال: إنّ ابني لم يعرفك، وهذان درهمان ربحهما فقال عليه السلام: ما كنت لأفعل، قد ماكست وماكسني وٱتّفقنا على رضى»[1].

كل ذلك يفعله بنفسه، في الوقت الذي لو ٱتخذ أحسن

(١) مناقب آل أبي طالب: ج ١، ص ٣٠٥.

ملبس ومأكل لم يكن يعترض عليه أحد، بل كثيراً ما كان البعض يطالبه بذلك، خاصة وأنّ الّذين عاصروه كانوا هم قد تزاحموا على الثراء، والمناصب والجاه والراحة. .

. «ولقد تحدّث إليه بعض الّذين لحقوا به من أتقياء أهل الشام وقرائهم عن بذخ معاوية، وعن إغداقه على من يصطنعهم. . فزعموا أن على مائدة معاوية عشرة أصناف من الحلوى وحدها، وأنه يرتدي كل يوم حُلّتين، وقد اتّخذ لسيفه مقبضاً من ذهب، وما هو إلّا أحد الولاة، فما بال أمير المؤمنين لا يملك غير إزار قصير، من غزل أهل بيته، لا يغطّي إلّا نصف ساقه؟! وما بال طعامه أخشن طعام، وما باله يحمل سيفه على حبل من ليف، وقد اتّخذ من حصير المسجد سرير ملكه»؟!.

فضحك الإمام وقال لهم: «أما والله ما أحبّ الفقر، ولو تمثّل لي الفقر رجلاً لقتلته. ولكني والله لا أرزأ من أموالكم شيئاً».

. ولاحظ أحد الحاضرين أن أمير المؤمنين ليس عليه ما يكفي من الثياب فسأله: «يا أمير المؤمنين ألم يجعل الله لك ولأهل بيتك في هذا المال نصيباً»؟.

فتبسّم قائلاً: «إن مسّ الحصير كان يوجع جنب رسول الله صلى الله عليه وآله، وما شبع هو وأهله من طعام قط وقد حيزَتْ له

الدنيا وما فيها، وأنا على سُنّته. . ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يحلّ للخليفة من بعدي من مال الله إلّا قصعة يأكلها هو وأهله، وقصعة يتصدّق بها، وحلّة للصيف وحلّة للشتاء! على أني أعيش على ما يأتيني من ينبع، وأستغني به عن بيت المال»[1].

* * *

البعد الرابع من زهد الإمام، زهد للعطاء للآخرين. .

فلكم عاش من دون أن يملك شيئاً لأنه أعطى ما يملك لغيره؟ ولكم انشغل عن إسعاد نفسه بإسعاد الآخرين؟ ولكم شعر في أعماق نفسه بالرضا كلّما أمكنه أن يسدّ حاجة لمحتاج، ولو بكلّ ما عنده، واثقاً بما عند الله تعالى؟

ولعمري، إن ذلك هو زهد العارف بالله، المتّقي له، الراغب في ثوابه. .

كان يرى أنّ المساكين الذين ارتضوه إماماً، إذا انقطعت بهم أسباب الرزق لعلّة، أو نحوها، فإنّ عليه دون غيره أن يكفيهم مطالب الحياة، وأن يوفّر لهم المقام الكريم في هذه الدنيا، فكان لا يكتفي بالعدل، بل يعطي من نفسه، ومن حصته لكل

---

(١) علي إمام المتّقين: ج ٢، ص ٢٧ ـ ٢٨.

محتاج، حتى يضطرّ إلى بيع سيفه، ذلك السيف العظيم الذي قام عليه الإسلام، وعُبد به الله، وانتصر به المؤمنون في الأرض.

فقد روي أنه عليه السلام عرض ذات مرّة سيفه على البيع قائلاً:

«من يشتري سيفي هذا»؟!

ثم سمعوه يقول: «فوالله لو كان عندي ثمن عشاء ما بعته»!

ومرّة أخرى عرض سيفه للبيع قائلاً: «من يشتري سيفي هذا»؟.

ثم سمعوه يقول: «ولو كان عندي ثمن إزار ما بعته»[1]!

وروي «أن كمّه، لم يكن يتجاوز أصابعه، ويقول: «للكمّين على اليدين فضل». وقد نظر ذات يوم إلى فقير انخرق كمّ قميصه، فخرق الإمام كمّه، وألقاه إليه[2]!

لقد أعطى كل ما عنده للناس ولم يبق لنفسه شيئاً.. وقال:

ـ «معاشر الناس: إني تقلّدت أمركم هذا فوالله ما حبست منه بقليل ولا كثير إلّا قارورة من دهن أهداها إليّ دهقان»[3].

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ج ١، ص ٣٠٥.

(٢) انظر: مسند أحمد..

(٣) نهج السعادة ـ للمحمودي: ج ١، ص ٤١٣.

وعبارة «ما حبست»، تعني أنه أعطى كل شيء لهم، إلّا قارورة واحدة!

وما ادّخر هو شيئاً فوق قوّته، بل إنّه كان يتصدّق بقوته إن سأله جائع، أو محروم.

ذات يوم وهو يصلّي في المسجد، سأله سائل، فلم يخرج من الصلاة، ولم ينتظر حتى يفرغ منها، بل مدّ يده للسائل وفيها خاتمه، وما كان يملك غيره، فخلعه السائل من إصبعه. ومضى لسبيله، وأكمل الإمام صلاته راضياً مرضياً، وأنزل الله تعالى قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾[1].

* * *

البعد الخامس من زهد الإمام: زهده لرفض الترف والسلطان والأبّهة والجلال..

وهو زهد ذو شقّين:

الأول: الزهد لرفض الترف، بكل أشكاله.

الثاني: زهده في السلطة ومظاهرها المختلفة.

ففي الشق الأول: يقول عليه السلام: «انظروا إلى الدنيا نظر الزاهدين فيها، الصادفين عنها، فإنّها والله، عمّا قليل تزيل الثاوي الساكن، وتفجع المترف الآمن، وجلد الرجال فيها إلى

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٥.

الضعف والوهن، فلا تغرّنكم كثرة ما يعجبكم فيها، لقلّة ما يصحبكم منها»[١].

ويقول عليه السلام: «إيّاك أن تغترّ بها ترى من إخلاد أهل الدنيا إليها، وتكالبهم عليها فقد نبأك الله عنها لك نفسها وتكشفت لك عن مساوئها فإنما أهلها كلاب عاوية، وسباع ضارية، يهرّ بعضها بعضاً»[٢].

ويقول: «التكاثر لهو ولعب وشغل، واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير»[٣].

ويخاطب معاوية قائلاً: «فإنّك مترف قد أخذ الشيطان منك مأخذه، وبلغ فيك أمله»[٤].

ولأن الترف حرام على الحكّام، فقد رفض الإمام أي شيء فيه رائحة الترف، أو مظهر من مظاهره.

ومن ذلك ما روي أنه عليه السلام أُتي بدابة دهقان ليركبها، فلمّا وضع رجله في الركاب قال: «بسم الله» فلما وضع يده على القربوس زلّت يده من الضفّة، فقال: «أديباج هي»؟!

قالوا: «نعم..» فلم يركبها[٥]!

---

(١) أنساب الأشراف: ص ٢٧٩.
(٢) من لا يحضره الفقيه: ج ٣، ص ٣٦٢.
(٣) الكافي: ج ٢، ص ٣٩٤.
(٤) نهج البلاغة: الكتب ١٠.
(٥) بحار الأنوار: ج ٤٠، ص ٣٢٥.

ومن ذلك أيضاً: أن خادمته أعطته في بعض الليالي قطيفة، فتعجّب من دفئها، فقام ليسأل الخادمة: ما هذه؟

قالت: «هذه من قطف الصدقة». .

فقال: «أحردتمونا، بقيّة ليلتنا»[1].

وروي عن «سويد بن غفلة» قال: «دخلتُ على أمير المؤمنين عليه السلام يوم عيد، فإذا عنده فاثور (الطشت) وعليه خبز السمراء (الحنطة)، وصفحة فيها خطيفة، وملبنة (ملعقة) فقلت: «يا أمير المؤمنين. . يوم عيد وخطيفة؟!

فقال: «إنما هذا عيد من غُفر له»[2].

وروي أنّه جيء إليه بفالوذج، فأدخل فيه إصبعه، ثم سلبها، ولم يأخذ منه شيئاً، فقيل له: أتحرّمه يا أمير المؤمنين؟

فقال: «لا . . ولكن أخشى أن تتوق إليه نفسي» ثم تلا قوله تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾[3].

وروي: «أنه عليه السلام تزوّج «ليلى» فجعلت له حجلة، فهتكها، وقال: «حسب آل عليّ، ما هم فيه[4]. . وتزوج أخرى فنجدّت له بيتاً، فرفض أن يدخله»[5].

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ج ١، ص ٣١٢.

(٢) المصدر السابق: ص ٣٠٦.

(٣) مناقب آل أبي طالب: ج ١، ص ٣٠٦.

(٤) بحار الانوار: ج ٤٠، ص ٣٢٧.

(٥) المصدر السابق: ص ٣٢٧.

وحينما تزوج من الكلابية، زفّت إليه على حمار بأكاف تحتها قطيفة، وخلفها قفّة معلقة، ولا شيء غير ذلك[1].

«ولاحظ أحد أصحابه أنه يلبس قميصاً جديداً ولكنه يضع عليه رداء قديماً فسأله في ذلك، فقال الإمام ضاحكاً: «إنما ألبس هذا الرداء ليكون أبعد لي عن الزهو والكِبر»[2].

وروي: أنه كان يحمل التمر والملح بيده، وكان ينشد هذا الشعر:

لا ينقص الكامل من كماله ... ما جرّ من نفع إلى عياله

وكان عليه الصلاة والسلام، كما يرويه زيد بن علي، يمشي في خمسة مواضع حافياً، ويعلق نعله بيده اليسرى: يوم الفطر، والنحر، والجمعة، وعند العيادة، وتشييع الجنازة، ويقول: «إنها أحبّ المواضع لله، وأحبّ أن أكون فيه حافياً»[3].

وكان يكتفي ببعض الطعام، فيأكل تمراً فقط، ثم يشرب عليه الماء، ويضرب يده على بطنه، ويقول: «من أدخله بطنه النار، فأبعده الله» وينشد قول الشاعر:

---

(١) المصدر السابق: ص ٣٢٧.

(٢) علي إمام المتّقين: ج ٢، ص ٣٠٧.

(٣) السبيل إلى إنهاض المسلمين: ص ٤٣٩.

وإنـك مـهـمـا تـعـط بـطـنـك سـؤلـه

وفرجك نالا منتهى الذّم أجمعا[1]

وروي عن نوف قال: بتُّ ليلة عند أمير المؤمنين عليه السلام فكان يصلّي اللّيل كلّه ويخرج ساعة بعد ساعة فينظر إلى السماء ويتلو القرآن، فمرّ بي بعد هدء الليل فقال: يا نوف أراقد أنت أم رامق؟

قلت: بل رامق أرمقك ببصري يا أمير المؤمنين.

قال: يا نوف طوبى للزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة، أولئك الّذين اتّخذوا الأرض بساطاً، وترابها فراشاً، وماءها طيباً، والقرآن دثاراً، والدعاء شعاراً، وقرّضوا من الدنيا تقريضاً على منهاج عيسى ابن مريم، إنّ الله عزّ وجلّ أوحى إلى عيسى ابن مريم: «قل للملأ من بني إسرائيل: لا يدخلوا بيتاً من بيوتي إلّا بقلوب طاهرة، وأبصار خاشعة، وأكفّ نقيّة، وقل لهم: اعلموا أنّي غير مستجيب لأحد منكم دعوة ولأحد من خلقي قبله مظلمة»[2].

وروي «أنه ذات صباح لم يجد ما يلبسه إلّا لباساً من الصوف به خروق، فرقعه ولبسه وخرج إلى الناس، فلما لامه

---

(١) دعوات الراوندي.

(٢) الخصال: ج ١، ص ١٦٤.

نفر من أصدقائه من فتيان المهاجرين والأنصار لم يبسط لهم عذره: إنه لم يجد غيره، ولكنه تبسّم وقال لهم: «إن لبس هذه المرقعة من الصوف تقمع في الإنسان ما قد يشعر به من كِبر، وتقهره على أن يتواضع لله، وتحمله على الخشوع حملاً»[1]!

أمّا زهده في السلطة، وكل ما يمتّ إليها بصلة، فكان نابعاً من إيمانه العميق بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2].

فلم يكن يريد السلطة في أي يوم من الأيّام، شأنه في ذلك شأن أصحاب الرسالات العظام في التاريخ، فما بالإمام ـ كما يقول أحدهم ـ «حرص على الإمارة بجاهها وسطوتها وسلطانها»[3].. وهو الذي قال حينما جاؤوه للبيعة بعد مقتل عثمان: «دعوني، والتمسوا غيري فإنّا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول، وإن الآفاق قد أغامت، والمحجّة قد تنكّرت.. وٱعلموا: أني إن أجبتكم، ركبت بكم ما أعلم، ولم أصغِ إلى قول القائل، وعتب العاتب، وإن تركتموني فأنا كأحدكم»[4].

---

(١) علي إمام المتّقين: ج ١، ص ٥٠.

(٢) سورة القصص، الآية: ٨٣.

(٣) علي إمام المتّقين: ج ٢، ص ٢٤٣.

(٤) التاريخ ـ للطبري: ج ٦، ص ٣٠٦٦.

وكم رفض الخلافة، وكم قبض يده فجذبوها، وكم التفوا حوله، ومشوا معه، لكي يقبل الخلافة، بمفهومه الخاص لها، وهو تحمّل المسؤولية، وإقامة الحق..

يقول عليه السلام: «وبسطتم يدي فكففتها، ومددتموها فقبضتها، ثم تداككتم عليّ تداكّ الإبل الهيم على حياضها يوم ورودها حتى انقطع النعل وسقط الرداء ووطىء الضعيف»[1].

«فما راعني إلّا والناس كعرف الضبع إليّ، ينثالون عليّ من كل جانب حتى لقد وطىء الحسنان وشق عطفاي، مجتمعين حولي كربيضة الغنم»[2].

وعندما تمّت له البيعة، نهض بالأمر، ليس كسلطان، يبحث عن التاج والصولجان، بل كصاحب رسالة، وكان ما يكابده حقاً، هو حرص الإمام على صياغة مجتمع فاضل على أساس وطيد من العدل، وفي ظل الحرية، والأخلاق.. من أجل ذلك كان يناضل لكي يغرس قيماً نبيلة شريفة تثمر في نفوس المسلمين، وتزدهر بالفضائل، لا أن يؤسس ملكاً شامخاً عضوضاً يمنحه الجاه والعزّة والكبرياء.. فهو يعرف أن الكبرياء والعزّة لله جميعاً..!

وقد روي أنه: كان يخصف نعله ذات يوم بذي قار فدخل

---

(١) المسترشد: ص ٩٥.

(٢) الفهرست ـ لابن النديم: ص ٢٢٤.

عليه وزيره وتلميذه عبد الله بن عباس، فعجب ابن عباس من أن يخصف أمير المؤمنين نعله بنفسه وهو يحكم نصف الأرض التي يعرفها البشر حينئذ، والناس قد اجتمعوا خارج خيمته ليسمعوا منه. . فقال لابن عباس: «ما قيمة هذه»؟.

قال: «لا قيمة لها».

فقال الإمام: «والله لهي أحب إليّ من إمرتكم، إلّا أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً»[1].

تلك كانت قضيته ورسالته: إقامة الحق ودفع الباطل. .

ولم يكن يتنافس مع أحد من أجل غير ذلك. . وهو القائل:

«اللَّهُمّ إنّك تعلم أنه لم يكن الذي كان منّا منافسة في سلطان، ولا التماس شيء من فضول الحُطام، ولكن لنرد المعالم من دينك، ونظهر الإصلاح في بلادك، فيأمن المظلومون من عبادك، وتُقام المعطلة من حدودك»[2].

صحيح أن أعداءه كانوا يريدون السلطان، ليحوّلوا الإمامة إلى ملك عضوض يتوارثه الابن من أبيه، ولكنّ الإمام كان يريد إحقاق الحق، وإماتة الباطل، ولذلك فإنّ رد فعله إزاء بيعته لم يكن ردّ فعل من يفوز بالانتخابات فيفرح للفوز،

---

(١) الإرشاد ـ للمفيد: ص ١٥٤.

(٢) دعائم الإسلام ـ للنعمان: ص ٥٣١.

ويرتاح إلى النجاح. كما أن ردّة فعله إزاء هزائمه لم تكن كردة فعل مهزوم في حرب، لأنّه كان يعمل لكي لا يتجافى عن الحق، ولا يرتكب معصية، أما بعد ذلك فكل شيء كان يهون عنده.

فعندما قتل محمد بن أبي بكر، رضوان الله عليه وسقطت مصر في يد معاوية فإن الإمام لم يحزن لخسارة مصر، بالرغم من عظمتها، لأن الإمام لم يكن يرى مصر يوماً غنيمةً ليرى سقوطها خسارة، بل حزن لمقتل محمد بن أبي بكر وغلبة الباطل.

ولم يزد علي أن خطب خطبة موجزة ليوعّي الناس، وكتب رسالة مختصرة إلى ابن عباس يخبره بذلك..

وفي ذلك يقول المؤرخون:

«جاء علياً رجلان ينعيان إليه محمد بن أبي بكر، أما أحدهما فقد جاء من مصر، يتحدث باكياً عمّا أصاب محمداً، وأما الآخر فقد جاء من الشام يروي عجباً مما رآه في الشام.

فقد صعد معاوية منبر المسجد الجامع في دمشق فأذن في فرح عظيم بقتل محمد بن أبي بكر.. وكأنها بشارة كبرى يبشّر بها أهل الشام!! بقتل محمد!! ثم قرأ كتاب عمرو إلى معاوية، وفيه: «أما بعد فإنّا لقينا محمد بن أبي بكر وكنانة بن بشر في جموع جمة من أهل مصر، فدعوناهم إلى الهدى والسُّنَّة وحُكم

الكتاب، فرفضوا الحق، فجاهدناهم، وٱستنصرنا الله عليهم، فضرب الله وجوههم وأدبارهم، ومنحونا أكتافهم، فقتل الله محمد بن أبي بكر وكنانة بن بشر وأماثل القوم. والحمد لله رب العالمين. والسلام».

وقال صاحب الإمام الذي جاء من الشام لعلي: «والله يا أمير المؤمنين قلما رأيت قط قوماً أسرّ، ولا سروراً قط أظهر من سرور رأيته بالشام حين أتاهم هلاك محمد بن أبي بكر» فقال علي: «أما أن حزننا عليه على قدر سرورهم به، لا بل يزيد أضعافاً»!

فأرسل عليه السلام إلى مالك بن كعب الذي كان قد أرسله لينجد محمداً في ألفي رجل، فردّه قبل أن يبلغ مصر، ويهلك بجيشه..

ثم وقف يخطب الناس فقال: «ألا وإن مصر قد ٱفتتحها الفجرة أولياء الجور والظلم، الّذين صدّوا عن سبيل الله، وبغوا الإسلام عوجاً. ألا وأن محمد بن أبي بكر قد ٱستشهد رحمه الله، وعند الله نحتسبه، أما والله لقد كان ما علمت ينتظر القضاء، ويعمل للجزاء، ويبغض شكل الفاجر، ويحب سمت المؤمن، إني والله لا ألوم نفسي على تقصير ولا عجز، وإني بمقاساة لحرب لجد بصير، إني لأقدم على الحرب، وأعرف وجه الحزم، وأقوم بالرأي المصيب، فأستصرخكم معلناً،

وأناديكم مستغيثاً، فلا تسمعون لي قولاً، ولا تطيعون لي أمراً، حتى تصير الأُمور إلى عواقب المساءة. ودعوتكم إلى غياث إخوانكم منذ بضع وخمسين ليلة. . . فتثاقلتم إلى الأرض تثاقل من لا نية له في الجهاد، ولا رأي له في الاكتساب للأجر، ثم خرج إليّ منكم جنيد (تصغير جند) متذائب (مضطرب) ضعيف، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون! فأفٍ لكم»!.

ثم عاد إلى داره[1].

وكتب إلى ابن عمه ووزيره، عامله على البصرة عبد الله بن عباس: «سلام عليك ورحمة الله وبركاته. أما بعد فإن مصر قد اُفتتحت، وقد استشهد محمد بن أبي بكر، فعند الله عزّ وجلّ نحتسبه، وقد كنت كتبت إلى النّاس، وتقدّمت إليهم في بدء الأمر، وأمرتهم بإغاثته قبل الوقعة، ودعوتهم سراً وجهراً، وعوداً وبدءاً، فمنهم الآتي كارهاً، ومنهم المتعلل كاذباً، ومنهم القاعد خاذلاً، أسأل الله أن يجعل لي منهم فرجاً، وأن يريحني منهم عاجلاً، فوالله لولا طمعي عند لقاء عدوي في الشهادة وتوطين نفسي عند ذلك، لأحببت ألّا أبقى مع هؤلاء يوماً واحداً. عزم الله لنا ولك

---

(١) علي إمام المتّقين: ج ٢، ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤.

على هداه وتقواه إنه على كل شيء قدير. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[1].

وعزّ على عبد الله بن عباس أن يبلغ السأم والمضض والأسى بأستاذه وخليله وإمامه هذا المبلغ. فكتب إليه مواسياً:

«لعبد الله عليٍّ أمير المؤمنين من عبد الله بن عباس، سلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. أما بعد، فقد بلغني كتابك تذكر فيه ٱفتتاح مصر وهلاك محمد بن أبي بكر، وأنك سألت الله ربك أن يجعل لك من رعيتك التي ابتليت بها فرجاً ومخرجاً وأنا أسأل الله أن يعلي كلمتك، واعلم أن الله صانع لك، ومُعزّ دعوتك، وكابت عدوك. وأخبرك يا أمير المؤمنين أن الناس ربما تباطؤوا ثم نشطوا، فٱرفق بهم يا أمير المؤمنين ودارهم ومَنِّهم. وٱستعن بالله عليهم. كفاك الله الهم! والسلام عليك ورحمة الله وبركاته».

وهكذا لم يزد ردّ فعله على خسارة مصر التي سمّى أهلها «أعظم أجنادي»[2] على خطبة قصيرة، ورسالة مختصرة إلى ابن عباس، ولم يحاول استردادها، كل ذلك زهداً في السلطان، فلقد أدّى ما عليه، وأتمّ الحجّة على من يجب إتمامها عليه، وهو زاهد في بسط النفوذ، وامتلاك البلاد.

---

(١) الكامل ـ لابن الأثير: ج ٣، ص ١٧٨.

(٢) بشارة المصطفى: ص ٥٢.

البعد السادس لزهد الإمام: هو زهده للالتزام بالعدل ـ حيث إن من طبيعة البشر الرغبة في المزيد مما لديهم، والطمع في ٱمتلاك أكثر مما يحتاجون إليه، والتكاثر في كل شيء، فلا يملأ عيني ابن آدم إلّا التراب، كما يقول الحديث الشريف.

ولعمري: هذا ما يدفع البعض إلى الطغيان، وتقسيم الناس إلى غني وفقير، وجائع ومتخم، ومسكين ومترف، وعادل وظالم. .

في الوقت الذي «إن الله فرض على أغنياء الناس في أموالهم قدر الذي يسع فقراءهم، فإذا ضاع الفقراء، أو أُجهدوا، أو أعروا فبما يمنع أغنياؤهم، فإن الله محاسبهم بذلك يوم القيامة، ومعذبهم عذاباً أليماً»[1].

وهذا يعني «أن الله سبحانه فرض في أموال الأغنياء، أقوات الفقراء، فما جاع فقير إلّا بما مُتّع به غنيّ، والله تعالى سائلهم عن ذلك»[2].

فلو زهد الأغنياء في الدنيا، وأخذوا منها قدر حاجتهم منها لما ٱختلّ ميزان العدل ولا جاع فقير، في جنب غنيّ. .

---

(١) دعائم الإسلام: ج ١، ص ٢٥٠.

(٢) تاريخ بغداد ـ للخطيب: ج ٥، ص ٣٠٨.

ولو أن أصحاب الأموال نظروا إلى الحياة، كما كان ينظر إليها أمير المؤمنين لما بخلوا بما عندهم على المحتاجين.

وماذا يحصل عليه البخلاء من البخل؟

أليس يتركون أموالهم بالرغم عنهم ويرحلون؟

«فقد رأيت من كان قبلك ممّن جمع المال، وحذّر الإقلال، وأمن العواقب، (بعد) طول أملٍ، وٱستبعاد أجل، كيف نزل به الموت فأزعجه عن وطنه وأخذه من مأمنه محمولاً على أعواد المنايا، يتعاطى به الرجال الرجال، حملاً على المناكب، وإمساكاً بالأنامل..

أما رأيتم الّذين يأملون بعيداً، ويبنون مشيداً، ويجمعون كثيراً، كيف أصبحت بيوتهم قبوراً، وما جمعوا بوراً، وصارت أموالهم للوارثين، وأزواجهم لقوم آخرين، لا في حسنةٍ يزيدون، ولا من سيئة يستعتبون»[1]؟

لقد مرّ الإمام عليه السلام على قذر بمزبلة، فقال: «هذا ما بخل به الباخلون»[2].

وحقاً إن نهاية الأموال مزابل، وعاقبة الأشياء قاذورات، ولو أنّ الأثرياء نظروا إلى أموالهم، من خلال نهاياتها لما بخلوا بما عندهم، ولزهدوا في الاحتكار، والتكاثر..

---

(١) النهاية: ج ٢، ص ٢١٠.

(٢) بحار الأنوار: ج ٤٠، ص ٣٢٨.

ثم من يستطيع أن يأخذ من الدنيا أكثر من حاجته؟
فمن يستطيع أن يأكل أكثر من حجم معدته؟
وأن ينام فوق أكثر من سرير؟
وأن يسكن في أكثر من دار؟
وأن يلبس أكثر مما يحتاج؟
وأن يحمل معه من الذهب أكثر مما يستطيع حمله؟

يقول الإمام علي عليه السلام: «يا ابن آدم.. ما كسبت فوق قوتك، فأنت فيه خازن لغيرك»[1].

ويقول: «ما يصنع بالمال من عمّا قليل يُسلبه، وتبقى عليه تبعته وحسابه»[2].

إذن «فلتكن مسألتك فيما يبقى لك جماله، ويُنفى عنك وباله، فالمال لا يبقى لك، ولا تبقى له»[3].

ثم إن الأموال التي لا تنفع الإنسان مضرّة، لأن «المال يفسد المال ويوسّع الآمال»[4] كما أن «المال للفتن سبب»[5] ولذلك فإنه «إذا أحب الله سبحانه عبداً بغّض إليه المال، وقصّر منه الآمال، وإذا أراد الله بعبد شراً، حبّب إليه المال، وبسّط

(١) الفرج بعد الشدّة: ج ١، ص ٣٧.
(٢) النهاية: ج ٢، ص ٥١٠.
(٣) العقد الفريد: ج ٣، ص ١٥٥.
(٤) غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٢٣.
(٥) المصدر السابق: ص ٢٤.

منه الآمال[١] حيث إن «كثرة المال تفسد القلوب، وتنسي الذنوب»[٢] وهكذا فإن «المال مادة الشهوات»[٣] و«المال يرفع صاحبه في الدنيا، ويضعه في الآخرة»[٤].

ولهذا فإن «كثرة المال مفسدة للدّين مقساة للقلوب»[٥] بينما «العلم أفضل من المال: إنه ميراث الأنبياء، والمال ميراث الفراعنة»[٦].

ولا يعني كل ذلك أن الفقر مطلوب، بل يعني أن على الأغنياء أن لا يخافوا الفقر، فيمنعوا جودهم عن الفقراء، وأن لا يحبّوا المال فيترفوا فيه، يكثروا منه، ويمنعوه المساكين والمحتاجين.

وإلّا فإن «الفقر طرف من الكفر»[٧] غير أنّ الزهد في المال عند الأغنياء قد يرفع الفقر عن الفقراء. فإذا لم يفعلوا ذلك أزداد الشرّ، وقلّ الخير. ويكون الأمر كما قال الإمام علي عليه السلام: «قد أصبحتم في زمنٍ لا يزداد الخير فيه إلّا إدباراً

---

(١) المصدر السابق: ص ١٤١.
(٢) المصدر السابق: ص ٢٤٤.
(٣) مجمع الأمثال: ج ٢، ص ٤٥٤.
(٤) غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٤٧.
(٥) تحف العقول: ص ١٤١.
(٦) منية المريد: ص ١٩.
(٧) بحار الأنوار: ج ٧٨، ص ١٢.

والشرّ فيه إلّا إقبالاً . . إضرب بطرفك حيث شئت من الناس فهل تبصر إلّا فقيراً يكابد فقراً، أو غنياً بدّل نعمة الله كفراً»[1].

ومن هنا، فإنّ «أفضل الفعال صيانة العرض بالمال»[2] ومن لا ينفقه كيف يصون عرضه به؟

وفي الحق أن الإمام عليه السلام كان زاهداً في الدنيا، لكي ينشر العدل، وكان يطالب الناس بالزهد، حتى تنتشر الفضيلة، وكان ينصح بالعطاء حتى ينشغل الناس بطلب العلم والمكارم، ويقول لأصحابه: «إنّكم إلى مكارم الأفعال أحوج منكم إلى جمع الأموال»[3].

ويقول: «إنكم إلى اكتساب الأدب أحوج منكم إلى اكتساب الفضة والذهب»[4].

ويقول: «أنا يعسوب المؤمنين، والمال يعسوب الفجّار»[5].

ويقول: «العلم خير لك من المال: العلم يحرسك وأنت تحرس المال. والعلم تنقصه النفقة، والعلم يزكو على

---

(١) نهج البلاغة ـ الخطب ١٢٩.
(٢) مستدرك نهج البلاغة: ص ١٨.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم: ص ١٣٢.
(٤) المصدر السابق: ص ١٣١.
(٥) الاستيعاب: ج ٤، ص ١٦٩.

الإنفاق، وصنيع المال يزول بزواله.. هلك خزّان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر»[1].

فالزهد في المال مطلوب للتفرّغ للعلم، وللعطاء للناس ولبناء الحضارة. وهو الزهد الذي يشيّد العدل في المجتمع، ويمنع العوز والبؤس والمسكنة.

وهو النوع الوحيد من الزهد الذي يمكن لوليّ الأمر أن يفرضه على الأغنياء، لأنّ إقامة العدل، واجب من واجباته، فإن لم يجد الوالي في بيت المال ما يسدّ حاجة الفقراء والمساكين، وما يبلغ بهم حدّ الكفاية، كان له أن يفرض في أموال الأغنياء حقاً لهم، ففي أموال الأغنياء حقوق غير الزكاة، وإذا احتاجت الأمة فلا مال لأحد.. وقد لعن الله أقواماً في الغابرين لأنهم كانوا يصنعون بأموالهم الخاصة ما يشاؤون لا ما يقتضيه الصالح العام، ولا ينفقون أموالهم في سبيل الله، والإنفاق في سبيل الله، هو الإنفاق على مصالح المجتمع كله، من جهاد لتوفير أمن الأمّة، وإقامة ما يقتضيه صالح الأُمة من المرافق في الصناعة والزراعة والتعليم والصحة والتثقيف ونحو ذلك..

---

(١) تفسير الرازي: ج ٢، ص ١٩٢.

التواضع

التواضع حالة روحية لدى الفرد، تظهر نتائجها في مفردات حياته اليومية كطريقة جلوسه ومشيه، ونوعية ملبسه ومركبه، وفي تعامله ـ بشكل عام ـ مع الآخرين.

وهي حالة تنبع أساساً من وعي الإنسان، ومعرفته من جهة. ومن عظمة روحه من جهة أُخرى، فكلّما ازداد علماً ورفعة في النفس ازداد تواضعه. وعلى العكس، كلّما عظم جهله، وحقُرت نفسه ازداد تعالياً وكبراً.

من هنا، فإنه «ما تواضع إلّا رفيع»[1] وما تكبّر إلّا وضيع. تماماً كما تتدلّى الأغصان وتتواضع كلّما حملت ثماراً، ولكنها ترتفع وتتعالى كلما خليت من الثمار.

فالتواضع إذن قيمة بحدّ ذاتها، كما العلم والشجاعة

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم.

والكرم وغيرها من الفضائل «فزينة الشريف التواضع»[١] وهو «زكاة الشرف»[٢] ولا يوضع على شيء إلّا زانه، كما أن الكبر لا يوضع على شيء إلّا شانه..

ولذلك كان الأنبياء عليهم السلام، وهم أنبل بني البشر، أكثر الناس تواضعاً بعد أن «كرّه إليهم الله سبحانه التكابر ورضي لهم التواضع فألصقوا بالأرض خدودهم، وعفّروا في التراب وجوههم، وخفّضوا أجنحتهم للمؤمنين وكانوا قوماً مستضعفين»[٣].

ولقد كان الإمام علي عليه السلام: يرى أن «التواضع من أعظم العبادة»[٤]، ولا يعتبر للحسب قيمة إلّا به إذ «لا حسب إلّا بتواضع»[٥]. يراه صفة أساسية من صفات المتقين حيث إن «منطقهم الصواب، وملبسهم الاقتصاد ومشيهم التواضع»[٦].

ثم إنّ التواضع ـ بالإضافة إلى كل ذلك ـ سبب من أسباب

(١) بحار الأنوار: ج ٧٥، ص ١٢٠.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٣) نهج البلاغة ـ الخطب ١٩٢.
(٤) بحار الأنوار: ج ٧٥، ص ١١٩.
(٥) بحار الأنوار: ج ٧٧، ص ١٦٨.
(٦) كنز الفوائد: ص ٣١.

النجاح، وشرط من شروط حسن الإدارة حيث إنه «بخفض الجناح تنتظم الأمور»[١].

وهو يرفع المؤمن في عيون أعدائه لأن «التواضع يكسوك المهابة»[٢].

أوليس قد وصف الله الّذين يحبهم ويحبونه من الّذين هم أعزّة على الكافرين بأنهم ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣]؟ فقدم «الذلّة على المؤمن» على «العزّة على الكافر» فلا يكون عزيزاً على الكافرين إلّا من كان ذليلاً على المؤمنين ومتواضعاً لهم.

يقول الإمام علي عليه السلام في خطبته المعروفة «بالقاصعة»: «الحمد لله الذي لبس العزّ والكبرياء، واختارهما لنفسه دون خلقه، وجعلهما حمى وحرماً على غيره وٱصطفاهما لجلاله، وجعل اللعنة على من نازعه فيهما من عباده، ثم ٱختبر بذلك ملائكته المقرّبين ليميّز المتواضعين منهم من المستكبرين، فقال سبحانه ـ وهو العالم بمضمرات القلوب، ومحجوبات الغيوب ـ: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ

(١) غرر الحكم ودرر الكلم.

(٢) المصدر السابق.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٥٤.

كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾[١] اعترضته الحميّة، فافتخر على آدم بخلقه، وتعصب عليه لأصله، فعدّو الله إمامُ المتعصبين وسلف المتكبرين، الذي وضع أساس العصّبية، ونازع الله رداء الجبريّة، وادرع لباس التعزز، وخلع قناع التذلل، ألا ترون كيف صغّره الله بتكبّره، ووضعه بترفعه، فجعله في الدنيا مدحوراً وأعدّ له في الآخرة سعيراً»[٢]؟

ويقول عليه السلام: «اعتمدوا وضع التذلل على رؤوسكم، وإلقاء التعزز تحت أقدامكم، وخَلْع التكبّر من أعناقكم، واتخذوا التواضع مسلحة بينكم وبين عدوّكم: إبليس وجنوده، فإن له من كل أُمة جنوداً وأعواناً، ورجلاً وفرساناً، ولا تكونوا كالمتكبر على ابن أمّه من غير ما فضلٍ جعله الله فيه سوى ما ألحقتِ العظمة بنفسه من عداوة الحسد، وقدحت الحميّة في قلبه من نار الغضب، ونفخ الشيطان في أنفه من ريح الكبر»[٣].

بهذا كان الإمام يوصي أصحابه. . .

وكما أوصى كان يعمل. . فكان متواضعاً مع الناس، يرفض أن يترفّع عليهم، أو يكون له ما ليس لهم. .

فقد كان عليه السلام لا يحبّ حتى المديح، ويرفضه. . فحينما

---

(١) سورة الحجر، الآيات: ٢٨ ـ ٣١.

(٢) اعلام النبوّة: ص ٩٧.

(٣) نهج البلاغة: الخطب ١٩٢.

أثنى عليه أحد أصحابه وأطال في ذلك قال له الإمام: «إنّ من حقّ من عظم جلال الله سبحانه في نفسه وجلّ موضعه من قلبه أن يصغر عنده ـ لعظم ذلك ـ كلٌّ ما سواه، وإنّ أحقّ من كان كذلك لمن عظمت نعمة الله سبحانه عليه ولطف إحسانه إليه، فإنّه لم تعظم نعمة الله على أحد إلّا ازداد حقّ الله عليه عظماً.

وإنّ من أسخف حالات الولاة، عند صالحي الناس، أن يظنّ بهم حبّ الفخر ويوضع أمرهم على الكبر، وقد كرهت أن يكون جال في ظنّكم أنّي أحبّ الإطراء واستماع الثناء، ولست بحمد الله كذلك، ولو كنت أحبّ أن يُقال ذلك، لتركته انحطاطاً لله سبحانه عن تناول ما هو أحقّ به من العظمة والكبرياء.

وربّما استحلى الناس الثناء بعد البلاء، فلا تثنوا عليّ بجميل ثناء لإخراجي نفسي إلى الله سبحانه وإليكم من البقيّة في حقوق لم أفرغ من أدائها، وفرائض لا بدّ من إمضائها.

فلا تكلّموني بما تكلّم به الجبابرة، ولا تتحفّظوا منّي بما يتحفّظ به عند أهل البادرة، ولا تخالطوني بالمصانعة.

ولا تظنّوا بي استثقالاً في حقّ قيل لي، ولا التماس إعظام لنفسي، فإنّه من استثقل الحقّ أن يقال له أو العدل أن يعرض عليه كان العمل بهما أثقل عليه.

فلا تكفّوا عن مقالة بحقّ أو مشورة بعدل، فإنّي لست في

نفسي بفوق أن أُخطىء ولا آمن ذاك من فعلي إلّا أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك به منّي.

فإنّما أنا وأنتم عبيد مملوكون لربّ لا ربّ غيره، يملك منّا ما لا نملك من أنفسنا، وأخرجنا ممّا كنّا فيه إلى ما صلحنا عليه، فأبدلنا بعد الضلالة بالهدى، وأعطانا البصيرة بعد العمى»[1].

وكما كان لا يحب المديح، كان لا يحب المشي في كبرياء وأبّهة، فقد خرج ذات مرة وهو راكب على الفرس، فمشى البعض خلفه فالتفت إليهم، وقال:

«ألكم حاجة؟

فقالوا: لا، يا أمير المؤمنين، ولكنّا نحب أن نمشي معك».

فقال لهم: «انصرفوا، فإن مشي الماشي مع الراكب مفسدة للراكب، ومذلّة للماشي»!

وركب مرة أُخرى فمشوا خلفه فقال عليه السلام:

ـ «انصرفوا، فإن خفق النعال خلف أعقاب الرجال، مفسدة لقلوب النوكى»[2].

ومرة أخرى وكان عليه السلام في طريقه إلى صفّين مرّ هو

---

(١) روضة الكافي: ص ٣٥٢.

(٢) بحار الأنوار: ج ٤١، ص ٥٥.

وأصحابه بمدينة الأنبار، فخفّ وجهاء المدينة وأعيانها إلى استقبال الإمام، يسوقون دواباً مطهمة حملوها أشهى الطعام هدية للإمام وجنوده.

فسألهم الإمام: «ما أردتم بهذا الذي صنعتم»؟

قالوا: «أما هذا الذي صنعنا فهو خلق منا نعظم به الأمراء: فالمطايا هدية لك، وقد صنعنا لك وللمسلمين طعاماً، وهيأنا لدوابكم علفاً كثيراً».

فقال عليه السلام: «أما هذا الذي زعمتم أنه منكم خلق تعظمون به الأُمراء، فوالله ما ينفع هذا الأمراء! وإنكم لتشقّون به على أنفسكم وأبدانكم، فلا تعودوا له. وأما دوابكم هذه فإن أحببتم أن نأخذها منكم فنحسبها من خراجكم أخذناها منكم. وأما طعامكم الذي صنعتم لنا فإننا نكره أن نأكل من طعامكم شيئاً إلّا بثمن».

قالوا: «يا أمير المؤمنين نحن نُقَوّمه فنقبل ثمنه».

قال: «وإن غصبكم أحد فأعلمونا»[1].

وكان عليه السلام متواضعاً في الدار، كما كان متواضعاً في السوق، فهو في الدار «كان يحتطب، ويستسقي، ويكنس، بينما كانت زوجته فاطمة عليها السلام تطحن، وتعجن، وتخبر»[2].

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ج ١، ص ٣١٠.

(٢) المصدر السابق: ص ٣٠٩.

وكان في السوق هو الذي يشتري، ويحمل ما اشتراه في طرف ردائه، وذات مرة رآه الناس فتبادروا إليه وقالوا:

ـ يا أمير المؤمنين، نحن نحمله.

فقال: ـ «ربّ العيال أحق بحمله»[١].

وكثيراً ما كان يحمل التمر والملح بيده ويقول:

لا ينقص الكامل من كماله ما جرّ من نفع إلى عياله[٢]

وربما كان يركب حماراً، ومن حوله الّذين يركبون الخيل والبغال المطهمة، ويدلي رجليه من على ظهر الحمار إلى موضع واحد ويقول: «أنا الذي أهنت الدنيا»!![٣].

وذات مرة قابله رجل في الطريق وهو يحمل التمر إلى أهله، فأفرط في الثناء عليه وكان الإمام يتّهم هذا الرجل، فقال له: «أنا دون ما قلت وفوق ما في نفسك»[٤]..

وكان يمشي في خمسة حافياً ويعلّق نعليه بيده اليسرى: يوم الفطر، والنحر، والجمعة، وعند العيادة، وتشييع الجنازة؛ ويقول: «إنها مواضع الله، وأُحبّ أن أكون فيها حافياً»[٥].

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ج ١، ص ٣٠٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) علي إمام المتّقين: ج ٢، ص ٢٣٨.

(٤) المصدر السابق.

(٥) بحار الأنوار: ج ٤١، ص ٥٤.

وكان يعجبه المتواضعون، ويكره المتكبرين في التاريخ، فيمدح النبي سليمان عليه السلام مثلاً لتواضعه ويقول: «كان سليمان عليه السلام إذا أصبح تصفّح وجوه الأغنياء والأشراف حتى يجيء إلى المساكين ويقعد معهم، ويقول: مسكين مع المساكين»[1].

وعلى العكس من المتكبرين الّذين كلّما بولغ في مدحهم ازدادوا فرحاً فإن الإمام أقدم على حرق من سلّم عليه بالألوهية. فقد ذكر المؤرخون أنه «أتى قوم أمير المؤمنين عليه السلام فقالوا: السلام عليك يا ربّنا!

فأستتابهم فلم يتوبوا، فحفر لهم حفيرة وأوقد فيها ناراً، وحفر حفيرة إلى جانبها أُخرى وأفضى بينهما، فلمّا لم يتوبوا ألقاهم في الحفيرة، وأوقد في الحفيرة الأُخرى النار حتّى ماتوا»[2].

ولقد كان يؤنب كل من يفخر على الناس ويقول له:

«ما بال ابن آدم والفخر؟ أوله نطفة، وآخره جيفة، لا يرزق نفسه، ولا يدفع حتفه»[3]!

* * *

(١) بحار الأنوار: ج ١٤، ص ٨٣.

(٢) فروع الكافي: ج ٧، ص ٢٥٧.

(٣) علي إمام المتّقين: ج ١، ص ٧٩.

وحينما كان حاكماً على البلاد الإسلامية وأميراً للمؤمنين «ورد عليه أب وابن، فقام إليهما وأكرمهما وأجلسهما في صدر المجلس وجلس بين أيديهما، ثم أمر بطعام فأحضر فأكلا منه، ثم جاء قنبر بطشت وإبريق خشب ومنديل لليبس وجاء ليصبّ على يد الرجل فقام أمير المؤمنين عليه السلام وأخذ الإبريق ليصبّ على يد الرجل.

قال الإمام عليه السلام: أُقعد واغسل، فإن الله عزّ وجلّ يراك وأخوك الذي لا يتميّز منك ولا يتفضّل عليك، يخدمك، يريد بذلك في خدمته في الجنة، مثل أضعاف عدد أهل الدنيا وعلى حسب ذلك في مماليكه فيها.

فقعد الرجل، فقال له الإمام علي عليه السلام:

أقسمت بعظيم حقي الذي عرفته لما غسلت مطمئناً كما كنت تغسل لو كان الصابّ عليك قنبر.

ففعل الرجل ذلك، فلما فرغ ناول الإمام الإبريق إلى ولده محمد ابن الحنفية، وقال:

يا بني لو كان هذا الابن حضرني دون أبيه لصببتُ على يده، ولكن الله عزّ وجلّ يأبى أن يسوّي بين ابن وأبيه إذا

جمعهما مكان، ولكن صبَّ الأب على يد الأب فليصبّ الابن على يد الابن».

فصبّ محمد ابن الحنفية على يد الابن»[1].

ثم إنه إذا كانت «آفة الرئاسة حب الفخر»[2] فإن أمير المؤمنين، لم تكن عنده ذرة منه، وإلّا لم يقم بغسل يد ضيف عادي من عامة الناس، وهو يعتذر إليه، ويُقسمه أن يغسل مطمئناً، وكأنّ قنبراً خادمه، هو الذي يقوم بخدمته.

وكما كان الإمام لا يفتخر، فإنه لم يكن يرضى الفخر لأحد. . فقد حدث أن «افتخر عند أمير المؤمنين عليه السلام رجلان. فقال لهما:

ـ «أتفتخران بأجساد بالية، وأرواح في النار؟

«إن يكن لك عقل فإن لك خلقاً، وإن يكن لك تقوى فإن لك كرماً، وإلّا فالحمار خير منك، ولست بخير من أحد»[3].

وكم كان يوصي أصحابه بالتواضع، ويقول لهم على لسان

---

(١) الاحتجاج: ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم.

(٣) بحار الأنوار: ج ٧٠، ص ٢٩١.

رسول الله صلى الله عليه وآله «إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد»[١].

ويقول عليه السلام: «أهلك الناس اثنان خوف الفقر، وطلب الفخر»[٢].

ويقول عليه السلام: «من صنع شيئاً للمفاخرة حشره الله يوم القيامة أسود»[٣].

وكان يرى المحبة من نتائج التواضع ويقول: «ثمرة التواضع المحبّة، وثمرة الكبر المسبّة»[٤].

ويرى أن «التواضع يكسبك السلامة»[٥] وأن «من تواضع قلبه لله ـ تعالى ـ لم يسأم بدنه من طاعة الله»[٦] وأن «بالتواضع تتم النعمة»[٧] وأن «التواضع ينشر الفضيلة، والتكبّر يظهر الرذيلة»[٨].

وكان عليه السلام يقول: «ما من أحد من ولد آدم إلّا وناصيته بيد

---

(١) الترغيب والترهيب: ج ٣، ص ٥٨٨.
(٢) بحار الأنوار: ج ٧٨، ص ٥٤.
(٣) بحار الأنوار: ج ٧٣، ص ٢٩٢.
(٤) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٥) بحار الأنوار: ج ٧٥، ص ١٢٠.
(٦) بحار الأنوار: ج ٧٨، ص ٩.
(٧) سراج الملوك ـ للطرطوشي: ص ١٠٨.
(٨) غرر الحكم ودرر الكلم.

ملك، فإن تكبّر جذبه بناصيته إلى الأرض وقال له: تواضع! وضعك الله»!

«وإن تواضع جذبه بناصيته ثم قال له: اِرفع رأسك! رفعك الله، ولا وضعك بتواضعك الله»[1].

ويقول: «التواضع سلّم الشرف، والتكبّر رأس التلف»[2].

ويقول: «اِتّضع ترتفع»[3].

---

(١) بحار الأنوار: ج ٧٥، ص ١٢٠.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٣) المصدر السابق.

المبادرة

الفرص كسحابات الصيف: غنية بالمطر، جميلة في المنظر، ولكنها سريعة في المسير. فمن أراد منها الماء فلا بد أن يبادر قبل أن يأتي السحاب، فيهيىء وسيلته، متطلعاً نحو الأفق، منتظراً أخباره، فإذا هطل المطر كان له النصيب الأوفر.

. أمّا من يبحث عن الوسيلة، بينما السحابات تمرّ فوق رأسه، متثاقلاً في حركته، فإنه يضيّع على نفسه أمرين: الوقت والمطر معاً.

وهكذا فإن «الفرصة تمرّ مرّ السحاب»[1] فهي «سريعة الفوت بطيئة العود»[2].

وكما الطيور التي تقفز في السماء، تطير بخفّة وسرعة،

(١) بحار الأنوار: ج ٧١، ص ٢٣٧.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم.

فإذا أردنا اصطيادها فلا بدّ أن نهيىء السلاح مسبقاً، ونفتح عيوننا جيداً حتى إذا مرّت رميناها فوراً، وإلّا فلن نحصد إلّا الحسرات..

كذلك الفرصة، تقفز في الزمن مثل الشهاب، فمن أرادها فلا بدّ أن يتهيأ لها سلفاً، فيرميها بنبال مبادرته وإلّا فإن «إضاعة الفرصة غصّة»[1] و«من انتظر بمعالجة الفرصة مؤاجلة الاستقصاء، سلبته الأيام فرصته، لأنّ من شأن الأيام السلب، وسبيل الزمن الفوت»[2].

ونظراً إلى أن «الفرصة خلسة»[3] فإن من «أخّر الفرصة عن وقتها فليكن على ثقة من فوتها»[4] ذلك «أن الشمس والقمر يبليان كل جديد، ويقربان كل بعيد»[5] فالأيّام ليست ثابتة، والزمن ليس جامداً، ولذلك فإنّ «الفرص» تظهر وتختفي على دقّات الساعات.

من هنا كانت «المبادرة» من صفات العظماء.

هذا علي بن أبي طالب عليه السلام كان المبادر في كل خير..

---

(١) نهج البلاغة: الحكم ١١٨.

(٢) بحار الأنوار: ج ٧٨، ص ٢٦٨.

(٣) المصدر السابق: ص ٧٩.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم.

(٥) النهاية: ج ٢، ص ٣٤٥.

فهو أوّل من آمن.

وأول من ضرب بالسيف في سبيل الله.

وأول من لبّى وأجاب وأعلن نصرته لرسول الله.

وأول من قاتل وجاهد وهاجر بعد رسول الله..

وكان يوصي أصحابه بالمبادرة ويقول: «أيّها الناس الآن.. الآن من قبل الندم، ومن قبل أن تقول نفس ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾[1]. أو تقول: ﴿لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[2]، أو تقول حين ترى العذاب: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[3][4] ويقول: «بادروا الفرصة قبل أن تكون غصّة»[5] ويقول: «الجنة غاية السابقين، والنار غاية المفرّطين»[6].

وكان يخاف على المؤمنين ضياع الفرص، وترك المبادرات، ويرى ذلك تفريطاً تعقبه الندامة والحسرة، حيث لا تنفع الحسرات. ويقول: «إياكم والتفريط فتقع الحسرة حين

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٥٦.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٥٧.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٥٨.

(٤) بحار الأنوار: ج ٧٧، ص ٣٧٥.

(٥) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١٦، ص ٩٧.

(٦) نهج البلاغة: الخطب ١٥٧.

لا تنفع الحسرة»[1] لأنّ «من فرّط تورّط»[2] «فطوبى لذي قلب سليم أطاع من يهديه، وبادر الهدى قبل أن تغلق أبوابه، وتقطع أسبابه»[3].

«عباد الله.. إن التقوى حمت أولياء الله، فبادروا العمل، وكذّبوا الأمل، ولاحظوا الأجل»[4].

وحقاً إنّ هناك أكثر من عقبة ترصد الإنسان مثل عقبة الموت وعقبة الأمراض وعقبة الشيخوخة، وهي عقبات لا يمكن التخلّص منها، فلا بدّ من اغتنام الفرص قبل الوصول إليها.

يقول الإمام عليه السلام: «بادروا بالأعمال عمراً ناكساً، أو مرضاً جالساً»[5].

ويقول: «بادروا آجالكم بأعمالكم، فإنكم مرتهنون بما أسلفتم، ومدينون بما قدّمتم»[6]. وهكذا فإن المبادرة في الخير ضرورة من ضرورات الحياة، كما أن تركها يؤدّي إلى الندم، والخسران..

(١) بحار الأنوار: ج ١٠، ص ٩٥.
(٢) بحار الأنوار: ج ٧٨، ص ٢٦٩.
(٣) نهج البلاغة: الخطب ٢١٤.
(٤) الأمالي: ج ٢، ص ١٠٧.
(٥) النهاية: ج ٢، ص ٦١.
(٦) نهج البلاغة: الخطب ١٩٠.

وهكذا كان الإمام علي عليه السلام في عمل الخير، فقد روي أنه في الكرّ والفرّ بين أصحاب الإمام وجنود الشام، كان الإمام يتجنّب إراقة الدماء لعلّ وعسى أن تنفع الموعظة في المناوئين، فيعودون عن غيّهم، ويتوبون إلى ربّهم، ولكن حينما وقعت المواجهة، كان الإمام يطالب أصحابه بأخذ المبادرة، وإلّا ستضيع عليهم الفرص.

ولقد صدر منه أقوى أنواع التقريع والعتاب، حينما خسروا المبادرة، وأصبح لمعاوية القدرة على أن يشنّ الغارات على المناطق التي كانت تخضع لحكم الإمام، ومنها الغارة التي شنّها «سفيان بن عوف الغامدي» عامل معاوية على «الأنبار» فقتلوا رجالها وأنتهكوا نساءها ونهبوا أموالها حتى حلي النساء وخرجوا عائدين إلى معاوية لم يمسسهم سوء، ولم يصبهم قرح ولا تعرّض لهم أحد.. فوقف الإمام على مرتفع صنعه بيده من الأحجار، وسيفه على حمائل من ليف، فحمد الله وأثنى عليه وصلّى وسلّم على رسوله وآله ثم قال:

«أما بعد، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة، فتحه الله لخاصة أوليائه، وهو لباس التقوى، ودرع الله الحصينة، وجنّته الوثيقة. فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل، وشمله البلاء، ودُيِّث بالصغار والقماءة (لُوِّث وأصبح ديوثاً لا غيرة

له)، وضرب على قلبه بالإسهاب (والإسهاب هو ذهاب العقل وكثرة الكلام بلا جدوى). وأديل الحق منه، بتضييع الجهاد، وسيم الخسف، ومنع النصف (الإنصاف).

ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، وسراً وإعلاناً، وقلت لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غُزِيَ قوم قط في عقر دارهم إلا ذلّوا، فتواكلتم وتخاذلتم، حتى شنّت عليكم الغارات، وملكت عليكم الأوطان.

وهذا أخو غامد (عامل معاوية)، وقد وردت خيله الأنبار، وقد قتل حسان بن حسان البكري، وأزال خيلكم عن مسالحها (المسلحة: المعسكر) وقتل رجالاً ونساء كثيرين. وقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة، والأخرى المعاهدة (ذات العهد: أي الذمية) وينتزع حجلها (خلخالها) وقلبها (أساورها) وقلائدها ورعاثها (قرطها)، ما تمتنع منه إلا بالاسترجاع والاسترحام. ثم انصرفوا وافرين وما نال رجل منهم كلم (جرح)، ولا أريق لهم دم!

فلو أن امرءاً مسلماً مات بعد هذا أسفاً، ما كان به ملوماً، بل كان به عندي جديراً!

فيا عجباً! عجباً والله يميت القلب، ويجلب الهمّ، من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم، وتفرّقكم عن حقكم! فقبحاً

لكم وترحاً (هماً وحزناً) حين صرتم غرضاً يُرمى، يُغار عليكم ولا تغيرون، وتُغزَوْن ولا تغزُون، ويُعْصَى الله وترضون!.

فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحر قلتم: هذه حمّارة القيظ، (شدّة الحر) أمهلنا ينصرم عنا الحر، وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلتم هذه صبّارة القر (شدّة البرد)، أمهلنا فينسلخ عنّا البرد، فكل هذا فراراً من الحرّ والقرّ، فإذا كنتم من الحرّ والقرّ تفرون، فأنتم والله من السيف أفرّ!.

يا أشباه الرجال ولا رجال! حلوم الأطفال وعقول ربّات الحجال، لوددت أني لم أركم ولم أعرفكم، معرفة ـ والله ـ جرّت ندماً وأعقبت سدماً (غيظاً)!

قاتلكم الله! لقد ملأتم قلبي قيحاً، وشحنتم صدري غيظاً، وجرّعتموني نغب التهمام (نغب جمع نغبة كجرعة لفظاً ومعنى، والتهمام: الهمّ) أنفاساً، وأفسدتم عليَّ رأيي بالعصيان والخذلان، حتى لقد قالت قريش: إن ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب.

لله أبوهم! وهل أحد منهم أشدّ لها مراساً وأقدم فيها مقاماً مني! لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين وها أنا ذا قد ذرفت على الستين! ولكن لا رأي لمن لا يُطاع»[1]!.

* * *

---

(١) الاغاني: ج ١٥، ص ٤٥.

ولا بد من توضيح نقطة هامّة، وهي أن المبادرة المطلوبة، هي المبادرة في أمر الخير، وليس في أعمال الشرّ. . ذلك أن الشيطان يدفع بالإنسان عادة إلى استعجال الشّر، أما أعمال الخير فلا تجد من يدفع إلى آستعجالها، إلّا ضمير الإنسان ودينه. .

والقاعدة التي يجب الالتزام بها هنا هي: «إذا عرض شيء من أمر الآخرة، فآبدأ به، وإذا عُرض شيء من أمر الدّنيا فتأنّه حتى تصيب رشدك»[1].

ف «التؤدة ممدوحة في كل شيء إلّا في فرص الخير»[2].

وهذا يعني أنك: «إذا هممت بخير فبادر، فإنّك لا تدري ما يحدث»[3] وذلك «أن الله يحب من الخير ما يعجّل»[4]

وهكذا فإن «من همّ بشيء من الخير فليعجّله، فإنّ كل شيء فيه تأخير فإنّ للشيطان فيه نظرة»[5].

ولقد أوصى الإمام علي عليه السلام في قضاء الحوائج، بالمبادرة فقال: «لا يستقيم قضاء الحوائج إلّا بثلاث: بآستصغارها

---

(١) بحار الأنوار: ج ٧١، ص ٢١٥.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٣) الكافي: ج ٢، ص ١٤٢.
(٤) ميزان الحكمة: ج ٦، ص ٧٤.
(٥) الكافي: ج ٢، ص ١٤٣.

لتعظم، وبأستكتامها لتظهر، وبتعجيلها لتهنؤ»[1] ذلك أنه «ليس من عادة الكرام تأخير الإنعام»[2].

وبالطبع فإنّ المبادرة، تختلف عن العجلة، فالاستعجال هو نوع من التسرّع في غير موقعه، أو المبادرة إلى الشّر.. مثل الاستعجال إلى العقوبة قبل التثبّت، ولذلك كان «من كمال الحلم تأخير العقوبة»[3].

ولهذا أوصى الإمام ولده الحسن بقوله: «أخّر الشّر فإنك إذا شئت تعجّلته»[4].

أمّا المبادرة المطلوبة، فهي اغتنام فرص الخير، والولوج إلى أبواب العمل الصالح فور انفتاحها، وعدم إضاعة الوقت..

(١) قوت القلوب: ج ٢، ص ٢٢٢.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٣) ميزان الحكمة: ج ٦، ص ٧٣.
(٤) العقد الفريد: ج ٣، ص ١٥٥.

الوفاء

من أعظم صفات الرجال: الوفاء، ومن أرذلها الغدر.

ذلك أن «الوفاء أشرف الخلائق»[1] كما أنّ «الغدر شيمة اللئام»[2] و«الوفاء عنوان النبل»[3] و«الغدر أقبح الخيانتين»[4].

وما أحوج الّذين لهم مكانة في المجتمع، من الزعماء والحكّام وأصحاب المناصب، إلى التزام الوفاء وأداء الأمانة.

وما أقلّهم!.

فكم من رجال في التاريخ رفعتهم الأحداث إلى مصاف العظماء، ثم غدروا بمن كان معهم، فسقطوا في حضيض المقبوحين؟ وكم من أناس مغمورين أوفوا للآخرين، فوقف لهم النَّاس إجلالاً وإكباراً على مرّ الزمان؟

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم.

(٢) ميزان الحكمة: ج ٧، ص ١٧٤.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم.

(٤) المصدر السابق.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن «أقلّ الناس وفاء الملوك»[١] ومن يدور في فلكهم، حيث للشيطان سلطان في قصورهم، فإن أعظم الحكّام هم أكثرهم وفاءً، والتزاماً بالعهد، ومجانبة للغدر..

وحقاً فإن «الوفاء حصن السؤدد»[٢] «وحفظ الذمام»[٣] وبه «يعرف الأبرار»[٤] بينما «الغدر يعظّم الوزر[٥] ومجانب للقرآن»[٦] و«يضاعف السيئات»[٧].

والغريب أنّ كثيراً من الحكّام ابتلي بالغدر، حتى أصبح ذلك صفة من صفات الملوك والأمراء، وعادةً من عادات أصحاب التاج والصولجان، وحقاً من حقوقهم! ووسيلة مشروعة لارتقاء سلالم الحكم! معتبرين ذلك من الحيل التي يجوز التوسّل بها في الأعمال السياسية..

ويبدو أنّ ذلك كان من الأُمور التي عانى منها الإمام أمير

---

(١) بحار الأنوار: ج ٧٧، ص ١١٢.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٣) ميزان الحكمة: ج ١٠، ص ٦٠٢.
(٤) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٥) المصدر السابق.
(٦) المصدر السابق.
(٧) المصدر السابق.

المؤمنين عليه السلام في عصره، كما عانى كل الصادقين منه في التاريخ.

يقول عليه السلام: «أيّها النّاس: إن الوفاء توأم الصدق، ولا أعلم جنّة أوقى منه، وما يغدر مَن عَلِم كيف المرجع، ولقد أصبحنا في زمان قد اتّخذ أكثر أهله الغدر كيساً (شطارة)، ونسبهم أهل الجهل إلى حسن الحيلة.

«ما لهم؟! قاتلهم الله!. قد يرى الحوّل القلّب (البصير بتحولات الأمور وتقلباتها) وجه الحيلة ودونها مانع من أمر الله ونهيه، فيدعها رأي العين بعد القدرة عليها، وينتهز فرصتها من لا حريجة له في الدّين»[1].

لقد ابتُلي الإمام عليه السلام بمناوىء يتّخذ الغدر، والاغتيال، وشراء الضمائر وسيلته لمواجهة الإمام وهو «معاوية بن أبي سفيان» الذي كان يرفع شعار: «والله لأغلبنّ بدنياي دين علي»، وكان الإمام يرى بأم عينيه كيف تنتقص أطراف مملكته شبراً شبراً بسبب الوسائل التي يستعملها معاوية، ولكنه عليه السلام كان يرفض أن يستخدم نفس أساليبه.. ويقول: «والله ما معاوية بأدهى منّي ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت أدهى الناس، ولكن كلّ غُدرة فجرةَ، وكل فجرة كفرة،

---

(١) نهج البلاغة: الخطب ٤١ ـ ورسائل الجاحظ: ص ١٢٥.

ولكل غادر لواء يُعرف به يوم القيامة! «والله ما أستغفل بالمكيدة، ولا أستغمز بالشديدة»[1].

كان يعرف جيداً داء النَّاس ودواءهم، ولكنه كان من أهل «الوفاء»، ومن أئمة العدل، ومن الأبرار الأخيار الّذين كلّما قوي أعداؤه في الكذب والدجل، كان يقوى هو في الصدق والصراحة والحق. .

كان الإمام يقول: «والله إني لأعلم بدائكم ودوائكم ولكن هيهات أن أصلحكم بخراب نفسي».

كان معاوية يستخدم الغدر والاغتيال لقتل مناوئيه، فيضع السم في العسل ويهديه لهم ثم يضحك ويقول: « إن لله جنوداً من العسل»، وكان أمير المؤمنين يشير إلى ابن ملجم ويقول:

ـ «هذا قاتلي»!

ـ فيقال له أفلا نقتله؟ فيرفض ذلك ويقول: «إذاً تقتلون بي غير قاتلي»!

وكان معاوية يكتب إلى ولاته وعمّاله: «انظروا إلى من روى حديثاً لأبي تراب فأقتلوه» ويقول: «خذوهم بالتهمة وأقتلوهم بالظنّة».

وكان أمير المؤمنين يكتب إلى عمّاله: «فلا تغدرنّ بذمّتك

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد: ج ١٠، ص ٢٠٩.

ولا تخيّسن بعهدك، ولا تختّلن عدوّك، فإنه لا يجترىء على الله إلّا جاهل شقي، وقد جعل الله عهده وذمّته أمناً أفضاه بين العباد برحمته، وحريماً يسكنون إلى منعته، ويستفيضون إلى جواره فلا ادغال، ولا مدالسة، ولا خداع فيه، ولا يدعونّك ضيق أمرٍ لزمك فيه عهد الله إلى طلب انفساخه بغير الحق، فإن صبرك على ضيق أمر ترجو انفراجه، وفضل عاقبته خير من غدر تخاف تبعته، وإن تحيط بك من الله فيه طلبه»[1].

لقد رفض الإمام مجموعة أُمور بسيطة، ومنها قبول ولاية معاوية، وتثبيته على الشام، وجرّ ذلك عليه الكثير من المشاكل.. فقط لأن الإمام كان يرفض المناورات الشيطانية والغدر، وإلّا كان بأستطاعته أن يثبت معاوية أياماً ثم يغدر به بكل سهولة.

لقد جاءه المغيرة بن شعبة بعد مبايعته، فقال له:

- «إن لك حق الطاعة والنصيحة، وإن الرأي اليوم تحرز به ما في غد، وإن الضياع اليوم تضيع به ما في غد، أقرر معاوية على عمله، وأقرر العمال على أعمالهم، حتى إذا أتتك طاعتهم وبيعة الجنود استبدلت أو تركت».

---

(١) نهج البلاغة: الخطب ٥٣.

فأبى عليه السلام وقال: «لا أداهن في ديني، ولا أعطي الدنيئة في أمري».

قال المغيرة: «فإن كنت أبيت عليّ فأنزع من شئت وأترك معاوية، فإنّ في معاوية جرأة، وهو في أهل الشام يُستمع له ولك حجّة في إثباته.. إذ كان عمر قد ولّاه الشام».

فقال علي عليه السلام: «لا واللهِ.. لا أستعمل معاوية يومين»[1].

لقد كان الإمام يرفض الغدر، إلى درجة أنه يعتبر الغادر والخائن ممّن لا يجوز الوفاء معهما، فمن كسر حرمة الوفاء، فلا بدّ من ردعه بالشدة والحزم، لا باللين واللطف.

يقول عليه السلام: «الوفاء لأهل الغدر غدر عند الله، والغدر بأهل الغدر وفاء عند الله»[2].

ويقول: «الخائن لا وفاء له»[3].

(١) عبقرية الإمام علي عليه السلام: ص ١٢٢.
(٢) روض الأخيار: ص ١٣٩.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم.

التضحية

لا يمكن أن تنتصر قضية ليس أصحابها مستعدّين للتضحية من أجلها.

غير أن هنالك فرقاً بين من يبحث عن المجد الشخصي، وإحراز الانتصار على أعدائه في حياته، وبين من يمتلك قضية، ويسعى من أجل انتصارها، حتى وإنّ أدّى ذلك إلى التضحية بنفسه..

فالأول: إذا خسر، ستكون في خسارته نهايته.

والثاني: إذا خسر، فقد تكون في خسارته نجاحه.

فالأهداف العليا، كالمُثل والقيم والدّين، ستجد من ينتصر لها يوماً، وكل من يقدم حياته لها يتحوّل إلى رمز مقدس على مرّ الأيام، ولذلك فمن يموت دون قضية، يزيدها قوّة ومناعة..

فالتضحية بالنفس للقضايا.. تقوّيها.

بينما التضحية للنفس بالقضايا . . تنهيها .

وعلى أيّة حال فإن المغامرة من أجل الأهداف، وخوض الغمرات في الدفاع عنها، ضرورة من ضرورات العمل للحق.

وأساساً كيف نعرف صدق المدّعين إلّا حينما يدعون إلى التضحية والفداء؟.

إن أدعياء الحق كثيرون، ولكن المستعدين لبذل كل شيء له، هم الصادقون منهم. وهم الأقلون.

«فالناس عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم، يدورونها ما درت معائشهم فإذا محّصوا بالبلاء قلّ الدّيانون»[1].

ويبدو أن ذلك من سُنّة الله في الخلق حتى يميّز المجاهدين منهم عن الكاذبين. ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾[2].

إن الطريق إلى تحقيق المثل العليا، مليء بالأشواك كما هي الطريق إلى الجنة، فقد «حفّت الجنة بالمكاره وحفّت النار بالشهوات»[3].

وإذا كانت لنا برسول الله قدوة حسنة، فإن النبي صلى الله عليه وآله

---

(١) حياة الإمام الحسين ـ القرشي.

(٢) سورة العنكبوت، الآيتان: ٢ ـ ٣.

(٣) المحاسن: ص ٦.

«خاض إلى رضوان الله كل غمرة، وتجرّع فيه كل غصّة وقد تلوّن له الأدنون، وتألّب عليه الأقصون، وخلعت إليه العرب أعنّتها، وضربت إلى محاربته بطون رواحلها حتى أنزلت بساحته عدواتها، من أبعد الدار وأسحق المزار»[1].

إذن «لا تفرطوا في صلاح، وأن تخوضوا الغمرات إلى الحق»[2].

لقد أوصى الإمام ولده الحسنعليه السلام ـ وهو العزيز على قلبه ـ أن يخوض كأبيه، الغمرات للحق قائلاً: «جاهد في الله حق جهاده، ولا تأخذك في الله لومة لائم، وخض الغمرات للحق حيث كان»[3].

إن التضحية المطلوبة، لا تعني بالضرورة أن يموت الإنسان من أجل قضيته، ولكنها تعني حتماً الاستعداد للمغامرة من أجلها وعدم وضع حدّ لما تتطلّبه من الغالي والرخيص.

وهكذا كان الإمام عليعليه السلام فقد كان دائماً على اسْتعداد للمغامرة بحياته في سبيل الرسالة، فما من غزوة إلّا وهو

(١) نهج البلاغة: الخطب ١٩٤.
(٢) الأمالي: ج ١، ص ٢٢١.
(٣) نهج البلاغة: الكتب ٣١.

أميرها، أو بطلها، وما من دعوة تتطلّب التضحية إلّا وهو أول من يستجيب لها.

وفيما يلي نموذج واحد من ذلك:

روي «أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله خرج ذات يوم الفجر، ثمّ قال: معاشر الناس أيّكم ينهض إلى ثلاثة نفرٍ قد آلوا باللّات والعزّى ليقتلوني، وقد كذبوا وربّ الكعبة»؟

فأحجم الناس وما تكلّم أحد، فقال صلى الله عليه وآله: «ما أحسب عليّ بن أبي طالب عليه السلام فيكم». فقال له عامر بن قتادة: إنّه وعك في هذه الليلة ولم يخرج يصلّي معك، فتأذن لي أن أُخبره؟

فقال النبي صلى الله عليه وآله: «شأنك» فمضى إليه فأخبره، فخرج أمير المؤمنين عليه السلام كأنّه نشط من عقال، وعليه إزار قد عقد طرفيه على رقبته، فقال: يا رسول الله صلى الله عليه وآله ما هذا الخبر؟ قال النبي: «هذا رسول ربّي يخبرني عن ثلاثة نفر قد نهضوا لقتلي» فقال علي عليه السلام: يا رسول الله أنا لهم سريّة وحدي، هو ذا ألبس عليَّ ثيابي، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «بل هذه ثيابي وهذا درعي وهذا سيفي» فدرّعه وعمّمه وقلّده وأركبه فرسه.

وخرج أمير المؤمنين عليه السلام فمكث النبيّ ثلاثة أيّام لا يأتيه

جبرائيل بخبره ولا خبر من الأرض، وأقبلت فاطمة بالحسن والحسين على وركيها تقول: أوشك أن يُيَتَّم هذان الغلامان.

فأسبل النبيّ ﷺ عينه، ثم قال: «معاشر الناس من يأتيني بخبر عليّ أبشّره بالجنّة»، وٱفترق الناس في الطلب لعظيم ما رأوا بالنبي ﷺ وخرج العواتق، فأقبل عامر بن قتادة يبشّر بعليّ، وأقبل عليّ أمير المؤمنين عليه السلام معه أسيران ورأس وثلاثة أبعرة وثلاثة أفراس.

فسأله رسول الله عن قصته؟

فقال عليه السلام: يا رسول الله، لمّا صرت في الوادي رأيت هؤلاء ركباناً على الأباعر فنادوني من أنت؟

فقلت: أنا عليّ بن أبي طالب ابن عمّ رسول الله ﷺ.

فقالوا: ما نعرف لله من رسول، سواء علينا وقعنا عليك أو على محمّد، وشدَّ عليَّ هذا المقتول، ودار بيني وبينه ضربات فضربته، وقطعت رأسه وأخذت هذين أسيرين.

فقال له رسول الله: «قدّم إليّ أحد الرجلين»، فقدّمه فقال: «قل: لا إلٰه إلّا الله وٱشهد أنّي رسول الله»، فقال: لنقل جبل أبي قبيس أحبّ إليّ من أن أقول هذه الكلمة! فقال: يا عليّ أخّره وٱضرب عنقه، ثمّ قدّم الآخر فقال رسول الله ﷺ له: «قل: أشهد أن لا إلٰه إلّا الله وٱشهد أنّي رسول الله، قال:

يا محمّد ألحقني بصاحبي فقال: صلى الله عليه وآله: يا عليّ أخّره وأضرب عنقه، وقام أمير المؤمنين عليه السلام ليضرب عنقه فهبط جبرائيل على النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا محمّد إنّ ربّك يقرؤك السلام ويقول: لا تقتله فإنّه حسن الخلق سخيٌّ في قومه.

فقال النبي صلى الله عليه وآله: «يا عليُّ أمسك فإنّ هذا رسول ربّي عزّ وجلّ يخبرني أنّه حسن الخلق سخيّ في قومه».

فقال المُشرك تحت السيف: هذا رسول ربّك يخبرك؟ قال: نعم، قال: والله ما ملكت درهماً مع أخ لي قطّ ولا قطبت وجهي في الحرب، وأنا أشهد أن لا إله إلّا الله وأنّك رسول الله.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «هذا ممّن جرّه حسن خلقه وسخاؤه إلى جنّات النّعيم»[1].

(١) الخصال: ج ١، ص ٤٦ ـ ٤٨.

العطاء

العطاء سمة بارزة من سمات أولياء الله، فهم يعطون من أنفسهم وأموالهم وأوقاتهم، وحياتهم، من غير ما رغبة في الجزاء من أحد..

ومن هنا فإنهم دائماً يبحثون عن ذوي الحاجة والعوز، لا عن ذوي الثروة والمال. ويرون العطاء أصلاً من أُصول الحياة، وواجباً من واجباتهم، كما يقول رسول الله ﷺ: «لم نبعث لجمع المال، ولكن بُعثنا لإنفاقه»[1]!

فرسالتهم هي الإنفاق لا الجمع. والعطاء لا التكاثر. والكرم لا البخل.

وهكذا كان الإمام علي عليه السلام يقدم الآخرين على نفسه، ويبحث عمن يعطيه ويعتبر ذلك ديناً عليه، لا له، ويقول:

---

(١) مشكاة الانوار: ص١٨٢.

«الكريم يرى مكارم أخلاقه ديناً عليه يقضيه، واللئيم يرى سوالف إحسانه ديناً له يقتضيه»[1].

ولذلك فإنه عليه السلام كان يبحث عن ذوي الحاجة ليعطيهم، كما يبحث أحدنا عن الدرّ والجوهر..

وكما يقول أحدهم: «ما كان علي لينتظر حتى يسأله سائل، بل كان يبحث هو نفسه عن صاحب الحاجة، والمسكين، واليتيم، والفقير والمحروم، يمضي إليهم هو ويعطيهم من ماله ما يعتقد أنه حق لهم معلوم. وكان يقول: «السخاء ما كان ابتداءً أما ما كان عن مسألة فحياء وتذمم» (فرار من الذم).

هكذا كان يؤتى ماله يتزكى، وما لأحد عنده من نعمة تُجزى، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى.. ولسوف يرضى! وقد جعله ربّه رضياً.

ولشدّة ما كان يرضى إذ يسعد الآخرين!!.. وكان عند ربّه مرضيّا!.. أرضى الله ورسوله، فأرضاه الله ورسوله[2].

وحينما رزق الله المسلمين غنائم كثيرة واتسع رزق المجاهدين منهم، اتخذ بعضهم المزارع، والدور الكبيرة، وفاخر الرياض.. أما هو ونفر من كبار الصحابة، فقد كانوا

(١) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٢) علي إمام المتقين: ج١، ص٤٩.

يتصدّقون بما يغنمون!، بل ولم يكن يؤخّر العطاء من الليل إلى النهار..

فعن سالم الجحدري قال:

«شهدت عليّ بن أبي طالب عليه السلام أتي بمال عند المساء، فقال: اقتسموا هذا المال:

فقالوا: قد أمسينا يا أمير المؤمنين فأخّره إلى غد.

فقال لهم: تقبلون لي أن أعيش إلى غد؟

قالوا: ماذا بأيدينا؟

فقال: لا تؤخّروه حتّى تقسّموه»[١].

لقد كان كريماً بلا حدود، وضد البخل بلا تحفّظ.

فالسخاء عنده «يزرع المحبة»[٢] و«يثمر الصفاء»[٣] و«يزين الأخلاق»[٤] و«يمحّص الذنوب ويجلب محبّة القلوب»[٥] وهو «ثمرة العقل»[٦].

ذلك أن «السخاء خلق الله الأعظم»[٧] و«خلق الأنبياء»[٨]

---

(١) بحار الأنوار: ج٤٠، ص٣٢١.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٣) المصدر السابق.
(٤) ميزان الحكمة: ج ٤، ص ٤٢٠.
(٥) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٦) المصدر السابق.
(٧) كنز العمال: خ ١٥٩٢٦.
(٨) غرر الحكم ودرر الكلم.

ولذلك فإنه «ما جبل الله ولياً إلّا على السخاء»[١] ومن هنا فإنّ «سادة النَّاس في الدنيا الأسخياء»[٢].

أمّا البخل، فعند الإمام هو: «جامع لمساوىء العيوب، وهو زمام يُقاد به إلى كل سوء»[٣] إذن «البخل أذمّ الأخلاق»[٤] وهو «عار»[٥].

كان عَلَيْهِ السَّلَامُ يؤمن بالجزاء ولذلك كان يجود بالعطية.

وقد روي «أن علياً جلس في سوق المدينة المنوّرة ومعه ابنه الحسن وهو صغير، ومرّ سائل مسكين، فرقّ عليّ له فقال للحسن: «اِذهب إلى أمك فقل لها: تركت عندك ستة دراهم، فهات منها درهماً».

فذهب الحسن إلى أمه ثم رجع إلى أبيه فقال: «أمي تقول لك إنما تركت ستة دراهم للدقيق».

فقال علي: «لا يصدق إيمان عبد حتى يكون بما في يد الله أوثق منه بما في يده، قل لها اْبعثي بالدراهم الستة جميعاً».

(١) كنز العمال: خ ١٦٢٠٤.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٣) بحار الأنوار: ج ٧٣، ص ٣٠٧.
(٤) بحار الأنوار: ج ٧٢، ص ١٩٩.
(٥) بحار الأنوار: ج ٧٣، ص ٣٠٧.

فبعث بها إليه فدفعها كلها إلى السائل.

وبعد لحظات مرّ به رجل معه جَمَلٌ يبيعه.

فقال علي: «بكم الجمل»؟

قال الرجل: «بمائة وأربعين درهماً».

قال علي للرجل إنه يشتري الجمل، ولكنه سيدفع ثمنه بعد حين!. فوافق صاحب الجمل، وتركه لعلي ومضى.

ثم أقبل رجل آخر فقال: «لمن هذا البعير»؟.

قال علي: «لي».

قال الرجل: «أتبيعه».

قال الرجل: «بكم»؟.

قال الإمام: «بمائتي درهم». فأخذ الرجل البعير وأعطى علياً المائتين.

فأعطى صاحب الجمل - حين عاد إليه - حقه، وهو مائة وأربعون درهماً. وجاء بستين درهماً إلى فاطمة عليها السلام. فقالت: «ما هذا»؟. قال: «هذا ما وعدنا الله على لسان نبيّه صلى الله عليه وآله من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها»[1].

وكان عليه السلام يعطي، ولا يتوقّع الشكر، ويقول: «إن مكرمةً

---

(١) علي إمام المتّقين: ج ١، ص ٤٠.

صنعتها إلى أحد من الناس، إنما أكرمت بها نفسك، وزيّنت بها عرضك فلا تطلب من غيرك شكر ما صنعت إلى نفسك»[1].

قال عنه الشعبي: «كان علي عليه السلام أسخى الناس، كان على الخلق الذي يحبّ الله: السخاء والجود، ما قال «لا» لسائل قطّ. وقال عدوّه ومبغضه الذي يجتهد في وصمه وعيبه معاوية بن أبي سفيان لمحفن بن أبي محفن الضبيّ لمّا قال: جئتك من عند أبخل النَّاس.

«فقال معاوية: ويحك كيف تقول إنّه أبخل الناس ولو ملك بيتاً من تبر وبيتاً من تبن لأنفد تبره قبل تبنه؟ وهو الذي كان يكنس بيوت الأموال ويصلّي فيها، وهو الذي قال: يا صفراء ويا بيضاء غرّي غيري، وهو الّذي لم يخلّف ميراثاً وكانت الدنيا كلها بيده إلّا ما كان من الشام»[2].

وروي «أنّه كان يأتي عليه وقت لا يكون عنده قيمة ثلاثة دراهم يشتري بها إزاراً وما يحتاج إليه، ثم يقسّم كلّ ما في بيت المال على النَّاس، ثم يصلّي فيه فيقول: الحمد لله الذي أخرجني منه كما دخلته»[3].

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٢) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ٢١٥.
(٣) بحار الأنوار: ج ٤٠، ص ٣٢١.

كان يكره البخل، والباخلين، ويقول: «البخيل يذلّ مصاحبه، ويعزّ مجانبه»[1] ويقول: «البخل بالموجود سوء ظن بالمعبود»[2]، ويقول: «ليس لبخيل حبيب»[3]، ويقول: «عجبت للشقي البخيل، يتعجّل الفقر الذي منه هرب، ويفوته الغنى الذي إياه طلب، فيعيش في الدنيا عيش الفقراء، ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء»[4].

وكان يوصي بالابتعاد عن البخلاء، ويقول: «إيّاك ومصادقة البخيل فإنه يقعد عنك، أحوج ما تكون إليه»[5]، ويوصي بعدم استشارته أيضاً ويقول: «فلا تدخلن في مشورتك بخيلاً»[6].

وكان يرى الكرم شرطاً لإمامة المسلمين ويقول: «لا ينبغي إمامة المسلمين: البخيل فتكون في أموالهم نهمته»[7].

ولقد كان منبع العطاء، ومصدر الكرم، كان يعطي وهو

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٢) المصدر السابق.
(٣) ميزان الحكمة: ج ١، ص ٣٧٥.
(٤) بحار الأنوار: ج ٧٢، ص ١٩٩.
(٥) نهج البلاغة: الحكم ٣٨.
(٦) نهج البلاغة: الكتب ٥٣.
(٧) نهج البلاغة: الخطب ١٣١.

محتاج يقول بعض من عاصره: «كانت غلّة عليّ أربعين ألف دينار، فجعلها صدقة، وإنّه باع سيفه وقال: لو كان عندي عشاء ما بعته»(١).

ويقول ابن عباس: «إن علي بن أبي طالب عليه السلام كان يملك أربعة دراهم، فتصدّق بدرهم ليلاً وبدرهم نهاراً وبدرهم سرّاً وعلانية، فأنزل الله سبحانه فيه: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٢)(٣).

كان يقول: «لا تستح من إعطاء القليل فإنّ الحرمان أقلّ منه»(٤) وقد روي أنه عليه السلام نظر إلى فقير انخرق كمّ ثوبه، فخرق عليه السلام كمّ قميصه وألقاه إليه(٥).

وكان يعاتب من لا يشجّع على الكرم، أو يدعو إلى البخل وقد روي: «أن أمير المؤمنين عليه السلام بعث إلى رجلٍ بخمسة

---

(١) بحار الأنوار: ج ٤١، ص ٢٦.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٧٤.
(٣) كشف الغمّة: ص ٥٠.
(٤) المستطرف: ج ١، ص ١٦٣.
(٥) بحار الأنوار: ج ٤٠، ص ٣٢٣.

أوساق من تمر. فقال له رجل: «والله ما سألك فلان، ولقد كان يجزيه من الخمسة أوساق، وسق واحد..

فغضب عليه السلام وقال له عليه السلام: «لا كثّر الله في المؤمنين مثلك، أعطي أنا وتبخل أنت»؟[1].

لقد كان الإمام يعطي بمقدار كرمه هو، لا بمقدار حاجة من يعطيه.

من ذلك ما روي أن أعرابياً سأله شيئاً، فأمر له بألف، فقال وكيله: من ذهب أو فضة؟ (أي دينار أو درهم):

فقال عليه السلام: «كلاهما عندي حجر، أعط الأعرابي أنفعهما له»[2].

«وكان إذا أعطى شيئاً حتى خطأ، فلا يسترجعه فقد ذكر المؤرخون أن عبد الله بن الزبير قال للإمام: إني وجدت في حساب أبي أنّ له كذا من المال؟ فقال له: إن أباك لصادق إن قال هذا، فقضى ذلك، ثم جاءه ابن الزبير قائلاً: غلطت فيما قلت، إنما كان لوالدك على والدي ما ذكرته لك، فقال: والدك في حلّ، والذي قبضته مني هو لك»[3].

لقد أوصاه رسول الله صلى الله عليه وآله أن يكون معطاء حتى مع

---

(١) الوسائل: ج ٦، ص ٣١٨

(٢) السبيل إلى إنهاض المسلمين: ص ٤٤٢.

(٣) المصدر السابق: ص ٤٤٢.

أعدائه، فقال له: «يا علي، ألا أدلك على خير أخلاق الأولين والآخرين»؟.

قال: «بلى يا رسول الله».

قال: «تعطي من حرمك، وتعفو عمّن ظلمك، وتصل من قطعك»[1].

وعملاً بهذه الوصية، لم يكن عطاء الإمام عليه السلام يقتصر على عامة الناس، أو من له هوى فيه، بل كان يشمل حتى الأعداء. وهذا هو الامتحان الصعب. فأنت قد تعطي من تحبّه، أمّا أن تعطي من يعاديك وتعاديه، فهو العطاء الذي لا تشوبه شائبة، ولا يمكن إلّا أن يكون في سبيل الله.

وقد تجلّى ذلك في موارد كثيرة. ولكننا نقتصر على بعض النماذج، فقد روي أنّ علياً عليه السلام كان يحارب رجلاً من المشركين، فقال المشرك:

«يا ابن أبي طالب هبني سيفك»، فرماه إليه.

فقال المشرك: «عجباً يا ابن أبي طالب في مثل هذا الوقت تدفع إليّ سيفك؟!

فقال: «يا هذا إنّك مددت يد المسألة إليّ، وليس من الكرم أن يردّ السائل».

---

(١) كلمة الرسول الأعظم.

فرمى الكافر نفسه إلى الأرض وقال: «هذه سيرة أهل الدين، فقبّل جبهته وأسلم»[1].

ومن ذلك أيضاً ما جرى بينه وبين معاوية في صفّين، حينما سبق معاوية وجنده، الإمام إلى الماء. وكانت شريعة الماء التي ملكها معاوية هي المورد الوحيد على النهر إلى الماء. ولقد جعل معاوية عليه حرساً كبيراً بقيادة أبي الأعور، وأمرهم أن يمنعوا الماء علياً وجنوده. وجاء جنود علي يشربون فصدّهم جيش معاوية، وشرعوا في وجوههم الرماح والسيوف، ورشقوهم بالنبال!!

فقال له عمرو بن العاص: «يا معاوية خَلِّ بين القوم وبين الماء فإنهم لن يعطشوا وأنت ريان. ولكن بغير الماء فأنظر فيما بينك وبينهم».

فأبى معاوية. .

فقال عمرو: «يا معاوية ما ظنّك بالقوم إن منعوك الماء غداً كما منعتهم اليوم»؟. قال: «إن علياً لا يستحلّ منّا ما نستحلّ منه».

ولما أحسّ جند الإمام حرّ العطش شكوا إليه، وطلبوا منه أن يأذن لهم بقتال جند معاوية على الماء.

فأرسل الإمام إلى معاوية من يقول له: «إنّا سرنا مسيرنا

---

(١) فضائل العشرة: أبو السعادات.

هذا ونحن نكره قتالكم قبل الإعذار إليكم، فقدمت إلينا خيلك ورجلك فقاتلتنا قبل أن نقاتلك، وبدأتنا بالقتال! ونحن من رأينا الكفّ حتى ندعوك ونحتجّ عليك. وهذه أخرى قد فعلتموها، منعتم الناس من الماء، والناس غير منتهين أو يشربوا، فٱبعث إلى أصحابك فليخلوا بين الناس والماء، وليكفوا لننظر فيما بيننا وبينكم وفيما قدمنا له. فإن أردت أن نترك ما جئنا له ونقتتل على الماء حتى يكون الغالب هو الشارب، فعلنا».

فقام رجل من أهل الشام فقال: «أما والله لو سبقكم عليٌّ إلى الماء لسقاكم منه. أما تعلمون أن فيهم العبد والأمة والأجير والضعيف ومن لا ذنب له؟ فهذا أول الجور! يا معاوية لقد شجّعت الجبان، وبَصَّرت المرتاب، وحملت من لا يريد قتالك على كتفيك».

وكان الرجل صديقاً لعمرو فقال له معاوية: «يا عمرو اكفني صديقك»!.

وأمر الإمام جنوده أن يحاربوا على الماء.. فٱندفع بهم الأشتر والإمام يدعو قائلاً:

«اللَّهُمَّ إن أظهرتنا على عدوّنا فجنّبنا البغي، وسدّدنا للحق، وإن أظهرتهم علينا فٱرزقنا الشهادة وٱعصم بقية أصحابي من الفتنة».

وحمل جند الإمام حملة ضارية فٱنهزم جند الشام عن الماء، وصار الماء في أيدي جند الإمام، فقال رجال منهم: «والله لا نسقيهم»[1].

وخاطبوا الإمام قائلين: «امنعهم يا أمير المؤمنين من الماء، كما منعوك، ولا تسقهم منه قطرة، وٱقتلهم بسيوف العطش، وخذهم قبضاً بالأيدي فلا حاجة لك إلى الحرب».

وكانت الفرصة سانحة للإمام بأن ينتصر فعلاً على معاوية، ولم يكن في ذلك يفعل إلّا ما فعله معاوية من قبل، وبحكم الآية الكريمة: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[2] كان للإمام الحق في ذلك ولكن لم يفعل..

فقد رفض منع معاوية وجنده الماء، وقال لأصحابه: «لا أفعل ما فعله الجاهلون، ولا أكافئهم بمثل فعلهم».

وأضاف عليه السلام: «خذوا حاجتكم من الماء وٱرجعوا إلى عسكركم، وخلُّوا بينهم وبين الماء، فإن الله قد نصركم ببغيهم وظلمهم».

---

(١) علي إمام المتّقين: ج ٢، ص ٤٥ ـ ٤٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.

وأرسل الإمام إلى معاوية: «إنّا لا نجازيك بصنعك! هلم إلى الماء فنحن وأنتم فيه سواء».

وشعر معاوية بالخجل. وتغيظ عمرو على معاوية. فقال له معاوية: «يا عمرو، كان فلتة من رأي أعقبتني بخطئها» ثم التفت إلى بطانته وقال: «لله درّ عمرو! ما عصيته في أمر قطّ إلّا أخطأت فيه»![1].

(١) السبيل إلى إنهاض المسلمين: ص ٤٥٣.

الشجاعة

الشجاعة من الشروط الأساسية للنجاح، سواء على المستوى العام، للزعماء وأصحاب الرسالات، أم على المستوى الشخصي للآباء والأمهات، أم للعاملين في الحقول المختلفة في الحياة.

وهي حجر الزاوية في صفات الفروسية. فهل يمكن تصوّر رجل عظيم جبان؟ وهل هناك شخص واحد نجح من غير إقدام؟

وحقاً فإن «الشجاعة نصرة حاضرة وقبيلة ظاهرة»[1] وهي بلا شك «أحد العزّين»[2].

بينما «الجبن آفة، والعجز سخافة»[3] كما أنه «عار ومنقصة»[4].

---

(١) ميزان الحكمة: ج ٥، ص ٢٦.

(٢) المصدر السابق.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم.

(٤) بحار الانوار: ج ٧٣، ص ٣٠٧.

وكما أن «السخاء والشجاعة غرائز شريفة يضعها الله سبحانه فيمن أحبه وامتحنه»[1] فإن «الجبن والحرص والبخل غرائز يجمعها سوء الظن بالله»[2].

وقد يتساءل البعض من أين تنبع الشجاعة؟ وما هو مقدارها في الرجال؟

والجواب أن للشجاعة مصادر شتى. منها: «الهمّة العالية» لأن «شجاعة الرجل على قدر همّته»[3].

ومنها: «الحميّة» المترسخة في النفس لأن «على قدر الحميّة تكون الشجاعة»[4].

ومنها: الأنفة» فـ «قدر الرجل على قدر همته، وصدقه على قدر مروءته، وشجاعته على قدر أنفته»[5].

ومنها: السخاء بالنفس، والإباء من الذل، وطلب الذكر. فقد «جبلت الشجاعة على ثلاث طبائع، لكل واحدة منهن فضيلة ليست للأخرى: السخاء بالنفس. والأنفة من الذلّ، وطلب الذكر، فإن تكاملت في الشجاع: كان البطل الذي لا يُقام لسبيله،

---

(١) ميزان الحكمة: ج ٥، ص ٢٦.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٣) المصدر السابق.
(٤) ميزان الحكمة: ج ٥، ص ٢٧.
(٥) نهج البلاغة: الحكم ٤٧.

والموسوم بالإقدام في عصره، وإن تفاضلت فيه بعضها على بعض كانت شجاعته في ذلك الذي تفاضلت فيه أكثر وأشدّ إقداماً»[1].

ولكن متى تظهر شجاعة الرجال؟

في الادعاء، ربما لا يوجد من يعترف بالجبن. ولكن في المواجهة تظهر الحقائق. حيث إن «ثلاثة لا تعرف إلّا في ثلاثة مواطن: لا يعرف الحليم إلّا عند الغضب. ولا الشجاع إلّا عند الحرب. ولا الأخ إلّا عند الحاجة»[2].

ولعل ذلك هو السبب في أن الإمام علي عليه السلام الذي اقترن اسمه بكل صفات الفروسية، وامتزج ذكره مع الشجاعة كواحدة من أظهر وأشهر صفاته، لم يتحدّث كثيراً عن الشجاعة. لأنه عليه السلام كان يمارسها بالفعل، ولم يكن يلهج بذكرها فحسب. كما يفعل الكثيرون، فحديثه عن الشجاعة، هو مواقفه وأفعاله وممارساته، وهي أصدق حديث وأقوى كلام.

إن الشجاع يُعرف عند الحرب. وهكذا عرف الإمام. ففي كل موقف صعب كان هو العلم والشاخص. فهو العون في

---

(١) تحف العقول: ص ٢٣٧.

(٢) بحار الأنوار: ج ٧٨، ص ٢٢٩.

النوائب، والحاضر في الصعاب، والراية في المغازي، والرفيق في البأساء.. يؤمن حينما يكفر الآخرون، ويصمد حينما يهرب الآخرون، ويقاتل حينما يفرّ الآخرون. كرّار غير فرّار وتلك هي الشجاعة حقاً..

«وتدل أخباره ـ كما تدل صفاته ـ على قوةٍ جسدية بالغة في المكانة والصلابة على العوارض والآفات. فربّما رفع الفارس بيده فجلد به الأرض غير جاهد ولا حافل، ويمسك بذراع الرجل فكأنما أمسك بنفسه فلا يستطيع أن يتنفّس، واشتهر عنه أنه لم يُصارع أحداً إلّا صرعه، ولم يبارز أحداً إلّا قتله، وقد يزحزح الحجر الضخم لا يزحزحه إلّا رجال أشدّاء، ويحمل الباب الكبير الذي يعجز عن تحريكه الأشدّاء، ويصيح الصيحة فتنخلع لها قلوب الشجعان»[1].

وقد قيل عن ضرباته: «كانت لعلي عليه السلام ضربتان: إذا تطاول قدَّ، وإذا تقاصر قطَّ».

وقالوا «كانت ضرباته أبكاراً، إذا اعتلى قدَّ وإذا اعترض قطَّ، وإذا أتى حصناً هدّ».

وقالوا: «كانت ضرباته مبتكرات لا عواناً»[2].

---

(١) عبقرية الإمام علي عليه السلام: ص ١٥.

(٢) بحار الأنوار: ج ٤١، ص ٦٧.

«وكان إلى جانب قوته البالغة شجاعاً لا ينهض له أحد في ميدان مناجزة، فكان لجرأته على الموت لا يهاب قرناً من الأقران بالغاً ما بلغ من الصولة، ورهبة الصيت»[1].

لم يفر من معركة قط، وهو القائل: «استحيوا من الفرّ فإنه عار في الأعقاب ونار يوم الحساب»[2] و«إن في الفرار موجدة الله والذل اللازم»[3] «وأيم الله لئن فررتم من سيف العاجلة لا تسلموا من سيف الآخرة»[4].

وقد قيل له:

- لِمَ لا تشتري فرساً عتيقاً؟

فقال: «لا حاجة لي فيه، وأنا لا أفرّ ممّن كرّ عليّ، ولا أكرُّ على من فرّ منّي»[5]!.

وحقاً فإن الذي لا يهاب الموت لا يبالي في المواجهة، ويتمتع بشجاعة خارقة بينما ضعاف النفوس واليقين هم الجبناء الخائفون فإن «شدّة الجبن من عجز النفس، وضعف اليقين»[6].

---

(١) عبقرية الإمام علي عليه السلام: ص ١٦.
(٢) نهج البلاغة: الخطب ٦٦.
(٣) الفتوح: ج ٣، ص ٧٣.
(٤) نهج البلاغة: الخطب ١٢٤.
(٥) أمالي الصدوق: ص ١٠٢.
(٦) غرر الحكم ودرر الكلم.

ولقد كان الإمام قوياً في نفسه، عظيماً في يقينه، ولذلك كان شجاعاً في مواجهة الموت، وهو القائل في أواخر لحظات حياته: «والله ما فاجأني من الموت وارد كرهته، ولا طالع أنكرته، وما كنت إلّا كقارب ورد، وطالب وجد وما عند الله خير للأبرار»[1].

ومن كانت هذه صفته فلا يبالي بالموت، فقد روي «أن أمير المؤمنين كان يطوف بين الصفين، بصفين، في «غلالة» فقال له ولده الحسن عليه السلام: «ما هذا زيّ الحرب»!

فقال عليه السلام: «يا بني.. إن أباك لا يبالي وقع على الموت، أو وقع الموت عليه»[2].

وكان يقول: «والله لا أُبالي دخلت إلى الموت، أو خرج الموت إليّ»[3].

ويقول: «والله، لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أُمّه»[4].

وقال في الصبيحة التي قتل فيها:

اشدد حيازيمك للموت   فإن الموت لاقيكا
ولا تجزع من الموت   إذا حلّ بواديكا

(١) مروج الذهب: ج ٢، ص ٤٣٦.
(٢) بحار الأنوار: ج ٤١، ص ٢.
(٣) نهج البلاغة: الخطب ٥٥.
(٤) نهج البلاغة: الخطب ٥.

كما أضحكك الدهر كذاك الدهر يبكيكا[1]

ولقد رفض أكثر من مرة أن يتّخذ حارساً، بالرغم من أن خليفتين قبله كانا قد قُتلا فعلاً، وهما الخليفة الثاني «عمر بن الخطاب» والخليفة الثالث «عثمان بن عفان». وبالرغم من أنه كان يخوض حروباً داخلية، ولربما كان يتحول صاحبه خلال ليلة واحدة إلى عدوّه. وقد قتل فيما بعد على يد واحد من أمثال هؤلاء وهو الخارجي عبد الرحمن بن ملجم..

ومع ذلك لم يتّخذ حارساً. وحينما كان البعض يتبرّع لذلك كان يرفضه..

من ذلك ما روي أنه: «كان لعلي عليه السلام غلام اسمه قنبر، وكان يحبّ علياً حبًّا شديداً، فإذا خرج عليٌّ خرج على أثره بالسيف.

فرآه ذات ليلة فقال: يا قنبر ما لك؟

قال: جئت لأمشي خلفك، فإنّ الناس كما تراهم يا أمير المؤمنين، فخفت عليك.

قال: ويحك أمن أهل السماء تحرسني أم من أهل الأرض؟

قال: لا بل من أهل الأرض؟

---

(١) علي من المهد إلى اللّحد.

قال: إنّ أهل الأرض لا يستطيعون بي شيئاً إلّا بإذن الله عزّ وجلّ من السماء فأرجع فرجع»[١].

وفي معركة الجمل خرج إلى عدوّه للاحتجاج وهو حاسر فقال أصحابه: «ألا نحرسك»؟ فقال: «حرس آمرأً أجلُهُ».

فقالوا: «لا تخرج وأنت بقميص واحد وحاسر»!.

فقال: «لقد قاتلت مع النبي وأنا حاسر، أكثر مما قاتلت وأنا دارع. إنما أنا ذاهب إلى الزبير حواري رسول الله، وابن عمته»[٢]!!

وفي نهايات معركة «صفّين» قرّر بعض أصحابه أن يختاروا كل ليلة عشرة منهم يبيتون بالسلاح ساهرين على حراسته دون أن يستأذنوه.. ورآهم ذات ليلة فسألهم: «ما يجلسكم»؟ قالوا: «نحرسك يا أمير المؤمنين»: فقال ساخراً: «من أهل السماء»؟! ثم قال: «إنه لا يكون في الأرض شيء حتى يُقضى في السماء، وإنه ليس من الناس أحد إلّا وقد وكّل به ملكان يدفعان عنه فإذا جاء القدر خلّيا عنه، وإنه لا يجد عبد حلاوة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه»[٣].

* * *

(١) التوحيد: ص ٣٥٠.
(٢) علي إمام المتّقين: ج ١، ص ٢٧٠.
(٣) المصدر السابق: ج ٢، ص ٣٨٩.

ولقد ظهرت شجاعة الإمام مبكراً، وهو بعد في العاشرة من عمره، حينما نزل الوحي على رسول الله ووقفت قريش في وجه الرسالة، وبدأت تؤذي النبي بشتّى الوسائل، ومنها دفع الأطفال للاعتداء عليه، ورميه بالحجارة. فما كان من الإمام إلّا وقد نصّب نفسه حارساً أميناً لرسول الله، فكان إذا خرج، خرج معه وأيّما طفل من أطفال قريش يحاول إيذاء النبي كان علي يصرعه على الأرض ولربما يقضم أنفه، أو يعضّ أُذنه، فسمّوه «القضم» وخافوا منه خوفاً شديداً، فكانوا يبتعدون عن رسول الله، كلما كان معه «علي» ويتجرؤون عليه ﷺ إن لم يكن معه. .

وليلة الهجرة بات على فراش رسول الله ﷺ ليؤمّن تغطية خروج النبيّ حتى لا تعلم قريش بذلك، بعد أن عزموا على قتله. .

وفي المواقع التي شهدها مع رسول الله ـ فيما بعد ـ منذ ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[1]، كانت الشجاعة تتلبسه، فإذا هو الفارس الأول، والمحور الأساسي للمعارك، وصاحب الراية في كثير منها، وقائدها في أغلب الأحيان. .

«ولقد كان في نحو العشرين، يوم بدر. . وتقدم أقوى

---

(١) سورة الحج، الآية: ٣٩.

فرسان قريش يتحدّون المسلمين، ويستفزون محمداً، ويطلبون أقوى فرسانه للمبارزة.

فقد برز من صناديد المشركين عتبة وأخوه شيبة وابنه الوليد فقالوا: «من يبارز»؟. فخرج من المسلمين فتية من الأنصار.

فقال عتبة: «لا نريد هؤلاء، ولكن يبارزنا من بني أعمامنا من بني عبد المطلب».

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «قم يا حمزة، قم يا عبيدة، قم يا علي».

فبرز حمزة لعتبة فقتله، وبرز علي للوليد بن عتبة فقتله، وقتل عبيدة بن الحارث شيبة بمساعدة حمزة وعلي، بعد أن قطع شيبة رجل عبيدة.

ونزلت في ذلك الآية الكريمة: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1]. فالذين آمنوا هم حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث. و«المفسدون في الأرض» هم عتبة وشيبة والوليد بن عتبة»[2].

وعندما التحم الجمعان فعل حمزة وعلي في جيش

---

(١) سورة ص، الآية: ٢٨.
(٢) علي إمام المتّقين: ج ١، ص ٤١.

المشركين الأفاعيل، كما أبلى المجاهدون في سبيل الله بلاء حسناً.

قال علي: «قاتلت يوم بدر قتالاً ثم جئت إلى النبي ﷺ فإذا هو ساجد يقول: يا حيّ يا قيّوم. ثم ذهبت فقاتلت ثم جئت فإذا النبي ساجد يقول: يا حيّ يا قيّوم. ففتح الله عزّ وجلّ عليه».

وفي يوم بدر قتل علي أصحاب ألوية قريش جميعاً، فأبصر الرسول ﷺ جماعة من مشركي قريش فقال لعلي: «اِحمل عليهم» فحمل عليهم ففرّق جمعهم، وفرّوا، وقتل منهم سيد بني جمح. ثم أبصر الرسول ﷺ جماعة أخرى من المشركين فقال لعلي: «اِحمل عليهم». فحمل عليهم ففرّقهم وقتل منهم سيد بني عامر بن لؤي.

وفي يوم بدر قتل علي كثيراً من زعماء قريش[١].

* * *

أمّا في يوم أُحد فقد ظهر في شجاعة الإمام، وهو لا يزال فتىً يافعاً، أكثر من كل الصحابة، ولولا الإمام فلربّما كانت المعركة تنتهي إلى مقتل النبي ﷺ وهزيمة المسلمين جميعاً بل إنه سرت إشاعة مقتله ﷺ فعلاً مما دفع الكثير من المسلمين

---

(١) المصدر السابق: ص ٤٢.

إلى الهرب بينما وقف الإمام، وقفة الرجال. يقول الإمام عن ذلك ـ «لحقني من الجزع ما لا أملك نفسي، وكنت أمامه أضرب بسيفي، فرجعت أطلبه فلم أره، فقلت: ما كان رسول الله صلى الله عليه وآله ليفرَّ وما رأيته في القتلى وأظنّه رفع من بيننا، فكسرت جفن سيفي وقلت في نفسي: لأُقاتلنّ بهِ حتّى أُقتل، وحملت على القوم، فأفرجوا فإذا أنا برسول الله صلى الله عليه وآله قد وقع على الأرض مغشياً عليه، فوقفت على رأسه، فنظر إليّ وقال: ما صنع الناس يا عليّ؟

قلت: كفروا يا رسول الله، ولّوا الدبر من العدوّ وأسلموك».

«ثم إنّه أبصر رسول الله صلى الله عليه وآله كتيبة معاوية فقال لعلي: «اِحمل عليهم»، فحمل عليهم وفرّق جمعهم، وقتل عمرو بن عبد الله الجمحيّ؛ ثم أبصر كتيبة أخرى فقال لعلي: ردّ عنّي، فحمل عليهم ففرّق جماعتهم، وقتل شيبة بن مالك العامريّ، ثم رأى كتيبة أُخرى فقال: اِحمل عليهم، فحمل عليهم فهزمهم، وقتل هاشم بن أُميّة المخزوميّ، فقال جبرئيل: يا رسول الله إنّ هذه لهي المواساة، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّه منّي وأنا منه، فقال جبرئيل: وأنا منكما، فسمعوا صوتاً يقول: لا سيف إلّا ذو الفقار ولا فتى إلّا عليّ»[1].

(١) مناقب آل ابي طالب: ج ١، ص ٥٩٢.

ولقد أصابته في هذه المعركة ست عشرة ضربة، فظلّ يطعن ويتلقّى الطعنات، فيعالج ويعود للطعان، وخرج إليه طلحة بن أبي طلحة صاحب لواء المشركين فقال: «يا أصحاب محمد تزعمون أن الله يعجلنا بأسيافكم إلى النار، ويعجلكم بأسيافنا إلى الجنة فأيكم يبرز إليّ»؟.

فبرز إليه علي بن أبي طالب وقال: «والله لا أفارقك حتى أُعجِلك بسيفي إلى النار». فٱختلفا ضربتين، فضربه علي فسقط إلى الأرض جريحاً، وبانت عورته. فتوسّل إلى علي قائلاً: «أنشد الله والرحم يا ابن العم». فٱنصرف علي عنه.

فقال المسلمون: «يا علي هلا أجهزت عليه»؟. فقال: «ناشدني الله والرحم! ولن يعيش». وظل طلحة ينزف حتى مات من ساعته.

وعاد من أحد بصحبة الرسول ﷺ، وسيفاهما يقطران دماً، فصليًا بالمسجد، ثم دفعا بسيفيهما إلى فاطمة فغسلت عنهما الدماء. وعاد الرسول إلى بيته[1].

* * *

وفي غزوة الخندق، التي جنّد المشركون لها كل قواهم، مما اضطر النبي ﷺ أن يتّخذ ـ على غير عادته ـ موقف الدفاع لا الهجوم، واجه الإمام علي عليه السلام الموقف بشجاعة نادرة. .

(١) علي إمام المتّقين: ج ١، ص ٤٢.

حيث إن فارس الجزيرة العربية حينذاك «عمرو بن ودّ العامري» «الذي كان يُقوّم بألف رجل»[1] وهو «مقاتل غادر فاتك من رؤوس المشركين»[2] كان قد عبر الخندق الذي حفره المسلمون، وبدأ يطلب البراز قائلاً:

ـ «ألا رجل يبرز؟ أين جنتكم التي زعمتم أنكم داخلوها إن قتلتم؟

وكان رسول الله، يقول لأصحابه:

ـ «من يأتيني برأس عمرو أضمن له الجنة؟

ولكن المسلمون يُحجمون، لهيبة الموقف من جهة، ولما يعرفونه من «عمرو» من القوة والشجاعة والبأس من جهة أُخرى. .

والوحيد الذي وقف قائلاً: «أنا يا رسول الله. .» كان علي عليه السلام:

فقال له النبي في المرة الأولى:

ـ «اِجلس يا علي، إنه عمرو. .

فجلس. وكرّر عمرو نداءه:

ـ «ألا رجل يبرز؟ يا محمد أُخرج إليّ؟ هل من مبارز؟

وقام النبي مرة أُخرى يقول لأصحابه:

---

(١) عبقرية الإمام علي عليه السلام: ص ١٦.

(٢) علي إمام المتّقين: ج ١، ص ٤٢.

ـ «من لعمرو أضمن له الجنّة؟

ويقول علي عليه السلام: «أنا يا رسول الله..» بينما الآخرون كأن على رؤوسهم الطير.. فيقول له النبيّ: «اِجلس، إنه عمرو»!.

ويصرخ «عمرو»:

ـ «من يبارز؟ من يأتيني منكم حتى أرسله إلى الجنة؟!

وينشد:

ولقد بححت من النداء بجمعكم هل من مبارز

ووقفت إذ جبن الشجاع بموقف البطل المناجز

إنّي كذلك لم أزل متسرّعاً نحو الهزاهز

إنّ الشجاعة والسماحة في الفتى خير الغرائز[1]

فيكرّر النبي صلى الله عليه وآله للمرة الثالثة قوله:

ـ «من يأتيني برأس عمرو أضمن له الجنة؟».

فيقول علي عليه السلام «أنا يا رسول الله..».

فيقول له النبي صلى الله عليه وآله: «اِجلس، إنه عمرو».

فيقول علي عليه السلام: «..وأنا علي»!

فيأذن له النبي صلى الله عليه وآله ويعمّمه بعمامته، فيخرج الإمام إلى عمرو، مهرولاً وهو ينشد قائلاً:

لا تعجلنّ فقد أتاك مجيب صوتك غير عاجز

---

(١) بحار الانوار: ج ٤١، ص ٨٩.

ذو نيّة وبصيرة والصبر منجي كلّ فائز
إنّي لأرجو أن أقيم عليك نائحة الجنائز
من ضربة نجلاء يبقى ذكرها عند الهزاهز[1]

وقد وقف النبي ﷺ ينظر إلى عليّ، وهو يقول: «خرج الإيمان كلّه إلى الشرك كلّه».

وحينما تواجها قال له علي: «يا عمرو قد كنت عاهدت الله لقريش ألّا يدعوك رجل إلى إحدى خلّتين إلّا قبلت منه إحداهما». فقال عمرو: «أجل».

فقال له علي: «فإني أدعوك إلى الله عزّ وجلّ وإلى رسوله، وإلى الإسلام. فقال عمرو: «لا حاجة لي في ذلك».

فقال له علي عليه السلام: «فإنّي أدعوك إلى البراز».

فقال: «من أنت»؟.

قال علي ـ ولم يزد ـ: «أنا علي»:

قال عمرو: «ابن عبد مناف»؟

قال علي: «ابن أبي طالب».

قال عمرو: «يا ابن أخي.. من أعمامك من هو أسنّ منك فلم برزت أنت؟».

وأضاف: «أما أمن ابن عمك حيث أرسلك إليّ، أن

---

(١) بحار الأنوار: ج ٤١، ص ٨٩.

أشيلك برمحي هذا، بين السماء والأرض، لا أنت حيّ ولا ميّت؟».

فقال علي عليه السلام: «أرسلني ابن عمي وهو يعلم إن قتلتني كنت أنا في الجنة وأنت في النار، وإن قتلتك كنت أنت في النار وأنا في الجنة».

قال عمرو: «كلتاهما لك يا علي؟ تلك إذن قسمة ضيزى!».

وأضاف: «كان أبوك نديماً لي، وإني أكره أن أُهريق دمك».

فقال علي عليه السلام: «ولكني، والله لا أكره أن أُهريق دمك»..

. فغضب عمرو، وقال: «ما كنت أظن أن أحداً من العرب يرومني على ذلك، ثم أهوى إليه بسيفه الذي كان يصفه البعض بقولهم كأنه شعلة من نار»[1].

وٱستقبل عليّ الضربة بدرقته، فقدّها السيف وأصاب رأسه، ثم ضربه عليّ على حبل عاتقه، فسقط ونهض، ثم سقط ونهض وثار الغبار، فما انجلى إلّا عن عمرو صريعاً وعلي عليه السلام يجأر بالتكبير[2].

---

(١) عبقرية الإمام علي عليه السلام: ص ١٧.

(٢) بحار الانوار: ج ٤١، ص ٩٠. علي إمام المتّقين: ج ١، ص ٤٣.

وسمع المسلمون صوته فصرخ رسول الله قائلاً:

ـ «ضربة علي يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين»[1].

«وكأنما كانت شجاعته هذه القضاء الذي لا يؤسى على مصابه، لأنه أحجى المصائب، وأقلّها معابة ألّا يُدفع، فكانت أخت عمرو تقول في التأسّي بعد موته:

لو كان قاتل عمرو غير قاتله بكيته أبداً ما دمت في الأبد
لكنّ قاتله مَن لا نظير له وكان يدعى أبوه بيضة البلد

فكانت شجاعته عليه السلام من الشجاعات النادرة التي يشرّف بها من يصيب بها، ومن يُصاب»[2].

وذكر بعض المؤرخين أن علياً حينما قطع رجل عمرو رماها نحو معسكر المشركين فخاف من هيبتها رجلان ووقعا في الخندق!

وقال الطبري: ووجدوا «نوفلاً» في الخندق فجعلوا يرمونه بالحجارة، فقال لهم: «قتلة أجمل من هذه» فنزل إليه علي عليه السلام فطعنه في ترقوته بالسيف حتى أخرج من مراقه.. ثم خرج إليه منية بن عثمان العبدري، وخاف وهرب. فأنشأ علي عليه السلام يقول:

---

(١) الغدير للعلامة الأميني.

(٢) عبقرية الإمام علي عليه السلام: ص ١٨.

وكـانـوا عـلـى الإسـلام إلـبـاً ثـلاثـة
وقد فرّ من تحت الثلاثة واحد[1]

* * *

وفي غزوة خيبر يروي أبو رافع مولى الرسول قال: «خرجنا مع علي حين بعثه رسول الله ﷺ برايته، فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم، فضربه رجل من يهود فطرح ترسه من يده، فتناول علي باباً كان عند الحصن، فتَرَّس به نفسه، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه، ثم ألقاه من يده حين فرغ، فلقد رأيتُني في نفر مع سبعة أنا ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقدر»![2].

كان على رأس هذا الحصن أحد شجعان يهود واسمه مرحب، وهو الذي طرح الترس من يد علي، فأنقضّ عليه عليه السلام وبارزه متحصناً بباب الحصن الثقيل، وطالت المبارزة، حتى أهوى علي بسيفه على وجه مرحب، وسقط الحصن وأستأسر من فيه، وغنم منه المسلمون مغانم كثيرة.

من أجل ذلك صاح نفر من المسلمين: «لا فتى إلّا علي»!.. وكان هذا النداء يرجّ الآفاق كلما اشتبك في قتال، فيلهب منه الحماسة ويثير الحمية..

---

(١) بحار الأنوار: ج ٤١، ص ٩.
(٢) علي إمام المتّقين: ج ١، ص ٤٤.

وقد شهدت أم سلمة (أم المؤمنين) غزوة خيبر فقالت: «وسمعت وقع سيف علي بن أبي طالب في أسنان مرحب»!.

وقال علي بن أبي طالب: «والله ما قلعت باب خيبر بقوة جسدية ولكن بقوة ربانية».

* * *

وفي يوم حُنين كان علي بن أبي طالب من أشدّ الناس قتالاً بين يدي الرسول.

وعندما حاصر الرسول بني قريظة، وكان اللواء بيد علي صاح يستحثّ جنده: «يا كتيبة الإيمان». ثم تقدّم هو والزبير بن العوام وقال: «والله لأذوقنّ ما ذاق حمزة أو لأفتحنّ حصنهم».

وفتح الله الحصن على يديه الكريمتين!.

* * *

وعلى كل حال فإن الشجاعة في الإمام، كانت من أبرز صفاته، وكان يوصي بها بنيه أن لا يخافوا في الله أحداً، كما كان يوصي الناس بأن لا يستشيروا جباناً. يقول عليه السلام: «لا تشركنّ في رأيك جباناً يضعفك عن الأمر، ويعظم عليك ما ليس بعظيم»[1]، وكان يوصي ولاته بأهل الشجاعة خيراً، ويقول عليه السلام: «ثم ٱلصق بذوي المروءات والأحساب، وأهل

(١) غرر الحكم ودرر الكلم.

البيوتات الصالحة، والسوابق الحسنة، ثم أهل النجدة والشجاعة والسخاء والسماحة فإنهم جماع من الكرم»[1].

* * *

ولقد كان الإمام بالإضافة إلى شجاعته النادرة، مثيراً للحماسة، مديراً للمعارك مشاركاً فيها على الرغم من كبر سنّه فيما بعد الرسول، أيام خلافته وكان يوصي أصحابه بوصايا الشجاعة والثبات.

ففي صفّين نظم الإمام عليه السلام جيشه، ثم قال لأصحابه:

«إن الله يحب الّذين يقاتلون في سبيله صفّاً كأنهم بنيان مرصوص. فسووا صفوفكم كالبنيان المرصوص وقدِّموا الدارع، وأخّروا الحاسر، وعضوا على الأضراس، فإنه أنبى للسيوف.. وغضوا الأبصار، فإنه أربط للجأش، وأسكن للقلوب. وأميتوا الأصوات، فإنه أطرد للفشل، وأولى بالوقار. راياتكم فلا تميلوها ولا تزيلوها ولا تجعلوها إلّا بأيدي شجعانكم. واستعينوا بالصدق والصبر، فإنه بعد الصبر ينزل النصر».

وبدأت المعركة، واستحر القتال.. وما يسمع غير وقع الحديد على الحديد.

(١) نهج البلاغة: الكتب ٥٣.

وكان الحسن والحسين ومحمد بنو الإمام معه، والنبل يمرّ بين عاتقه ومنكبه، فلما دنا منه أهل الشام وأطلقوا عليه السهام والنبال يريدون قتله، قال له الحسن أكبر بنيه: «ما ضرّك لو سعيت حتى تنتهي إلى هؤلاء القوم من صحبك فتلقوا بجمعكم أهل الشام؟» فقال: «يا بني إن لأبيك يوماً لا يعدوه ولا يبطىء به عند السعي، ولا يعجل به إليه المشي، إن أباك والله لا يبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه»![1].

ولربّما كان الإمام في مثل هذه المواقف بلا مثيل، حيث إن رئيس الدولة يشترك في الحرب، بل ويحمي العشيرة، ولا يدع العشيرة تحميه.

فقد رأى الإمام ـ بعد أن استعر الحرب، في صفّين، واشتجرت القنا واشتبكت الرماح وتقارعت السيوف والحراب، رأى ابنه الحسن عليه السلام في حومة الوغى، فقال: «إبعدوا عني هذا الغلام لا يهدني».

وكان الإمام قد نهى بنيه وبني عمه عن الدعوة إلى المبارزة، فكان إذا دعي أحد منهم بارز الإمام عنه.. هكذا بارز عن ابن عمه عبد الله بن عباس وصرع متحديه، وعرض أن يبارز عن ابنه محمد ابن الحنفية، ولكن متحديه ولّى.

---

(١) علي إمام المتّقين: ج ٢، ص ٥٩.

إنّه عليه السلام يحمي العشيرة ولا يدع العشيرة تحميه. . كما ضنّ بعدد من كبار الصحابة من غير المقاتلين من أهل الزهادة والنسك فمنعهم من القتال، وقاتل هو عنهم، وأكتفى بصحبتهم يعظون المقاتلين، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويمجدون الجهاد في سبيل الله[1].

* * *

وكم ظهرت شجاعته في المواقف المختلفة؟ والمشاهد الصعبة؟ وكم شارك شخصياً في القتال، وهو رئيس الدولة؟

يقول جابر بن نمير الأنصاري: «لكأنّي أسمع علياً بعد ليلة الهرير بعد أن طحنت الرحى بأمر عظيم تشيب منه النواصي، حتّى استقلّت الشمس وقام قائم الظهيرة وعليّ عليه السلام يقول لأصحابه:

حتى متى نخلّي بين هذين الحيّين؟ قد فنينا وأنتم وقوف تنظرون، أما تخافون مقت الله؟ ثمَّ أنفتل إلى القبلة ورفع يديه إلى الله عزّ وجلّ.

ثمّ نادى: يا الله يا رحمن يا واحد يا صمد يا الله يا إلٰه محمّد، إليك اللَّهُمّ نقلت الأقدام، وأفضت القلوب، ورفعت الأيدي، ومدّت الأعناق، وشخصت الأبصار، وطلبت

(١) المصدر السابق: ص ٩٦.

الحوائج، اللّهُمَّ إنّا نشكو إليك غيبة نبيّنا، وكثرة عدوّنا، وتشتّت أهوائنا، ربّنا ٱفتح بيننا وبين قومنا بالحقّ وأنت خير الفاتحين: سيروا على بركة الله» ثمّ نادى: «لا إله إلّا الله والله أكبر كلمة التقوى».

«فلا والذي بعث محمداً نبياً ما سمعنا برئيس قوم منذ خلق السماوات والأرض أصاب بيده في يوم واحد ما أصاب، إنّه قتل فيما ذكر العادّون زيادة على خمسة مائة من أعلام العرب، يخرج بسيفه منحنياً فيقول: معذرة إلى الله وإليكم من هذا، لقد هممت أن أفلقه ولكن يحجزني عنه أنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «لا سيف إلّا ذو الفقار ولا فتى إلّا عليّ» وأنا أُقاتل به دونه».

فكنّا نأخذه ونقوّمه، ثم يتناوله من أيدينا فيتقحّم به عرض الصفّ، فلا والله ما ليث بأشدّ نكاية منه في عدوّه»[1].

وبرز للإمام أربعة من أبطال الشام فصرعهم الواحد بعد الآخر. . واشتبك الجيشان، وتساقط الناس صرعى، وعزّ ذلك على الإمام. فنادى بأعلى صوته: «ويحك يا معاوية! اِبرز إليّ ولا تفن العرب بيني وبينك»!.

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١، ص ٢٢٠.

فقال له عمرو بن العاص: «اغتنمه وهو مجهد فإنه قد أثخن بقتل هؤلاء الأربعة»!.

فقال له معاوية: «والله لقد علمت أن علياً لم يُقْهَرْ قط. إنما أردت قتلي لتصيب الخلافة بعدي»!.

واشتدّ القتال من جديد، والإمام يدعو الله: «اللَّهُمَّ إليك رُفِعَت الأبصار ودَعَت الألسن، وأَفْضَت القلوب.. اللَّهُمَّ أعنَّا عليهم بفتح تعجله، ونصر تعزّ به سلطان الحق وتظهره».

ثم قال لأصحابه: «قال الله تعالى لقوم: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1]، وأيم الله لئن فررتم من سيف الدنيا لا تسلمون من سيف الآخرة»[2].

وتضرّجت السيوف والحراب من مهج المسلمين، وتطايرت الرؤوس وسقط القتلى.

فصاح الإمام مرة أخرى: «يا معاوية» فقال معاوية: «اِسألوه ما شأنه» قال الإمام: «أحب أن يظهر لي فأكلمه كلمة واحدة» فبرز معاوية ومعه عمرو بن العاص، فقال عليه السلام:

(١) سورة الأحزاب، الآية: ١٦.
(٢) علي إمام المتّقين: ج ٢، ص ٧٦.

«يا معاوية ويحك! علام تقتيل الناس بيني وبينك؟ أُبرز إليّ فأيّنا يقتل صاحبه فالأمر له».

فالتفت معاوية إلى عمرو فقال: «ما ترى أبا عبد الله؟ أأبارزه»؟

فقال عمرو «اعلم أنه إن نكلت مرة أخرى لم تزل سبّة عليك وعلى عقبك ما بقي عربي».

قال معاوية: «يا عمرو بن العاص، ليس مثلي يخدع عن نفسه. والله ما بارز ابن أبي طالب رجلاً قطّ إلّا سقى الأرض من دمه. والله إن تريد إلّا أن أقتل فتصيب الخلافة بعدي».

ثم انصرف معاوية راجعاً ومعه عمرو، فاختبأ في آخر الصفوف.

فضحك الإمام[1].

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يطلب فيها الإمام علي عليه السلام من معاوية، أو أي عدو آخر من أعدائه البراز لمواجهته. بل تكرّر ذلك مع معاوية بالذات عدّة مرات. . وفي كل مرة كان هذا الأخير يتهرّب منه، للفارق الكبير بين شجاعة الإمام، وبينه. .

فمثلاً حينما رأى ابن الصباح وهو من رؤساء أهل الشام

(١) علي إمام المتّقين: ج ٢، ص ٧٦.

فداحة الخسائر في الرجال، وقف يخاطب أصحابه قائلاً: «والله إني يا أهل الشام لأظن أن الله قد آذن بفنائكم، ويحكم! خلوا بين علي ومعاوية فليقتتلا، فأيهما قتل صاحبه ملنا معه».

فلما علم عليٌّ بذلك قال: «والله ما سمعت بخطبة منذ وردت الشام أنا بها أشدّ سروراً من هذه».

أما معاوية فإنه لمّا سمع ابن الصباح، اندسّ في آخر الصفوف، واختبأ، وقال لمن حوله: «إني لأظنّ ابن الصباح قد أصيب في عقله»! فقالوا له: «والله إنه لأفضلنا ديناً ورأياً وبأساً، ولكنك تكره مبارزة علي»[1].

* * *

ومرة أخرى لما رأى الإمام عليٌّ كثرة الضحايا من الجانبين، ووجد معاوية مصمماً على القتال، خشي فناء العسكرين فنادى: «يا معاوية. علام يذهب الناس؟ على ملك إن نلتَه كان لك دونهم وإن نلتُه أنا كان لي دونهم؟ أُبرز إليّ ودعِ الناس فيكون الأمر لمن غلب».

فقال عمرو بن العاص: «أنصف الرجل يا معاوية».

فقال معاوية: «ما أراك إلّا مازحاً».

---

(١) المصدر السابق: ص ٩٨.

فقال عمرو: «والله ما أدري أشجاع أنت أم جبان»؟ قال معاوية:

شجاع إذا ما أمكنتني فرصة   فإن لم تكن لي فرصة فجبان

ورفض معاوية أن يبارز عليًا.. وتوقفت الحرب عندما جاء الليل..

ومضى الإمام إلى معسكر القرّاء، فلما رأوه بلا خوذة ولا دروع قالوا مشفقين: «يا أمير المؤمنين أتقتل أهل الشام بالغداة وتخرج في العشي بإزار ورداء»؟! فقال: «أبالموت أُخَوّف؟! والله ما أبالي أسقط عليَّ الموت أم سقطت عليه»![1].

وحينما حرّض معاوية عمرو بن العاص على مبارزة علي، قال له عمرو: «بارزه أنت فتكون على إحدى الحسنيين، إما أن تقتله فتكون قد قتلت قاتل الأقران وتزداد شرفاً إلى شرفك، وإما أن يقتلك فتكون قد اُستعجلت مرافقة الشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً».

فقال معاوية: «يا عمرو! الثانية شرّ من الأولى».

وكان معاوية واقفاً على تل يشاهد المعركة وعليٌّ يفلق الهامات، وما من أحد يقوى عليه، والصفوف تنهزم أمامه هو وفرسان ربيعة وهمدان، وجيش الشام ينهار، وصناديده يفرّون يلتمسون النجاة من عليّ وأصحابه!!

---

(١) المصدر السابق: ص ٦٥.

فقال معاوية وهو يتأمل كلَّ ذلك: «تباً لهؤلاء الرجال وقبحاً! أما فيهم من يقتل علياً مبارزة أو غيلة»؟ فقال له الوليد بن عقبة: «أبرز إليه أنت فإنك أولى الناس بمبارزته»:

فقال معاوية: «والله لقد دعاني إلى البراز حتى استحييت من قريش! إني والله لا أبرز إليه. وما جُعِلَ العسْكرُ بين يَدَي الرئيس إلّا وقاية له»[1].

وبمقدار ما كان الإمام شجاعاً، وصامداً، وصابراً على الشدائد، فإنّه كان يطلب من أصحابه الشجاعة والصمود حتى بعد موته.. فقد ذكر أحد أصحابه قائلاً:

«كنّا في بيت مع علي عليه السلام ونحن خواصّه، فالتفت إلينا فلم بنكر منّا أحداً، فقال: إنّ هؤلاء القوم سيظهرون عليكم فيقطعون أيديكم ويسملون أعينكم» فقال رجل منّا: وأنت حيّ يا أمير المؤمنين؟

فقال: «أعاذني الله من ذلك».. فالتفّت فإذا واحد يبكي.

فقال له: «يا ابن الحمقاء أتريد باللّذات في الدنيا الدرجات في الآخرة؟ إنّما وعد الله الصابرين»[2].

---

(١) علي إمام المتّقين: ج ٢، ص ٨٨.
(٢) بحار الانوار: ج ٤١، ص ١٣٢.

قضاء حوائج الناس

«إن لله عباداً يختصّهم بالنعم لمنافع العباد، فيقرّها في أيديهم ما بذلوها، فإذا منعوها نزعها منهم، ثم حوّلها إلى غيرهم»[1].

وهذا يعني أن «من كثرت نعم الله عليه كثرت حوائج الناس إليه، فمن قام لله بما يجب فيها عرّضها للدوام والبقاء، ومن لم يقم فيها بما يجب عرّضها للزوال والفناء»[2].

فقضاء حوائج الناس ليس مجرد عملٍ من أعمال الخير التي يجوز للناس أن يتركوه، بل هو واجب لا بد من أدائه.. ذلك أنه ضرورة لبقاء المجتمع وبناء الحضارة، لأنّ «قوام الدين والدنيا بأربعة: عالمٍ مستعملٍ علمه، وجاهل لا يستنكف أن يتعلّم، وجواد لا يبخل بمعروفه، وفقير لا يبيع آخرته

(١) نهج البلاغة: الحكم ٤٢٥.
(٢) نهج البلاغة: الحكم ٣٧٢.

بدنياه، فإذا ضيّع العالم علمه، استنكف الجاهل أن يتعلّم، وإذا بخل الغني بمعروفه، باع الفقير آخرته بدنياه»[1].

وكما يجب أن نترك الشر، فلا بد أن نفعل الخير «فإذا رأيتم خيراً فأعينوا عليه، وإذا رأيتم شراً فاذهبوا عنه، فإن رسول الله كان يقول: يا بن آدم! إعمل الخير، ودع الشر، فإذا أنت جواد قاصد[2] «فليس لما وعد الله من الخير ترك ولا فيما نهى عنه من الشر مرغب»[3].

وفي الحقيقة فإن إغاثة الملهوف، والسعي في الخيرات، ورفع الحيف عن المظلومين وقضاء حوائج الناس هي من صفات أهل المروءة، وطلّاب الحق، وصنّاع المعروف، ولها ثواب عظيم عند الله وعلى تركها يترتّب عقاب شديد. . . «فإن من أحب عباد الله إليه عبداً لا يدع للخير غاية إلّا أمّها، ولا مظنّةً إلّا قصدها»[4] و«لا خير في الدنيا إلّا لرجلين: رجل أذنب ذنوباً فهو يتداركها بالتوبة، ورجل يسارع في الخيرات»[5] فـ «الماشي في حاجة أخيه كالساعي بين الصفا

---

(١) المناقب، للخوارزمي: ص ٢٦٦.
(٢) تفسير العياشي: ج ٢، ص ٢٦٢.
(٣) النهاية: ج ٢، ص ٥١٠.
(٤) نهج البلاغة: الخطب ٨٧.
(٥) العقد الفريد: ج ٤، ص ٧٤.

والمروة»[1] و«من قضى لأخيه المؤمن حاجة قضى الله له يوم القيامة مائة ألف حاجة»[2] و«من أغاث أخاه المؤمن اللّهفان اللهثان عند جهده، فنفّس كربته، وأعانه على نجاح حاجته كتب الله تعالى له بذلك اثنتين وسبعين رحمة من الله، يعجّل له منها واحدة يصلح بها أمر معيشته، ويدّخر له إحدى وسبعين رحمة لأفزاع يوم القيامة وأهواله»[3]. و«من نفّس عن مؤمن كربةً، نفّس الله عنه كرب الآخرة وخرج من قبره وهو ثلج الفؤاد»[4] و«من سعى في حاجة أخيه المؤمن فكأنما عبد الله تسعة آلاف سنة صائماً نهاره، قائماً ليله»[5].

أمّا إذا امتنع عن ذلك «وهو يقدر عليها من عنده أو من عند غيره، حشره الله يوم القيامة، مغلولة يده إلى عنقه، حتى يفرغ الله من حساب الخلق»[6] لأنه: «ما من مؤمن يخذل أخاه، وهو يقدر على نصرته، إلا خذله الله في الدنيا والآخرة»[7]و«أيما رجل مسلم أتاه رجل مسلم في حاجة وهو

(١) بحار الأنوار: ج ٧٦، ص ٣٦٧.
(٢) بحار الأنوار: ج ٧٤، ص ٣٢٢.
(٣) جامع السعادات: ج ٢، ص ٢٣٣.
(٤) المصدر السابق.
(٥) ميزان الحكمة: ج ٢، ص ٥٣٧.
(٦) بحار الأنوار: ج ٧٤، ص ٢٨٧.
(٧) بحار الأنوار، ج٧٤، ص٢٨٧.

يقدر على قضائها فمنعه إياها عيّره الله يوم القيامة تعييراً شديداً، وقال له: أتاك أخوك في حاجة ـ قد جعلتُ قضاءها في يدك ـ فمنعته إياها، زهداً منك في ثوابها؟! وعزّتي لا أنظر إليك في حاجة، معذباً كنت أو مغفوراً»[1].

ثم إن على الإنسان أن يقوم شخصياً بعمل الخير، وإغاثة الملهوف، ورفع حاجات الناس، وخاصة رئيس الدولة، فلا يجوز أن يكتفي بعمل الموظفين والمسؤولين وحدهم لأنه كلما كان لامرىء موقع عظيم كانت مواقفه قدوة للآخرين، فهو من جهة يكسب الثواب كفرد، وهو كمسؤول يتحوّل إلى نموذج في عمل الخير. .

هكذا يجب أن يكون قائد المسلمين وأميرهم. .

وهكذا كان الإمام علي عليه السلام فقد تعوّد في الحرب والسلام، أن يأخذ بيد من يسقط أمامه، أو بالقليل يدعه فلا يجهز عليه! . كان شعاره: «أحسن كما تحب أن يُحسن الناس إليك. ومن ظنّ بك خيراً فصدق ظنّه».

أمّا إغاثة الملهوف، والرفق بالضعيف، والنجدة، والعطف على المستعطف. . . فكل أولئك كانت خصائص

---

(١) بحار الأنوار: ج ٧٥، ١٧٤.

فتوته، وأخلاقه التي لابسها ولابسته حتى أوشكت أن تكون خليقة لا تخلقاً، وطبعاً لا تطبعاً!..

كان يقول لمن حوله: «أعينوا الضعيف، وٱنصروا المظلوم، وتعاونوا» ويقول: «البغي والزور يزريان بالمرء» ويقول: «الفقر منقصة للدين داعية للمقت». ويقول: «من كفارات الذنوب العظام إغاثة الملهوف والتنفيس عن المكروب»[1].

ولقد كاد بعض هذه الفضائل أن يورده موارد الحتوف، في مواطن كثيرة مما سيستقبله من الحوادث والرجال.. ولكنه ما نبا بهاتيك الفضائل، ولا نبت عنه![2].

كان يفعل الخير، ويوصي أصحابه بفعله، فيقول لكميل ابن زياد:

«يا كميل.. مُرْ أهلك أن يروحوا في كسب المكارم، ويُدلجوا في حاجة من هو نائم، فوالذي وسع سمعه الأصوات، ما من أحد أودع قلباً سروراً، إلّا وخلق الله له من ذلك السرور لطفاً، فإذا نزلت به نائبة جرى إليها كالماء في ٱنحداره حتى يطردها عنه كما تُطرد غريبة الإبل»[3].

---

(١) نهج البلاغة: الحكمة ٢٣٠.
(٢) علي إمام المتّقين: ج ١، ص ٤٨.
(٣) ربيع الأبرار: ج ١، ص ٢٠٦.

ولقد كانعليه‌السلام حاكماً على خمسين دولة، ومع ذلك كان يخرج إلى الطرقات يبحث عن الخير ليفعله، وعن الملهوف ليسعفه، وعن المظلوم لينصره، وعن المحتاج ليسدي إليه، وعن السائل ليعطيه . .

روي أن سعيد بن القيس الهمداني رآه في شدّة الحرّ، في فناء حائط، فقال له :

ـ «يا أمير المؤمنين (أتخرج) بهذه الساعة؟» .

فقالعليه‌السلام : «ما خرجت إلّا لأعين مظلوماً أو أُغيث ملهوفاً»[1] .

فهو يبحث عن الملهوف، وليس ينتظر حتى يأتيه إلى داره، مع ألف حاجب وحاجب كما يفعل حكّام الجور عادةً . .

يقول المؤرخون إن أمير المؤمنين كان يأتي السوق كل يوم يصنع ما تعوّد أن يصنعه : يعين الحمّال على حمولته، ويرشد الضالّ، ويعظ التجّار . . وينصح من يجده في السوق ممّن يلون أمراً من أُمور المسلمين (أي الموظفين والمستخدمين) ألّا يقبلوا الهدايا من أهل السوق، ولا من أحد من الرعية، ويحتجّ

---

(١) الاختصاص: ص ١٥٦.

بالحديث الشريف: «من استعملناه على عمل فرزقناه رزقاً (راتباً)، فأخذ أكثر من رزقه فهو غلول (رشوة)»[1].

ولم يكن بين الإمام وبين الناس أستار وحجاب، كان يمشي في السوق، يحادث الناس، ويسألهم ويسألونه، وينصح التجّار.. ويقول لهم: «بيعوا ولا تحلفوا، فإن اليمين تنفق السلعة وتمحق البركة» روى نافع بن أبي مطر قال: «خرجت من مسجد الكوفة فإذا رجل ينادي من خلفي: ارفع إزارك فإنه أنقى لثوبك، وأتقى لك، وخذ من رأسك إن كنت مسلماً».

فمشيت خلفه وهو مؤتزر بإزار ومرتد برداء ومعه الدرة (عصا صغيرة)، كأنه أعرابي بدوي فقلت:

من هذا؟

فقال لي رجل: أراك غريباً بهذا البلد.

فقلت: «أجل أنا رجل من أهل البصرة».

قال: هذا علي بن أبي طالب أمير المؤمنين[2].

ثم مرّ مجتازاً بأصحاب التمر فقال: «يا أصحاب التمر أطعموا المساكين يرب (يزد) كسبكم» ثم مرّ مجتازاً ومعه

---

(١) علي إمام المتّقين: ج ٢، ص ٢٩٨.
(٢) علي إمام المتّقين: ج ٢، ص ٢٣٧.

المسلمون حتى انتهى إلى أصحاب السمك فقال: «لا يباع في سوقنا سمك فاسد. . .».

وروى أحد أصحابه: «كان علي يمشي في الأسواق وحده وهو خليفة، يرشد الضال، ويُعين الضعيف، ويمر بالتجّار فيفتح القرآن ويقرأ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾[1]. ثم يقول «نزلت هذه الآيات في أهل العدل والتواضع من الولاة وأهل القدرة من سائر الناس»[2].

ومشى في السوق، فمر ببائع يحلف فقال له:

لا تحلف. ويلٌ للصانع وويلٌ للتاجر من (لا والله) و(بلى والله)! يا معشر التجّار، ألا إن كل يمين فاجرة تُذهب بالبركة. فاْتقوا (لا والله)! و(بلى والله). فقد كنّا نتحدث أن التاجر فاجر وفجوره أنّه يُحلّي السلعة بما ليس فيها. قال رسول الله ﷺ: «اليمين الكاذبة مُنفقة (مروّجة) للسلعة، مُمحقة للربح! واْعلموا أن التاجر فاجر إلّا من أخذ الحق وأعطاه». وقد قال رسول الله ﷺ:

«ألا إن التجار هم الفجّار، إلا من اْتّقى وَبرّ وصدق. وقال: يا معشر التجّار تحشرون مع الفجّار إلّا من اْتقى ربه

---

(١) سورة القصص، الآية: ٨٣.

(٢) المصدر السابق: ص ٢٣٨.

وصدق». كما أنه عليه الصلاة والسلام قال: «التاجر الصدوق مع النبيين والصدّيقين»[1].

كان عليه السلام يوصي الحاكم بالمحكوم، والتاجر بالعامة، والأغنياء بالفقراء ويقول لهم، معاتباً، مزمجراً، مهدداً:

«قد أصبحتم في زمن لا يزداد الخير فيه إلّا إدباراً، والشرّ فيه إلّا إقبالاً، والشيطان في هلاك الناس طمعاً، فهذا زمان قويت عدّته (عدّة الشيطان)، وعمت مكيدته، وأمكنت (سهلت) فريسته.

أُضرب بطرفك حيث شئت من الناس، هل تبصر إلّا فقيراً يُكابد فقراً، أو غنياً بدّل نعمة الله كفراً، أو متمرّداً كان بأذنه عن سمع المواعظ وقراً؟

أين خياركم وصلحاؤكم؟ وأحراركم وسمحاؤكم؟ وأين المتورّعون في مكاسبهم؟ والمتنزّهون في مذاهبهم؟ أليسوا قد ظعنوا (رحلوا) جميعاً عن هذه الدنيا الدنية والعاجلة المنغصة؟؟ وهل خلقتم إلّا في حثالة لا تلتقي بذمهم الشفتان استصغاراً لشأنهم، وذهاباً عن ذكرهم؟ فإنّا لله وإنّا إليه راجعون! ظهر الفساد فلا منكر متغيّر، ولا زاجر مزدجر! أفبهذا تريدون أن تجاوروا الله في دار قدسه، وتكونوا أعزّ

(١) المصدر السابق: ص ٢٤٩.

أوليائه عنده؟! هيهات! لا يخدع الله عن جنته، ولا تنال مرضاته إلّا بطاعته. لعن الله الآمرين بالمعروف التاركين له، والناهين عن المنكر العاملين به.

«ألا وإن أفحش الظلم ظلم الحاكم للمحكوم، والقوي للضعيف، والمحتكر للعامة! يا معشر التجّار ألا إن التجار هم الفجّار إلّا من اتقى ربه وصدق، وبرّ، ووصل، وأدّى الأمانة، والتاجر الصدوق مع النبيين والشهداء»[١].

وكان عليه السلام يهتم بأصغر الحاجات، كما يهتم بأكبرها، ويقول لأصحابه:

«اِفعلوا الخير ولا تحقروا منه شيئاً، فإن صغيره كبير، وقليله كثير، ولا يقولنّ أحدكم: إن أحداً أولى بفعل الخير منّي، فيكون ـ واللهِ ـ كذلك، إن للخير والشر أهلاً فمهما تركتموه منهما كفاكموه أهله»[٢].

وكما قال فعل، فقد روي: «أن قصاباً كان يبيع اللحم من جارية وكان يحيف عليها، فبكت وخرجت فرأت علياً فشكته إليه.

فمشى عليه السلام معها نحوه، ودعاه إلى الإنصاف في حقّها،

---

(١) نهج البلاغة: الخطب ١٢٩.
(٢) نهج البلاغة: الحكم ٤٢٢.

وكان يعظه ويقول له: ينبغي أن يكون الضعيف عندك بمنزلة القوي فلا تظلم الناس»[1].

ومرّ أيضاً على جارية قد اشترت لحماً من قصّاب، وهي تقول: زدني.

فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: «زدها فإنّه أعظم للبركة»[2].

وروي «أنه عليه السلام كان يمشي في الأسواق وحده وهو ذاك يرشد الضال، ويُعين الضعيف، ويمرّ بالبياع والبقّال فيفتح عليه القرآن ويقرأ:

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾[3].

وهكذا فإنه كان يقوم بدور الموجّه والناصح، كما كان يقوم بدور صاحب القرار.. وكان يتفقّد ولاته وعمّاله، كما كان يتفقّد أُمور عامة الناس في السوق والطرقات، ولم يكن يكتفي ببسط العدل في المجتمع، بل كان يرعاه بنفسه، ولا يكتفي بالتقارير تصل إليه بل يتعهّد الخير في كل مكان وفي هذا المجال لم يكن إلّا مع الضعيف ضد القوي، ومع الفقير ضدّ المترف، ومع الناس ضد المحتكرين، وكان يقول: «القوي العزيز عندي

---

(١) بحار الأنوار: ج ٤١، ص ٢٠٣.

(٢) فروع الكافي: ج ٥، ص ١٥٢.

(٣) المناقب: ج ١، ص ٣١٠، سورة القصص، الآية: ٨٣.

ذليل حتى آخذ الحق منه، والضعيف الذليل عندي قوي حتى آخذ الحق له»[1].

وقد روي «أن أمير المؤمنين عليه السلام كان كلّ بكرة يطوف في أسواق الكوفة سوقاً سوقاً ومعه الدرّة على عاتقه، وكان لها طرفان وكانت تسمّى «السبية»، فيقف على كل سوق فينادي:

«يا معشر التجّار قدّموا الاستخارة، وتبرّكوا بالسّهولة، واقتربوا من المبتاعين، وتزيّنوا بالحلم، وتناهوا عن الكذب واليمين، وتجافوا عن الظلم، وأنصفوا المظلومين، ولا تقربوا الربا ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[2] وكان يطوف في جميع أسواق الكوفة فيقول هذا، ثمّ يقول:

تفنى اللّذاذة ممّن نال صفوتها ... من الحرام ويبقى الإثم والعار

تبقى عواقب سوء في مغبّتها ... لا خير في لذّة من بعدها نار[3]

وفي ذلك كان إذا رأى ظلماً يقاومه، أو إهانة ضد أحد فيردّها له، أو يجد طالب حاجة فيرفع حاجته.. فقد حدث: أنّ أمير المؤمنين عليه السلام مرّ بأصحاب التمر فإذا هو بجارية تبكي.

فقال: يا جارية ما يبكيك؟

---

(١) المحاسن والمساوىء: ج ١، ص ٨٥.

(٢) سورة هود، الآية: ٨٥.

(٣) امالي الصدوق: ص ٢٩٨.

فقالت: بعثني مولاي بدرهم فأبتعت من هذا تمراً فأتيتهم به فلم يرضوه، فلمّا أتيته به أبى أن يقبله!

فتوسّط الإمام لها وقال للتمّار: يا عبد الله إنّها خادم وليس لها أمر، فأردد إليها درهمها وخُذ التمر.

فقام إليه الرجل فلكزه، فقال الناس له: ويلك هذا أمير المؤمنين»! فربا الرجل وأصفرّ وأخذ التمر وردّ إليها درهمها ثمّ قال: يا أمير المؤمنين اِرض عنّي.

فقال: «ما أرضاني عنك إن أصلحت أمرك. ووفيت الناس حقوقهم»[1].

وكما كان يرعى حقوق الضعفاء من المسلمين، فإنه كان يراعي حقوق أمثالهم من أهل الملل الأُخرى، فحتى المستضعفين من النصارى واليهود كانوا يجدون من رعايته وتفقّده ما كان سائر المسلمين يجدونه منه، بل كان يعاتب المسلمين إذا تعرّض نصراني للإهمال، وهو أهل حاجة..

فقد روي: «إن أمير المؤمنين عليه السلام مرّ بشيخ مكفوف كبير، وهو يسأل الناس». فقال عليه السلام: «ما هذا»؟!

قالوا: ـ «يا أمير المؤمنين نصراني»!

(١) بحار الأنوار: ج ٤١، ص ٤٨.

فقال عليه السلام: «استعملتموه حتى إذا كبر، وعجز منعتموه»؟؟!

ثم التفت إلى مسؤولي بيت المال، وقال:

ـ «أنفقوا عليه من بيت المال»[1].

* * *

وإذا كان البعض يحجم عن عمل الخير، لأنه لا يجد التقدير عليه، فإن الإمام كان يقول له: «لا يزهدنّك في المعروف من لم يشكره، فقد يشكرك عليه من لا يستمتع بشيء منه، وقد تدرك من شكر الشاكر أكثر مما أضاع الكافر، والله يحب المحسنين»[2].

ولربما كان بعضهم يستحي من إعطاء القليل، فكان يقول له: «لا تستحِ من إعطاء القليل فإن الحرمان أقلّ منه»[3] وإذا كان يصل إلى بعض أصحابه شيء من المال، فإنه كان يقول له:

«من آتاه الله مالاً فليصل به القرابة، وليُحسن منه الضيافة، وليفكّ به الأسير والعاني، وليعط منه الفقير والغارم، وليصبر نفسه على الحقوق والنوائب ابتغاء الثواب، فإن فوزاً بهذه

(١) الوسائل: ج ١١، ص ٤٩.

(٢) ديوان المعاني: للعسكري، ج ١، ص ١٥٤.

(٣) نهاية الإرب: ج ٣، ص ٢٠٤.

الخصال شرف مكارم الدنيا، ودرك فضائل الآخرة إن شاء الله»[1].

ولربما كان يتعرّض للإهانة، وهو يسدي المعروف، إلّا أنه كان ما يطلبه من ثواب الله تعالى أكثر مما يتوقعه من الناس من شكر. وقد روي في المناقب عن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام قال:

إن علياً عليه السلام رجع إلى داره في وقت القيظ فإذا امرأة قائمة تقول: «إنَّ زوجي ظلمني، وأخافني، وتعدّى عليّ وحلف ليضربني!».

فقال: «يا أمة الله اْصبري حتى يبرد النهار، ثم أذهب معك إن شاء الله؟».

فقالت: إذن يشتدّ غضبه عليّ!

فطأطأ رأسه ثم رفعه وهو يقول:

ـ «لا والله، أو يؤخذ للضعيف حقّه غير متعتع!» ثم التفت إليها وقال:

ـ «أين منزلك»؟

فدلّته إليه.

(١) نهج البلاغة: الخطب ١٤٢.

فمضى عليه السلام إلى بابه فوقف فقال: «السلام عليكم» فخرج شاب.

فقال علي عليه السلام: «يا عبد الله، اتّق الله في أهلك، فإنك قد أخفتها وأخرجتها».

فقال الفتى ـ وهو لا يعرف أمير المؤمنين عليه السلام: وما أنت وذاك، والله لأحرقنّها لكلامك!

فسلّ الإمام سيفه وقال له:

ـ «آمرك بالمعروف وأنهاك عن المنكر.. تستقبلني بالمنكر وتُنكر المعروف؟».

فأقبل الناس من الطرق وهم يقولون: السلام عليكم يا أمير المؤمنين:

فسقط الرجل في يديه فقال:

ـ «يا أمير المؤمنين أقلني في عثرتي، فوالله لأكونن لها أرضاً تطأني.

فأغمد علي عليه السلام سيفه وقال: يا أمة الله ادخلي منزلك، ولا تلجئي زوجك إلى مثل هذا وشبهه»[1].

---

(١) مناقب آل ابي طالب: ج ١، ص ٣١١.

الإيثار

ينبغي للمؤمن أن يتّصف بثلاث فضائل:

الأول: العدل. ويعني التعامل بالمثل، فتعطي من يعطيك، وتُحسن إلى من يُحسن إليك، وتصل من يصلك.

الثاني: الإحسان. ويعني إعطاء الأفضل للطرف الآخر، فتعطي من يعطيك بأكثر مما أعطى، وتُحسن إليه بأفضل من إحسانه، وتُجازيه بأكثر مما يستحقّ.

الثالث: الإيثار. ويعني تقديم الآخرين على الذات. فتعطي لهم ما أنت أحوج إليه منهم، وتقدّم حاجتهم على حاجتك، ونفوسهم على نفسك.

أمّا العدل، فهو للتعامل مع العدوّ.

وأمّا الإحسان، فهو للتعامل مع الناس.

وأمّا الإيثار، فهو للتعامل مع المؤمنين.

يقول الإمام علي عليه السلام: «عامل سائر الناس بالإنصاف، وعامل المؤمنين بالإيثار»[١].

وهكذا فإن «الإيثار أحسن الإحسان وأعلى مراتب الإيمان»[٢] كما هو «أعلى مراتب الكرم وأفضل الشيم»[٣].

وفي الحقيقة فإنه من دون «الإيثار» والمخاطرة بالعطاء بلا حساب لن يستطيع أحد أن يملك قلوب الرجال إذ إن «بالإيثار تسترقّ الأحرار»[٤] وبه «تملك الرقاب»[٥]، وليس هنالك من يقبل الوقوف إلى جانب رجل أناني، ليس مستعداً أن يُؤثر رجاله على نفسه. أمّا القائد الذي يعطي بلا حدود، ويؤثر الآخرين على نفسه، فهو يجمع حوله أصحاب الشيم والفضيلة.

وهكذا كان أمير المؤمنين عليه السلام لقد اشترى ثوباً فأعجبه فتصدّق به وقال:

ـ سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «من آثر على نفسه، آثره الله يوم القيامة الجنة»[٦].

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم.

(٥) المصدر السابق.

(٦) تفسير نور الثقلين: ج ٥، ص ٢٨٥.

ولقد كانت حياته كلها إيثاراً، ففي ليلة «الهجرة» آثر رسول الله على نفسه ونام في فراشه، وحوله أربعين سيفاً متعطّشاً لإراقة دمه.. وقد جاء في الحديث: «بات علي بن أبي طالب عليه السلام على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله فأوحى الله تعالى إلى جبرئيل وميكائيل: إني آخيت بينكما، وجعلت عمر الواحد منكما أطول من عمر الآخر، فأيّكما يُؤثر صاحبه بالحياة؟

فاْختار كلاهما الحياة..

فأوحى الله ـ تعالى ـ إليهما: أفلا كنتما مثل علي بن أبي طالب، آخيت بينه وبين محمد صلى الله عليه وآله فبات على فراشه، يفديه بنفسه، فيؤثره بالحياة؟

«فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾[1][2].

* * *

وروى المفسّرون «أنّه لم يكن يملك إلّا أربعة دراهم، فتصدّق بدرهم ليلاً وبدرهم نهاراً وبدرهم سرّاً وبدرهم علانية،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠٧.

(٢) تنبيه الخواطر: ص ١٤٢.

فأنزل فيه ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾[1][2].

كان عليه السلام شديد المروءة، وكان يقول: «من آثر على نفسه بالغ في المروءة»[3] ويقول: «من آثر على نفسه استحق اسم الفضيلة»[4] يقول: «لا تكتمل المكارم إلّا بالعفاف والإيثار»[5].

وكان ـ كما جاء في التاريخ ـ «أشبه النّاس طعمة برسول الله صلى الله عليه وآله يأكل الخبز والخلّ والزيت ويطعم النّاس الخبز واللّحم»[6].

وروي عنه «إنه كان يستقي بيده لنخل قوم من يهود المدينة حتّى مجلت يده، ويتصدّق بالأجرة ويشدّ على بطنه حجراً»[7].

كل ذلك ليس من أجل شيء إلّا لكسب رضا الله تعالى حيث كان يرى «الإيثار أفضل عبادة وأجلّ سيادة»[8]، ومن هنا عوّد أهله على ذلك فقد رُوي عن أبي هريرة قال:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧٤.
(٢) شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد: ج ١، ص ١٤٤.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٤) التفسير المعين، ص ٣١٦.
(٥) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٦) المحاسن: ص ٢٨٣.
(٧) شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ٢١٥.
(٨) غرر الحكم ودرر الكلم.

جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله فشكا إليه الجوع، فبعث رسول الله إلى بيوت أزواجه فقلن: ما عندنا إلّا الماء.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: من لهذا الرجل اللّيلة؟

فقال عليّ بن أبي طالب عليه السلام: أنا له يا رسول الله.

وأتى فاطمة عليها السلام فقال لها: ما عندك يا بنت رسول الله؟

فقالت: ما عندنا إلّا قوت الصبية نؤثر ضيفنا.

فقال عليٌّ عليه السلام: يا ابنة محمّد نوّمي الصبية وأطفئي المصباح ففعلت ذلك وأعطوا طعامهم للرجل..

فلمّا أصبح عليّ عليه السلام غدا على رسول الله صلى الله عليه وآله فأخبره الخبر، فلم يبرح حتّى أنزل الله عزّ وجلّ ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1][2].

* * *

وذات مرة حدث أن مرض الحسن والحسين وهما صبيان فعاودهما جدهما ومعه بعض صحابته. ونبّه فاطمة وهو على باب دارهما أن معه غرباء، ورمى إليها بردته وهي خلف الباب لتغطّي بها من جسمها ما لا ينبغي أن يراه الغريب!

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٩.

(٢) الأمالي: للطوسي، ص ١١٦.

وقال أحد الصحابة لعلي: «يا أبا الحسن لو نذرت على ولديك نذراً». فقال علي: «إن برئا مما بهما صمت لله عزّ وجلّ ثلاثة أيام شكراً». وقالت فاطمة كذلك. وقال الغلامان كذلك. فلما برئا أصبح الجميع صياماً وما في الدار شيء من طعام يفطرون عليه.

فغدا علي بن أبي طالب على جار يهودي له يدعى شمعون، كان يعالج الصوف، فقال له: «هل لك أن تعطيني جزة من الصوف تغزلها لك بنت محمد بثلاثة أصوع من شعير»؟.

قال: «نعم». فأعطاه فجاء بالصوف والشعير، فأخبر فاطمة، فقبلت وأطاعت. ثم غزلت ثلث الصوف، وأخذت صاعاً من شعير فطحنته وعجنته وخبزته.. وصلّى عليٌّ المغرب بالمسجد مع رسول الله ﷺ، ثم أتى منزله ليفطر، فوُضِعَ الخوان فجلسوا فأوّل لقمة كسرها علي، إذا مسكين واقف على الباب فقال: «يا أهل بيت محمد. أنا مسكين من مساكين المسلمين.. أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنّة».

فدفع علي الطعام إلى المسكين. وباتوا جياعاً، وأصبحوا صياماً!.

وفي اليوم التالي طحنت فاطمة الصاع الثاني، وخبزته،

ووضعت الطعام ليفطروا، إذ وقف بالباب يتيم من أولاد المهاجرين استشهد أبوه، فأعطوه الطعام!. وفي اليوم الثالث طحنت آخر صاع وخبزته، وعند المغرب وضعت الطعام، إذ وقف بالباب أسير يقول: «السلام عليكم يا أهل بيت النبوّة، تأسروننا ولا تطعموننا. أطعموني فأنا أسير». فأعطوه الطعام..!

وأقبل علي ومعه الحسن والحسين يرتعشان كالفرخين من شدّة الجوع على رسول الله ﷺ فقال: «يا أبا الحسن! لشدّ ما يسوؤني ما أدرككم. انطلقوا بنا إلى ابنتي فاطمة». فانطلقوا إليها وهي في محرابها، وهي قد غارت عيناها من شدّة الجوع، فقال عليه الصلاة والسلام: «واغوثاه»!.. ثم ضمّها إليه.

فأنزل الله تعالى آيات من سورة الإنسان.. ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾[1]. إلى ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾[2]. وفيها يتحدّث سبحانه عن الأبرار: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[3][4].

---

(١) سورة الإنسان، الآية: ١.

(٢) سورة الإنسان، الآية: ١٢.

(٣) سورة الإنسان، الآيتان: ٧، ٨.

(٤) علي إمام المتّقين: ج ١٩٠، ص ٣٦ ـ ٣٧.

الحُلم

بدون أن يكون الإنسان حليماً لا يكون عظيماً.

ذلك أن «الحُلم والأناة توأمان ينتجهما علوّ الهمّة»[1]، فصاحب القلب الكبير يتحمّل الشيء الكثير، بينما أصحاب القلوب الصغيرة يغضبون ويثورون لأتفه الأشياء..

وهكذا فإن «الحُلم رأس الرئاسة»[2] شأنه في ذلك، شأن سعة الصدر، فإن «من حلم ساد»[3] والغضوب أبعد شيء عن السيادة إذ إن «أول عوض الحليم من خصلته أن الناس أعوانه على الجاهل»[4] «فبالحلم تكثر الأنصار»[5] و«من حلم من عدوّه ظفر به»[6].

---

(١) البديع: لابن المعتزّ، ص ٢١.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم.

(٣) بحار الانوار: ج ٧٧، ص ٢٠٨.

(٤) بحار الأنوار: ج ٧١، ص ٤٢٥.

(٥) غرر الحكم ودرر الكلم.

(٦) بحار الانوار: ج ٧١، ص ٤٢٨.

وعلى كل حال فإن «الحلم قدام السفينة»[1] و«نور جوهرة العقل»[2] و«حجاب من الآفات»[3] و«حلية العلم وعلّة السلم»[4] و«نظام أمر المؤمن»[5].

وقد يتساءل البعض: ما هو الحُلُم؟ وكيف يكون الإنسان حليماً؟

والجواب: «إنما الحُلُم كظم الغيظ وملك النفس»[6].

فليس الحلم أن لا تثور في داخلك، بل هو أن تملك غضبك ولا تنساق معه، وتتحمّل الأذى، ولا تردّ على كل ما يقال عنك، وبكلمة فإن «الحليم من احتمل إخوانه»[7].

أمّا كيف نحصل على فضيلة الحلم، فبالتصميم على ذلك، وبذل المحاولة والتدريب «فإن لم تكن حليماً فتحلّم فإنّه قلّ من تشبّه بقوم إلّا أوشك أن يكون منهم»[8] «فمن تحلم حلم»[9]

(١) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق.
(٦) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٧) المصدر السابق.
(٨) بحار الأنوار: ج ٧١، ص ٤٢٧.
(٩) غرر الحكم ودرر الكلم.

و«من لم يتحلم لم يحلم»[1] وهكذا فإنه ليس ضرورياً أن تكون حليماً في داخلك، بل يكفي أن تظهر الحلم مع قطع النظر عن حالتك النفسية، ولذلك فإنه «قد يتزيّا بالحلم غير الحليم»[2].

ثم إن الحلم، وضبط النفس لهما القيمة حين القدرة على الرّد والانتقام، لا عند العجز عن ذلك. فـ«من أحسن أفعال القادر أن يغضب فيتحلّم»[3] «فليس الحليم من عجز فهجم وإذا قدر فانتقم. إنما الحليم من إذا قدر عفا وكان الحُلُم غالباً على أمره»[4].

. وهكذا كان أمير المؤمنين عليه السلام وقد جاء في كتب التاريخ: «أن علياً عليه السلام كان إذا صلّى الفجر لم يزل معقّباً إلى أن تطلع الشمس، فإذا طلعت اجتمع إليه الفقراء والمساكين وغيرهم من الناس، فيعلّمهم الفقه والقرآن، وكان له وقت يقوم فيه من مجلسه ذلك، فقام يوماً فمرّ برجل، فرماه بكلمة هجا فيها الإمام: فرجع عوده على بدئه، وأمر فنودي: الصلاة جامعة.

---

(١) بحار الأنوار: ج ٧٧، ص ٢٨٣.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق.

ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال:

أيّها الناس إنّه ليس شيء أحبّ إلى الله ولا أعمّ نفعاً من حلم إمام وفقهه، ولا شيء أبغض إلى الله ولا أعمّ ضرراً من جهل إمام وخرقه.

ألا وإنّه من لم يكن له من نفسه واعظ لم يكن له من الله حافظ.

ألا وإنّه من أنصف من نفسه لم يزده الله إلّا عزّاً.

ألا وإنّ الذلّ في طاعة الله أقرب إلى الله من التعزّز في معصيته».

ثمّ قال: أين المتكلّم آنفاً؟ فلم يستطع الإنكار، فقال: ها أنا ذا يا أمير المؤمنين.

فقال: أما إنّي لو أشاء لقلت.

فقال الرجل إن تعفو وتصفح فأنت أهلٌ لذلك؟

فقال: عفوت وصفحت[1].

* * *

ولقد تعلّم الإمام من رسول الله صلى الله عليه وآله الكثير في هذا المجال، فقد أوصاه النبي حين زوّجه ابنته فاطمة الزهراء عليها السلام قائلاً:

(١) بحار الأنوار: ج ٤١، ص ١٣٣.

«يا علي! لا تغضب، وإذا غضبت فأقعد وتذكّر قدرة الله تعالى على العباد، وحُلمُه عنهم. وإذا قيل لك: اتّق الله، فاترك غضبك عنك وارجع لحلمك»[1]. وعلّمه: «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأه الله إيماناً وأمناً»[2]. وعلّمه: «ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهنّ فلا تعتدّوا بشيء من علمه: تقوى تحجزه عن معاصي الله، وحُلُم يكفّ به السفيه، وخلق يعيش به في الناس»[3] وعلى هذه التعاليم التي تلقاها منذ نعومة أظفاره، عاش الإمام علي عليه السلام وتربّى.

ولكم عفا وكظم غيظه؟

ولكم حلم وضبط غضبه؟

ولكم واجه السفهاء بوقاره وحُلمُه؟

وقد روي في ذلك ذات مرة عربد عليه أحد حسّاده، فنصحه بعض أن يشكوه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فرفض ذلك وقال: «إنّي لأستحي من الله أن يكون هناك ذنب أعظم من عفوي، أو جهل أعظم من حلمي، أو عورة لا يداريها ستري، أو خلّة (الحاجة والفقر) لا يسدّها جودي»[4].

---

(١) علي إمام المتّقين: ج ١.

(٢) المصدر السابق.

(٣) جامع السعادات: ج ١، ص ٣٣٢.

(٤) علي إمام المتّقين: ج ٢، ص ٤٠.

وفي حادثة أُخرى: روي أن امرأة جميلة في الكوفة مرّت قرب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وهو جالس مع جماعة، فرمقها بعض القوم بأبصارهم، فنهاهم أمير المؤمنين عليه السلام عن ذلك قائلاً:

«إن عيون هذه الرجال لواقح، وإن ذلك سبب هلاكها، فإذا نظر أحدكم إلى امرأة تعجبه فليلتمس أهله، فإنما هي امرأة كامرأة.

فقال رجل من الخوارج: «قاتله الله من كافر ما أفقهه» فوثب القوم إليه يريدون تأديبه، فقال عليه السلام ناهياً لهم:

رويداً إنما هو سبّ بسبّ، أو عفو من ذنب.

ثم عفا عنه وتركه وشأنه[1].

* * *

حقاً إنّ أمير المؤمنين نموذج عظيم يجب الاقتداء به من قبل كل الحُكّام والرؤساء إذا أرادوا كسب رضا الله تعالى. فعدا عن عفوه العظيم، كانت له قدرة كبيرة على ضبط النفس، والحُلُم عن جهل الجاهلين.. رغم قدرته على أن ينتقم ويُجازي.

فبعد معركة الجمل وانتصاره على طلحة والزبير وعائشة

---

(١) السبيل إلى إنهاض المسلمين: ص ٤٤٠.

أمر الإمام بأن توضع عائشة بأحترام في بيت «عبد الله بن خلف الخزاعي» وكان قصراً كبيراً، له حديقة وفناء واسع، وقام بزيارتها أكثر من مرّة، في الأولى منها استقبلته «صفية بنت الحارث» بشكلٍ غير مؤدّب فقالت له:

ـ «يا علي.. يا قاتل الأحبّة.. أيتمّ الله منك بنيك، كما أيتمت بني عبد الله».. وكانوا قد قتلوا في المعركة مع عائشة.

فلم يجبها الإمام بشيء، سوى دعائه لها بالصبر.

وحينما خرج من عند عائشة أعادت صفية كلامها البذيء السابق. فقال لها الإمام:

ـ «لو كنتُ قاتل الأحبّة لقتلت من في هذه الدار»!. وكان فيه كثير من الجرحى من أنصار عائشة وغيرهم من قادة جيشها.

وحاول بعض من كان مع الإمام أن يبطش بها فزجرهم الإمام زجراً عنيفاً[1].

حقاً إنّ «الحُلُم يطفىء نار الغضب، والحدّة تؤجج إحراقه»[2]. و«كفى بالحُلُم ناصراً»[3].

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام: ص ٤٩.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم.

(٣) الكافي: ج ٢، ص ١١٢.

ولهذا فإنه «ليس الخير أن يُكثر مالك وولدك ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك»[1].

ولقد سئل الإمام عليه السلام: من أقوى الخلق؟ فقال الحليم»[2].

(١) جامع السعادات: ج ١، ص ٣٢٣.

(٢) بحار الأنوار: ج ٧٧، ص ٣٧٨.

العمل اليدوي

العمل اليدوي ليس عيباً بل هو مقدّس.

فالإنتاج الشخصي، وممارسة مهنة من المهن شيمة من شيم عظماء التاريخ، فما من نبي إلّا وكان يسترزق من كدّ يمينه وعرق جبينه، فمنهم من كان زارعاً، ومنهم من كان حداداً، ومنهم من كان يصنع الجلود، ومنهم من كان تاجراً، وكثير منهم كانوا رُعاة أغنام..

نبينا ﷺ كان يعمل راعياً للأغنام، وأميناً على أموال خديجة، ويعمل بيديه في أكثر الأحيان. وكان يقول: «من أكل من كدّ يده نظر الله إليه بالرحمة، ثم لا يعذّبه أبداً»[1] ويوصي أصحابه بالاعتماد على أيديهم ويقول: «من أكل من كدّ يده كان يوم القيامة في عداد الأنبياء، ويأخذ ثواب الأنبياء»[2].

---

(١) بحار الأنوار: ج ١٠٣، ص ٩.

(٢) المصدر السابق: ص ١٠.

و«كان أمير المؤمنين عليه السلام يضرب بالمر (المسحاة)، ويستخرج الأرضين، وأنه أعتق ألف مملوك من كدّ يده»[1].

وربما «كان يخرج ومعه أحمال النوى، فيقال له: يا أبا الحسن، ما هذا معك؟ فيقول: «نخل إن شاء الله» فيغرسه، فما يغادر منه واحدة»[2].

وكان يقول: «من لم يصبر على كدّه، صبر على الإفلاس»[3]. ويقول: «إن الأشياء لمّا ازدوجت، ازدوج الكسل والعجز فنتج منهما الفقر»[4].

وروي «أن أمير المؤمنين عليه السلام لمّا كان يفرغ من الجهاد يتفرّغ لتعليم الناس والقضاء بينهم، فإذا فرغ من ذلك ٱشتغل في حائط له، يعمل فيه بيديه، وهو مع ذلك ذكر الله تعالى»[5].

وبالإضافة إلى أن العمل اليدوي عند الإمام كان ضرورياً للصحة والسلامة الجسمية، فإنّ الإمام عليه السلام كان يعمل بيديه حتى لا يأكل من بيت المال، فهو يريد أن يُعطي لا أن يأخذ، حتى بمقدار حقّه كفرد مسلم من عامة النَّاس، ولذلك فإنه عليه السلام

---

(١) ميزان الحكمة: ج ٤، ص ١٢١.
(٢) فروع الكافي، ج ٥، ص ٧٥.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٤) الحياة: ج ٤، ص ٣١٩.
(٥) المستدرك: ج ٢، ص ٤١٧.

كثيراً ما كان ينفق سهمه في سبيل الله.. ثم يعمل أجيراً لدى بعض أصحاب الأراضي حتى يسترزق..

كما أنه عليه السلام، كان يرفض أن يعيش عالة على أحد، ويقول: «إستغنِ عمّن شئت تكن نظيره»[1] ويقول: «وإن استطعت أن لا يكون بينك وبين الله ذو نعمة فأفعل، فإنك مدرك قسمك وآخذ سهمك»[2].

فمهما كان فإن في مقدور أي إنسان أن يكون منتجاً بمقدار حاجته، وعاملاً في الحياة قدر استطاعته ومعمراً للأرض على قدر همّته «فإن الله تعالى في قوله: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾[3] أعلمنا أنه قد أمرهم بالعمارة، ليكون ذلك سبباً لمعايشهم، بما يخرج من الأرض من الحبّ والثمرات وما شاكل ذلك مما جعله الله معايش للخلق[4].

ولهذا فقد جاءت الروايات تترى في ضرورة العمل اليدوي، والإنتاج الشخصي مثل الحديث الذي يقول: «ما أكل

---

(١) نهج البلاغة: الحكم.
(٢) شرح نهج البلاغة: ج ١٦، ص ٩٣.
(٣) سورة هود، الآية: ٦١.
(٤) الوسائل: ج ١٣، ص ١٩٥.

أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده»[١] و«أزكى الأعمال كسب المرء بيده»[٢] و«ما أكل عبد طعاماً أحب إلى الله تعالى من كدّ يده، ومن بات كالّاً من عمله بات مغفوراً له»[٣] و«أطيب الكسب عمل الرجل بيده»[٤] و«مرّ داود بإسكافي فقال: يا هذا اِعمل وكُل، فإن الله يحب من يعمل ويأكل ولا يحب من يأكل ولا يعمل»[٥]. و«من أكل من كدّ يده حلالاً فتح الله له أبواب الجنّة، يدخل من أيّها شاء»[٦] و«من أكل من كدّ يده نظر الله إليه بالرحمة ثم لا يعذّبه أبداً»[٧] «ومن أكل من كدّ يده يكون يوم القيامة في عداد الأنبياء ويأخذ ثواب الأنبياء»[٨] ولقد تعلّم الإمام علي عليه السلام من أستاذه العظيم رسول الله صلى الله عليه وآله، فيما تعلّم من معاني القرآن أن الله لا يكتفي من العبد المطيع التقي بالإيمان وحده، بل الله يقرن الإيمان

(١) كنز العمال: ٩٢٢٣.
(٢) المصدر السابق: ٩٢٢٠.
(٣) التفسير المعين: ص ٥٨٢.
(٤) كنز العمال: ٩١٩٦.
(٥) تنبيه الخواطر: ص ٣٥.
(٦) الصياغة الجديدة: ص ١٦٩.
(٧) المصدر السابق.
(٨) المصدر السابق.

بالعمل.. فكلما ذكر الله تعالى الإيمان في آية عطف عليه العمل الصالح: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[1].

أما الإيمان فمعروف، وفيه أداء العبادات المفروضة، وأما العمل الصالح فهو ما ينهض بأدائه وإتقانه كل إنسان في أية جماعة إنسانية من أعمال مشروعة تكفل له معاشه، وتحقق المصلحة للأمة جميعاً..

لقد تعلّم عَلِيٌّ من رسول الله ﷺ أن من يسعى في طلب الرزق كمن ينقطع للعبادة، وأن طلب العلم فريضة، وأن العمل شرف وإتقانه واجب شرعي، وأن الجهاد في سبيل الله والعمل لعمارة الأرض وإسعاد الناس، والجهد في تحقيق مصالح الأُمة، هي أفضل ما يتقرّب به العبد الصالح إلى الله، وهي الأعمال التي يحبّها الله.

ولذلك فقد روي «أن أمير المؤمنين كان يكدح بكدّ يده، ثم إذا جمع مالاً ٱشترى عبداً فأعتقه في سبيل الله»[2].

وروي: «أن علياً عليه السلام كان يعمل بيده، ويجاهد في سبيل الله، وأقام على الجهاد أيّام حياة رسول الله، ومنذ قام بأمر الناس إلى أن

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥.

(٢) السبيل إلى إنهاض المسلمين: ص ٤٤٢.

قبضه الله ، وكان يعمل في ضياعه ما بين ذلك . فأعتق ألف مملوك ، كل ذلك من كسب يده»[1] .

وهكذا فإنه كان يعتبر العمل اليدوي تأسّياً بالأنبياء ويقول : « . . ولقد كان في رسول الله كاف لك في الأُسْوة . . . وإن شئت ثلّثتَ بداود عليه السلام صاحب المزامير ، وقارىء أهل الجنّة ، فلقد كان يعمل سفائف الحوص بيده ، ويقول لجلسائه : أيّكم يكفيني بيعها؟ ويأكل قرص الشعير من ثمنها»[2] .

(١) دعائم الإسلام.

(٢) نهج البلاغة: الخطب ١٦٠.

التوازن بين الدنيا والآخرة

هل «الدنيا والآخرة عدوان متفاوتان، وسبيلان مختلفان، فمن أحبّ الدنيا تولّاها وأبغض الآخرة وعاداها، وهما بمنزلة المشرق والمغرب، وماشٍ بينهما، كلّما قرب من واحد بعد من الآخر، وهما بعد ضرّتان»[1]؟.

وهل «أن في طلب الدنيا إضراراً بالآخرة، وفي طلب الآخرة إضراراً بالدنيا[2]!

وهل «طلب الجمع بينهما من خداع النفس»[3]؟

وهل هما «ككفتّي الميزان فأيّهما رجح ذهب بالآخر»[4]؟

وهل كلما فات من الدنيا غنيمة[5]؟

---

(١) حلية الأولياء: ج ١، ص ٨٣.

(٢) بحار الأنوار: ج ٧٣، ص ٦١.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم.

(٤) بحار الأنوار: ج ٧٣، ص ٩٢.

(٥) ميزان الحكمة: ج ٣، ص ٣٢٦.

وهل «مرارة الدنيا حلاوة الآخرة، وحلاوة الدنيا مرارة الآخرة»[1]، وأن «ما زاد في الدنيا نقص في الآخرة، وما نقص في الدنيا زاد في الآخرة»[2]؟

أم أن الدنيا والآخرة وجهان لعملة واحدة وأن «الدنيا مزرعة الآخرة»[3] و«بالدنيا تحرز الآخرة»[4] وأنه «النعم العون الدنيا على الآخرة»[5]؟

وفي الحقيقة إنّ الدنيا ليست بالنسبة إلى الجميع واحدة، فهي ليست إمّا خيراً أو شراً، بل إن «الدنيا دنياوان: دنيا بلاغ، ودنيا ملعونة»[6].

فمن جعل همّه الدنيا، فأراد الدنيا لذاتها، واعتبرها هدفاً له ولا شيء وراء ذلك كانت بالنسبة إليه ملعونة، لأن في ذلك هلاكه، فهي إذن شرّ، لأنه خسر نفسه فيها ولم يربح شيئاً.

أمّا من جعلها مزرعة لآخرته، وداراً بها يبلغ مبتغاه في العقبى، فهي نِعم الدار. «لمن لم يرض بها داراً»، و«محلّ من

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم.

(٢) المصدر السابق.

(٣) ميزان الحكمة: ج ٣، ص ٢٨٥.

(٤) الاحتجاج: ج ١، ص ٣٢٦.

(٥) بحار الأنوار: ج ٧٣، ص ١٢٧.

(٦) بحار الأنوار: ج ٧٢، ص ٦٨.

لم يوطنها محلاً»[1] فالدنيا «دار الظالمين إلّا العامل فيها بالخير فإنها له نعمت الدار»[2] «فالله سبحانه جعل الدنيا لما بعدها، وابتلى فيها أهلها، ليعلم أيّهم أحسن عملاً، ولسنا للدنيا خُلقنا، ولا بالسعي فيها أُمرنا»[3].

إن «الدنيا قنطرة»[4] ونحن فيها «كعابري سبيل»[5] و﴿مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ﴾[6] و«إنما مثل من خبر الدنيا كمثل قوم سفر بنا بهم منزل جديب فأمّوا منزلاً خصيباً، وجناباً مريعاً فأحتملوا وعثاء الطريق، وفراق الصديق، وخشونة السفر، وجشوبة المطعم ليأتوا سعة دارهم ومنزل قرارهم»[7].

وما مثل أحدنا «ومثل الدنيا إلّا كراكب سار في يوم صائف فأستظلّ تحت شجرة ساعة من نهار ثم راح وتركها»[8].

«فالدنيا أمد والآخرة أبد»[9].

---

(١) شرح نهج البلاغة: ج ١١، ص ٢٣٩.
(٢) بحار الأنوار: ج ٧٧، ص ٣٦.
(٣) الطراز لليماني: ج ٢، ص ٣٩٣.
(٤) بحار الأنوار: ج ١٤، ص ٣١٩.
(٥) بحار الأنوار: ج ٧٣، ص ٩٩.
(٦) سورة النساء، الآية: ٧٧.
(٧) العقد الفريد: ج ٣، ص ١٥٥.
(٨) بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٢٣٨.

وهكذا، فإنه ليست الدنيا إلّا لكي «يتزوّد العبد من دنياه لآخرته ومن حياته لموته، ومن شبابه لهرمه فإن الدنيا خُلقت لكم وأنتم خُلقتم للآخرة»[1].

وبهذه النظرة الصائبة إلى الدنيا، فإنها تكون للناس على نوعين:

الأول: من يغترّ بها، ويعبدها ويفنى فيها.

الثاني: من يعبر منها، ويتزوّد فيها، ويكسب بها الآخرة.

ولا شك أننا لا يمكن أن نستغني عن الحدّ الأدنى من الدنيا إذ كيف تعيش، وتعمل، وتطيع الله، وتنفع العباد إذا تركناها جملة وتفصيلاً. وهل يمكن تصوّر ترك الدنيا كاملة إلّا في صورة الانتحار، أو الإضراب عن الطعام والشراب حتى الموت؟

إن الحدّ الأدنى من الدنيا ضرورة، ولذلك لا يجري الحديث حول مشروعيتها وعدمه، لأن الأمر ليس متروكاً لنا، مثلما الحفاظ على الحياة ضرورة. أمّا الحدّ الأعلى منها فهو غير ضروري، بل إنه وبال على الإنسان، لأن ما يزيد عن الحاجة غنمه لغيرك وغرمه عليك.

---

(٩) غرر الحكم ودرر الكلم.

(١) تنبيه الخاطر: ص ٣٦.

إذن، فما هو ضروري لك من الدنيا فهو واجب.

وما هو غير ضروري لك فهو زائد..

نعم، قد يتطرّف البعض في الزهد، أو يفهمه خطأً، أو يظن أن المؤمنين مكلفون بترك الدنيا لأهل الكفر والفسق والفجور، أو أن الزهد في الدنيا يعني الزهد في العمل والنشاط، وإشاعة الخير. كما قد يتطرّف البعض في البحث عن الدنيا إلى درجة الطمع والجشع والترف والتكاثر..

فالحدّ الوسط هو أن نسعى لدنيانا من أجل آخرتنا، فنجعل ما فيها لما بعدها. لا العكس. وأن نعمل لأجل الآخرين حتى تكون لهم حياة حرة كريمة. فيكون زهدنا في الدنيا زهد المقتدر لا زُهد العاجز، وزُهد الذي يريد الآخرة، ويبتغي بما أتاه الله الدار الآخرة ولكنه لا ينسى نصيبه من الدنيا..

إننا مطالبون بالكدّ في الدنيا، والعمل لعمارتها، كما نحن مطالبون بالالتزام بالقيم والمُثل وأحكام الشرع. فالمطلوب ليس هو الزهد في الدنيا بل الزهد عنها. فليس الزهد عن تعمير الأرض للآخرين وتطويرها لعباد الله، وبنائها للنفع العام، إلّا زهداً في النشاط، وتركاً للعمل والطاعة، وهو زهد مرفوض. كما أنّ الانشغال بكل ما سبق عن العبادة، وهداية الناس،

والعمل الصالح هو الولع الباطل بالدنيا، وهو رأس كل خطيئة. .

إن الدنيا وسيلة. . فكيف نستخدمها بجعلها خيراً، أو شراً، صالحاً أو ضاراً، طاعة، أو معصية.

إن «الدنيا سوق ربح فيها قوم وخسر آخرون»[1] ربحها من نظر إليها «نظر الزاهد المفارق»[2] وخسرها من نظر إليها «نظر العاشق الوامق»[3]. ربحها من يعطي منها، وخسرها من يُعطي لها. ربحها من اشترى ﴿نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾[4]. وخسرها من ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾[5].

إن «الناس أبناء الدنيا ولا يُلام الرجل على حبّ أمه»[6] لأن الولد مطبوع على ذلك[7]، وإنما يُلامون إذا نسوا الآخرة، ولم يعملوا لها، فاستعبدوا في الدنيا، وفارقوها بلا أعمال صالحة، ولا مواقف نافعة. .

يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا تسبوا الدنيا فنعمة مطيّة المؤمن

---

(١) بحار الأنوار: ج ٧٨، ص ٣٦٦.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٣) المصدر السابق.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٠٧.
(٥) سورة النازعات، الآية: ٣٨.
(٦) بحار الأنوار: ج ٧٨، ص ١٤.
(٧) غرر الحكم ودرر الكلم.

فعليها يبلغ الخير وبها ينجو من الشر. إنه إذا قال العبد: لعن الله الدنيا، قالت الدنيا: لعن الله أعصانا للرّب»[١].

إذن فـ «ليس من حب الدنيا طلب ما يصلحك»[٢] وقد روي أن رجلاً قال للإمام: «إنّا لنحب الدنيا. فقال له الإمام: «وماذا تصنع بها»؟ قال: «أتزوج منها، وأحجّ، وأنفق على عيالي وأنيل أخواني، وأتصدّق. فقال عليه السلام: «هذا ليس من (حب) الدنيا، هذا من (حب) الآخرة»[٣].

من هنا فليس الفقر خيراً. ولا البؤس فخراً، ولا الحاجة صلاحاً ولا الجوع فلاحاً. «لأن الفقر (هو) الموت الأكبر»[٤] وقد «كاد الفقر أن يكون كفراً»[٥] وذلك لأن «الفقر يخرس الفطن عن حاجته»[٦] و«الفقر في الوطن غربة[٧] بينما الغنى في الغربة وطن»[٨].

إن الحفاظ على التوازن بين طلب الحدّ الأدنى من الدنيا،

(١) بحار الأنوار: ج ٧٧، ص ١٧٨.
(٢) المصدر السابق: ج ٧٣، ص ١٢٨.
(٣) ربيع الابرار: ج ١، ص ٣٦٢.
(٤) بحار الأنوار: ج ٧٢، ص ٤٧.
(٥) بحار الأنوار: ج ٧٢، ص ٤٧.
(٦) شرح نهج البلاغة: ج ١٨، ص ٨٧.
(٧) نهج البلاغة: الحكم ٥٦.
(٨) غرر الحكم ودرر الكلم ٣٢.

والعمل لأجل الحدّ الأعلى من الآخرة، هو أعلى أنواع الصلاح، ثم تتدرّج مراتبه حسب اختلال هذا التوازن. فقد يطلب أحدنا الحدّ الأعلى من الدنيا والحد الأدنى من الآخرة، فيعيش في قضايا دينه على الحافة، ولكنه في قضايا دنياه يطلب النصيب الأعلى، فهو ليس من أهل الباطل ولكنه ليس من السابقين السابقين أولئك المقرّبون.

وعلى كل حال فقد رُوي: «إن أعظم الناس هماً المؤمن: «يهتمّ بأمر دنياه وأمر آخرته»[1] وروي أيضاً: «اِجعلوا لأنفسكم حظاً من الدنيا بإعطائها ما تشتهي من الحلال، وما لا يثلم المروءة، وما لا سرف فيه، واستعينوا بذلك على أُمور الدّين، فإنه روي «ليس منا من ترك دنياه لدينه، أو ترك دينه لدنياه»[2].

إن من سوء الفهم لدى البعض الإسراف في الانكباب على الدنيا متعللاً بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾[3].. أو الإعراض عن العمل

---

(١) كنز العمال: خ ٧٠٢.
(٢) بحار الانوار: ج ٧٨، ص ٣٢١.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

والعزوف عن الحياة متمسحاً بقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[1].

يقول الإمام علي عليه السلام: «ألا وإنّ من البلاء الفاقة، وأشدّ الفاقة مرض البدن، وأشد من مرض البدن، مرض القلب. وأفضل من سعة المال صحّة البدن، وأفضل من صحة البدن تقوى القلب»[2].

لقد كان الإمام عليه السلام مع الفقراء.. ولكنه عليه السلام لم يكن يريد لهم الفقر، بل الغنى، ولم يكن يريد لهم المرض بل الصحة، فهو لم يكن يدفع الفقراء جانباً ويطردهم كما يفعل المترفون، بل كان يعيش معهم حتى يرفعوا الفقر عن أنفسهم، ويزيلوا البؤس عنها. «فالخير: الصحّة والغنى.. والشر: المرض والفقر»[3] و«الحرمان خذلان»[4] و«القلّة ذلّة»[5] ولقد قال الإمام لولده محمد ابن الحنفية: «يا بني.. إني أخاف عليك

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٣) بحار الأنوار: ج ٨١، ص ٢٠٩.
(٤) غرر الحكم.
(٥) بحار الانوار: ج ٧٨، ص ١٢.

الفقر فاَستعذ بالله منه، فإنّ الفقر منقصة للدين، مدهشة للعقل، داعية للمقت»[1].

* * *

إن الإمام علي عليه السلام يذمّ أهل الدنيا، ممّن غرّتهم بهارجها فنسوا الآخرة، فظن بعض أصحابه أنه يدعوهم إلى الخروج عمّا أحلّ الله تعالى من متاع الحياة فترك أحدهم - وهو «عاصم بن زياد» - أهله وبنيه، ولبس مرقعة، واَعتكف للعبادة، فجاء أخوه «الربيع بن زياد» إلى أمير المؤمنين وشكاه، وقال: إنه قد غمّ أهله، وأحزن ولده بذلك، فدعاه الإمام فلمّا رآه عبس في وجهه، وقال له: أما اَستحييت من أهلك؟ أما رحمت ولدك؟ أترى الله أحلّ لك الطيّبات وهو يكره أخذك منها؟ أنت أهون على الله من ذلك، أو ليس الله يقول: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾[2]؟ أو ليس يقول: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾[3] إلى قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾[4]

---

(١) ربيع الأبرار: ص ٣٦٢.

(٢) سورة الرحمن، الآيتان: ١٠، ١١.

(٣) سورة الرحمن، الآيتان: ١٩ - ٢٠.

(٤) سورة الرحمن، الآية: ٢٢.

فبالله لابتذال نِعم الله بالفعال أحبّ إليه من ٱبتذالها بالمقال وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[1][2].

فدع التواضع في الثياب تخوّفاً | فالله يعلم ما تُجِن وتكتم
فرثاث ثوبك لا يزيدك زلفة | عند الإلٰه وأنت عبد مجرم
وبهاء ثوبك لا يضرّك بعد أن | تخشى الإلٰه وتتّقي ما يحرم

فٱعلم رحمك الله أنه لا بأس بالغنى لمن اتقى، وٱعلم أن الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرّك على الكذب حيث ينفعك، وأن لا يكون في حديثك فضل (زيادة) على عملك، وأن تتّقي الله في حديث غيرك. . . فلا تعتزل الناس، فلا رهبانية في الإسلام. . وتدبّر قول الرسول ﷺ: «رهبانية أمّتي الجهاد». وتعلّم وعلّم غيرك، فما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلّموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا. وكفاك أدباً لنفسك اجتناب ما تكرهه لغيرك. فخذ من الدنيا ما أتاك، وتولّ عمّا تولّى عنك»[3].

فقال عاصم بن زياد:

«يا أمير المؤمنين. . تنهاني عن العزوف عن زينة الحياة

---

(١) سورة الضحى، الآية: ١١.

(٢) أصول الكافي: ج ١، ص ٤١٠.

(٣) علي إمام المتّقين: ج ٢، ص ٣١.

التي أحلّ الله لعباده والطيبات من الرزق، فعلام ٱقتصرت في مطعمك على الجشوبة وفي ملبسك على الخشونة؟ وتركت قصر الإمارة ونزلت منزل أفقر أهل الكوفة؟!».

فضحك الإمام سلام الله عليه، وقال: «إن الله الذي جعلني إماماً لخلقه فرض عَلَيّ التقدير في نفسي ومطعمي ومشربي وملبسي ومسكني كضعفاء الناس» وأضاف: «ويحك إن الله تعالى فرض على أئمّة العدل أن يقدّروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيّغ بالفقير فقره».

فألقى عاصم بن زياد العباء ولبس الملاء (وهو ثوب يلبس على الفخذين)[1].

وفي الحق أن العمل لإصلاح الدنيا وعمارتها لا العزوف عن العمل وٱعتزال الدنيا، كان جوهر دعوة الإمام علي عليه السلام إلى الزهد.. والعمل الصالح الذي يحضّ عليه، ليس هو أداء العبادات المفروضة فحسب، وإنما هو العمل المنتج في المعاملات.. وهو العمل الذي به عمارة الأرض، وعليه تقوم مصالح العباد..

من أجل ذلك اهتم بألوان النشاط الإنساني التي تخدم المجتمع وٱنشغل بها وحضّ عليها.. يدوية كانت أم فكرية!..

---

(١) أصول الكافي: ج ١، ص ٤١١.

إنه ينكر الانقطاع عن الدنيا زهداً فيها كما يرفض الانقطاع لها انشغالاً بها. . من أجل ذلك عرف الزهد بقوله: «الزهد كلمة بين كلمتين في القرآن. قال سبحانه: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[1]. فمن لم يأس على الماضي، ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه»[2]. .

ويقول: «للمؤمن ثلاث ساعات، فساعة يُناجي فيها ربه، وساعة يروم فيها معاشه، وساعة يخلي فيها بين نفسه وبين لذتها فيما يحل ويجمل. . وليس للعاقل أن يكون شخصاً إلّا في ثلاث: مرمة لمعاش، أو خطوة في معاد، أو لذّة في غير محرم».

* * *

لقد رأى الإمام رجلاً قد بنى داراً واسعة كبيرة، فقال له: لقد اتّخذت داراً واسعة، ما كنت تصنع بسعة هذه الدار في الدنيا وأنت إليها في الآخرة كنت أحوج». فأجابه صاحبه في حياء وندم: «بلى يا أمير المؤمنين».

فقال الإمام: «بلى. . إن شئت بلغت بها الآخرة: تقري

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٣.
(٢) مجمع البيان: ج ٩، ص ٢٤١.

بها الضيف، وتصل فيها الرحم، وتطلع منها الحقوق مطالعها.

فإذا أنت بلغت بها الآخرة»[1].

وهكذا، فإن نظرة المؤمن إلى الدنيا، ليست نظرة العازف عن الحياة بل نظرة الحكيم الذي يعرف أن وراءها هدفاً، ولذلك فإن أهل التقوى يحصلون من الدنيا ما يحصل الآخرون منها مع فارق واحد هو أن المتقين يحصلون على الدنيا والآخرة بينما غيرهم قد يحصل على الدنيا ولكن ليس له في الآخرة من نصيب.

يقول الإمام علي عليه السلام «اعلموا ـ عباد الله ـ أن المتّقين ذهبوا بعاجل الدنيا وآجل الآخرة، فشاركوا أهل الدنيا في دنياهم، ولم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم، سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت، وأكلوها بأفضل ما أكلت فحظوا من الدنيا بما حظي به المترفون، وأخذوا منها ما أخذه الجبابرة المتكّبرون، ثم أنقلبوا عنها بالزاد المبلغ، والمتجر الرابح، أصابوا لذّة زهد الدنيا في دنياهم، وتيقّنوا أنهم جيران الله غداً في آخرتهم، لا ترد لهم دعوة، ولا ينقص لهم نصيب من لذّة»[2].

---

(١) تلبيس إبليس: ص ١٩٤.

(٢) بشارة المصطفى: ص ٥٢.

ثم إن هناك من يكون زهده في الدنيا هروباً من مواجهة الصعاب، وتحمّل المشاقّ فهو عاشقها ولكنه عاجز عنها. أو أنّه يحاول أن يلقي كل المسؤولية عن تردّي أوضاع الناس، وأوضاعه على الدنيا، لتكون مسؤولية صلاح الأرض على غيره ومسؤولية الفساد على مجهول..

لقد سمع الإمام علي عليه السلام رجلاً من هذا النوع، يذمّ الدنيا هروباً من جهة وتخلّصاً من المسؤولية من جهة أخرى، فقال له:

- «أيّها الذامّ للدنيا، المغترّ بغرورها المخدوع بأباطيلها، أتغترّ بالدنيا ثم تذمّها؟».

«أنت المتجرّم عليها أم هي المتجرّمة عليك»؟

«متى استهوتك؟ أم متى غرّتك؟ أبمصارع آبائك من البلى؟ أم بمضاجع أمهاتك تحت الثرى»؟

«كم علّلت بكفّيك؟ وكم مرّضت بيديك، تبتغي لهم الشفاء وتستوصف لهم الأطباء، غداة لا يغني عنهم دواؤك، ولا يجدي عليهم بكاؤك، لم ينفع أحدهم إشفاقك، ولم تُسعف فيه بطلبتك، ولم ترفع عنه بقوّتك!، وقد مثّلت لك به الدّنيا نفسك، وبمصرعه مصرعك».

«إن الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار عافيةٍ لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزوّد منها، ودار موعظةٍ لمن اتّعظ بها.

مسجد أحباء الله، ومصلّى ملائكة الله، ومهبط وحي الله، ومتجر أولياء الله.. اكتسبوا فيها الرّحمة، وربحوا فيها الجنّة».

«فمن ذا يذمّها وقد آذنت ببيّنها، ونادت بفراقها، ونعت نفسها وأهلها، فمثلت لهم ببلائها البلاء، وشوّقتهم بسرورها إلى السرور؟ راحت بعافية، وٱبتكرت بفجيعة ترغيباً وترهيباً، وتخويفاً وتحذيراً، فذمّها رجال غداة الندامة، وحمدها آخرون يوم القيامة. ذكّرتهم الدنيا فتذكروا، وحدّثتهم فصدّقوا، ووعظتهم فٱتّعظوا»[1].

فالدنيا إذن، دار صدق لمن صدق معها، وٱتّعظ بما فيها، وهي دار غرور لمن ٱغترّ بها. وهكذا فإن الدنيا كما سبق دنياوان دنيا بلاغ، ودنيا ملعونة. أعاذنا الله من شرورها وغرورها إن شاء الله..

(١) البيان والتبيين: ج ١، ص ٢١٩.

الدعابة

هنالك من يتّخذ الحياة لهواً ولعباً.

وهناك من يتّخذها شدّة وغضباً.

وكلاهما على خطأ!

ففي الحياة ساعات جدّ، لا بد أن يكون المرءُ فيها، كجلمود الصخر، جاداً بلا حدود.. وفيها ساعات فرح فلا بد أن يتمتّع فيها بالمرح.

إن العظماء، شأنهم شأن باقي الناس، يتمتعون بقلوب ملؤها الرحمة، والعطف والحب.. ومن هنا فإنهم، كغيرهم من البشر، يحبون المرح الحق، في ساعاته، ويمارسون المزاح والدعابة مع من حولهم، ولا يقولون إلّا حقاً..

وحدهم الجبّارون هم الّذين لا يتضاحكون، ولا يمزحون.

يقول الحديث الشريف: «المؤمن: دعب لعب، والمنافق: قطب غضب»[1].

ولذلك فإنه «ما من مؤمن إلّا وفيه دعابة»[2].

إلّا أن المزاح له حدود، فليس المؤمن كثير المزاح لأن «من جعل ديدنه الهزل، لم يعرف جدّه»[3]، و«من كثر مزاحه قلّ وقاره»[4].

وعلى كل حال «فإن الله يحب المداعب في الجماعة بلا رفث»[5].

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إني لأمزح ولا أقول إلّا حقاً»[6].

وهكذا الإمام علي عليه السلام كان مع أصحابه كأحدهم يمزح معهم حيناً، ويسوقهم إلى الحق بجد أحياناً.. حتى لقد قالوا فيه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله إنه أحق الناس بالخلافة، لولا أن فيه دعابة!

وقد نشروا ذلك عنه في الشام، حتى قال عليه السلام: «عجباً

---

(١) بحار الأنوار: ج ٧٧، ص ١٥٣.
(٢) بحار الأنوار: ج ٧٦، ص ٦٠.
(٣) غرر الحكم.
(٤) غرر الحكم.
(٥) الكافي: ج ٢، ص ٦٦٣.
(٦) شرح نهج البلاغة: ج ٦، ص ٢٣٠.

لابن النابغة، يزعم لأهل الشام أنّ فيّ دعابة، وأني امرؤ تلعابة، أعافس وأمارس، لقد قال باطلاً، ونطق آثماً»[1].

فدعابة الإمام كانت في حق، لا في باطل فلم يكن عليه السلام «تلعابة» ولم «يعافس» أو «يمارس».

وإليكم بعض مزاحه. . كما جاء في التاريخ:

«أقبل رجلان من شيوخ القبائل يهنئان أمير المؤمنين بالعودة وبالنصر، فأراد أن يكرمهما، فألقى إليهما بوسادتين فقعد أحد الرجلين على الوسادة، ولم يقعد الآخر، بل قعد على الحصير كما يقعد أمير المؤمنين، فقال له الإمام مداعباً:

«أُقعد على الوسادة يا رجل، فلا يأبى الكرامة إلّا حمار»! وضحكوا جميعاً، وقعد الرجل، وذهبت مثلاً»[2]!.

وحينما اقتحم أصحاب الجمل دار الصحابي الجليل «عثمان بن حنيف» ونتفوا شعر لحيته ورأسه وشعر عينيه تنكيلاً به، ثم تركوه ذهب «عثمان» هذا إلى أمير المؤمنين وهو يستريح في موضع على طريقه إلى البصرة، فلما رآه يبكي أراد الإمام أن يُهوّن عليه فقال له مداعباً:

---

(١) نهج البلاغة: (خ ٨٤) ـ ١.
(٢) علي إمام المتّقين: ج ٢، ص ١٤٣.

«ويحك يا عثمان بن حنيف، أرسلناك وأنت شيخ كثيف الشعر، فعدت إلينا بلا شعر كغلام أمرد»![1].

* * *

وكما كان عليه السلام يمزح مع أصحابه، كان أصحابه أيضاً يمزحون معه. . أو يذكرون عنده طرائف الحكم حسب ما أوصى به رسول الله حين قال: «إن هذه القلوب تملّ كما تملّ الأجسام فاطلبوا لها طرائف الحكم».

فقد لاحظ «أبو الأسود» بعد معارك صفّين أن أمير المؤمنين لم يعد ضاحك السن كما عرفه من قبل، فأراد أن يسري عنه فقال له: «يا أمير المؤمنين ما زلت أعمل بنصيحتك: «سل عن الجار قبل الدار وعن الرفيق قبل الطريق» حتى ابتليت بجار حسبته صالحاً، فإذا به يقذفني بالحجارة كل يوم، فبعت الدار، فَعيَّرَني الناس بأني بعت داري، فقلت لهم: ما بعت داري بل بعت جاري»!.

فضحك الإمام من دعابته، وضحك معه الحاضرون[2].

---

(١) المصدر السابق: ج ٢، ص ٢٥٩.

(٢) علي إمام المتّقين: ج ٢، ص ٣٧٥.

أخلاقيات المعارضة

قد تكون المعارضة لحكم باطل لا يشوبه حق.

وقد تكون لحق يشوبه باطل.

في الصورة الأولى، مثل معارضة الاحتلال الأجنبي، وسيادة أهل الباطل ممّن لم يأت إلى الحكم بٱختيار الناس بل عُنوة عنهم. أو حكم الكفر الصراح، فلا بدّ أن تكون المعارضة شاملة، وبلا حدود إلّا حدود المُثُل والقِيَم، لأن الطرف الآخر يريد القضاء عليك، وسحق شخصيتك.

وفي الصورة الثانية، مثل المعارضة لحكم انتخبه الناس، ولكن عليه مآخذ مثل ممارسة بعض الظلم، وعدم تطبيق الحق بشكل كامل، فإنّه لا بدَّ أن تلتزم المعارضة بحدودها الأخلاقية، وموازينها الشرعية.

وهذه الحدود تشمل ـ فيما تشمله ـ الأُمور التالية:

أولاً: أن لا تقع المعارضة في الأخطاء التي وقع فيها الحكم القائم، فإذا كان المأخذ الذي على الحكم هو الظلم والعدوان، فلا يجوز للمعارضة أن تمارس ـ هي الأخرى ـ الظلم بأي شكل من الأشكال، وفي أي حدّ من الحدود، وبحقّ أي شخص كان.

ثانياً: أن تلتزم المعارضة بالأخلاق، مهما كانت الظروف والأسباب التي قد تدعوها إلى خلاف ذلك. لكي تكون البديل الحضاري حقاً، ولا تكون معارضتها ضمن إطار الصراع على السلطة.

ثالثاً: أن لا تقف المعارضة ضد منافع الناس، ولا تقدم مصالحها على مصالحهم. وأن تقتصر مواجهتها للسلطات على ما تعارضه فيها، ولا تتعدّاه إلى غير ذلك..

إنّ الأخلاقية، هي التي تعطي للمعارضة مشروعيتها الحقيقية وهي التي تميّزها عن الأوضاع القائمة. . وأيّ تجاهل لها يسلبها مشروعيتها، ومن ثمّ يبتعد عنها الناس. .

لقد كانت للإمام علي عليه السلام آراؤه الخاصة، بما جرى بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكان معارضاً له، كما كانت زوجته فاطمة الزهراء عليها السلام حاملة الراية في مواجهته، ومع ذلك فإنّ الإمام لم

يخرجه غضبه عن الحق، كما لم يدخله رضاه في باطل. بقي معارضاً فترة خمسة وعشرين عاماً لّا أنّه لم يتجاوز الحق، ولم يخالف الشرع، ولا ترك الالتزام بالأخلاق الفاضلة، حتى مع من كان يعارضه.

كان عليه السلام يرى نفسه الأحق بالخلافة، ويصرّح بذلك جهاراً، حتى لقد قال ـ بعد أن وصلت إليه أنباء السقيفة ـ وهو مشغول بغسل رسول الله، وتدفينه ـ «ما قالت الأنصار»؟ قالوا: «قالت منّا أمير ومنكم أمير».

فقال عليه السلام: «فهلّا احتججتم عليهم بأن رسول الله صلى الله عليه وآله وصّى بهم بأن يُحسن إلى محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم؟».

قالوا: وما في هذه من حجّة؟

فقال عليه السلام: «لو كانت الإمامة فيهم، لم تكن الوصيّة بهم».

ثم قال عليه السلام: «فماذا قالت قريش؟» قالوا: «احتجّت بأنها شجرة الرسول صلى الله عليه وآله!».

فقال عليه السلام: «اَحتجّوا بالشجرة، وأضاعوا الثمرة»[1]؟!

وكان يقول عليه السلام: «أنا خليفة رسول الله ووزيره ووارثه. أنا

---

(١) نهج البلاغة: الخطب ٦٧.

أخو رسول الله ووصيّه وحبيبه. أنا صفيّ رسول الله وصاحبه. أنا ابن عمّ رسول الله وزوج ابنته وأبو ولده. أنا سيّد الوصيين ووصيّ سيد النبيين، أنا الحجّة العظمى وباب النبيّ المصطفى»[١].

وكان بناء على ذلك يرى نفسه مظلوماً، قد ظُلم في حقه، ويروى في ذلك أنه سُمع صارخاً ينادي: «أنا مظلوم».

فقال له عليه السلام: «هلمّ فلنصرخ معاً، فإني ما زلت مظلوماً مُنذ قبض رسول الله[٢] وما لقي أحد من الناس ما لقيت»[٣].

وقال: «. . لقد علم المستحفظون من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله أنّي لم أردّ على الله، ولا على رسوله ساعةً قط. ولقد واسيته بنفسي في المواطن التي تنكص فيها الأبطال، وتتأخّرُ فيها الأقدام، نجدةً أكرمني الله بها».

«ولقد قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وإنّ رأسه لعلى صدري. ولقد سالت نفسه في كَفّي، فأمررتها على وجهي، ولقد وُلّيت غسله صلى الله عليه وآله والملائكة أعواني، فضجّتِ الدار والأفنيّة: ملأ

(١) بحار الأنوار: ج ٣٩، ص ٣٣٥.
(٢) شرح نهج البلاغة: ج ٩، ص ٣٠٥.
(٣) المصدر السابق: ج ٤، ص ١٠٣.

يهبط، وملأ يعرج، وما فارقت سمعي هينمة منهم، يصلّون عليه، حتى واريناه في ضريحه». .

«فمن ذا أحقّ به منّي حياً وميتاً»[1]؟؟

ولقد قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «إن تولّوا علياً تجدوه هادياً مهدياً يسلك بكم على الطريق المستقيم»[2].

ومع إيمان الإمام بذلك، لا تشوبه شائبة، إلّا أنه وقف يعارض بشرف وأخلاق، بل ونصح الخلفاء ومنحهم من عطفه، وساعدهم في مشاكلهم، وعلّمهم ما جهلوه، وقضى لهم فيما أشكل عليهم، وحاول مساعدة من تعرّض منهم للرفض من قبل المسلمين. .

لقد كان الإمام سخي النفس حتى فيما يرتبط بالخلافة، أو ليس هو الذي قال لبعض أصحابه الذي سأله: «يا أمير المؤمنين. . كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحقّ به»؟

قال عليه السلام: «يا أخا بني أسد: إنّك لقلق الوضين، ترسل في غير سدد (استقامة) وقد استعلمت فأعلم: أمّا الاستبداد

---

(١) نهج البلاغة: الخطب ١٩٧.

(٢) تاريخ ابن عساكر: ج ٣، ص ٦٩.

علينا بهذا المقام ونحن الأعلون نسباً، والأشدّون برسول الله صلى الله عليه وآله نوطاً (تعلّقاً) فإنّها كانت إثرة (استئثار) شحّت عليها نفوس قوم، وسخّت عنها نفوس (قوم) آخرين، والحكم لله والمعوّد إليه القيامة»[1].

وقد لخّص الإمام موقفه العام في الخطبة المعروفة بالشقشقية والتي يقول فيها: «أما والله لقد تقمّصها ابن أبي قُحافة، وإنه ليعلم أن محلّي منها محلّ القطب من الرّحى، ينحدر عني السيل، ولا يرقى إليّ الطير، فسدلت دونها (الخلافة) ثوباً، وطويت عنها كشحاً، وطفقت أرتئي بين أن أصول بيدٍ جذاء (مقطوعة) أو أصبر على طخية (ظلمة) عمياء يهرمُ فيها الكبير، ويشيب فيها الصغير، ويكدح فيها مؤمن حتى يلقى ربه».

«فرأيت أن الصبر على هاتان أحجى (أولى) فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجى، أرى تراثي نهباً، حتى مضىٰ الأول لسبيله، فأدلى بها (الخلافة) إلى فلان بعده:

شتان ما بيني على كورها ويوم حيان أخي جابر

فيا عجباً.. بينا هو يستقيلها في حياته، إذ عقدها لآخر

(١) علل الشرائع: باب ١١٩.

بعد وفاته ـ لشدّ ما تشطرا ضرعيها ـ فصيّرها في حوزة خشناء يغلظ كلمها ويخشن مسّها، ويكثر العثار فيها، والاعتذار منها، فصاحبها كراكب الصعبة (الإبل الجامحة) أن أشنق لها (شدّد لها) خرم (قطع) وأن أسلس لها تقحّم، فمني الناس (اَبتلوا) بخبط وشماس (بحيرة والتباس) وتلوّن واَعتراض.

«فصبرت على طول المدّة، وشدّة المحنة، حتى إذا مضى لسبيله جعلها في جماعة زعم أني أحدهم». .

«فيالله وللشورى. . متى أعترض الريب فيّ مع الأول منهم، حتى صرت أقرن إلى هذه النظائر»؟.

«لكنّي أسففت إذ أسفّوا ،وطرت إذ طاروا. . فصغى رجل منهم لضغنه (حقده) ومال الآخر لصهره مع هَنٍ وهن. إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حضنيه بين نثيله (الروث) ومعتلفه، وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضم الإبل نبتة الربيع».

«إلى أن اَنتكث عليه فتله، وأجهز عليه عمله، وكبت به بطنته»[1].

ذلك هو رأي الإمام فيما جرى بعد رسول الله، ومع ذلك فإنّه لم يبخل بكل ما في وسعه بالمساعدة مع الخلفاء لإقامة

---

(١) فهرست ابن النديم: ص ٢٢٤.

الحق وتحقيق العدل والحفاظ على منافع العامة وهداية الناس.

وهو الذي قال: «اللَّهُمّ إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان، ولا التماس شيء من فضول الحطام، ولكن لنرد المعالم من دينك، ونظهر الإصلاح في بلادك، فيأمن المظلومون من عبادك وتُقام المعطلة من حدودك»[1].

ولأنّه لم يكن ينطلق من معارضته من منطلق «التنافس على السلطان» فلم يكن لديه مانع من أن يسدي النصح للحاكمين فيما يرتبط بـ «رد المعالم» من دين الله و«الإصلاح» في البلاد، والحفاظ على «أمن المظلومين» و«إقامة الحدود المعطلة..».

فكمّ من معضلةٍ في عهد أبي بكر، حلّها لهم الإمام، حتى قال أبو بكر أكثر من مرة «لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن»؟.

وكم من مسألةٍ استعصت على عمر بن الخطاب، فأعطى الإمام الرأي الأصوب فيها، حتى قال عمر أكثر من مرة «لولا علي لهلك عمر»؟

وكم من محاولات بذلها لإصلاح الأوضاع في عهد

---

(١) تذكرة الخواص: ص ١٢٠.

عثمان بن عفان، ومنع تدهورها حتى قال عثمان أكثر من مرة: «لا أبقاني الله في بلد ليس فيها عليّ»؟.

من ذلك ما أشار إليه في عهد عمر بن الخطاب، حينما أراد الخروج إلى قتال الروم ولكن علياً بن أبي طالب أقنعه أن في الجيوش التي كان قد أعدّها أبو بكر كفاية، وقد حقق قوادها نجاحاً كبيراً، وكل ما يحتاج هؤلاء القواد هو المدد من عمر.

ولكن عمر رأى أن مسيره لا مندوحة عنه ليقود المجاهدين بنفسه، فيثير فيهم الحماسة، ويحقق الله به النصر المبين. فقال له علي: «إنّك متى تسر إلى هذا العدو بنفسك، فتلقهم فتنكب، ولا تكن للمسلمين كانفة (أي كنف) دون أقصى بلادهم، ليس بعدك مرجع يرجعون إليه، فأبعث إليهم رجلاً مجرباً، وأحفز معه أهل البلاد النصيحة. فإن أظهره الله فذاك ما تحب، وإن تكن الأخرى، كنت ردءاً للناس ومثابة للمسلمين»[1].

فولّى عمر أبا عبيدة على الجيش.

وفتحت جيوش المسلمين أرض العراق والشام كلها

---

(١) نهج البلاغة: الخطب ١٣٤.

ومصر، وهرب هرقل إلى القسطنطينية ونظر إلى آخر معاقله في سوريا فبكى وهو يقول: «سلام عليك يا سورية، سلام لا اجتماع بعده»[1].

ومرة أخرى، حينما أراد عمر بن الخطاب أن يخرج بنفسه إلى الحرب مع الفرس.. فٱستشار علياً في الخروج بنفسه، فقال له الإمام: «إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا بقلة، وهو دين الله الذي أظهره وجنده الذي أعدّه وأمدّه حتى بلغ ما بلغ. ونحن على موعد مع الله والله منجز وعده، وناصر جنده. ومكان القيّم بالأمر مكان النظام (أي السلك) من الخرز، يجمعه ويضمّه، فإذا انقطع النظام تفرّق الخرز وذهب، ثم لم يجتمع بحذافيره أبداً.

والعرب اليوم وإن كانوا قليلاً منهم كثيرون بالإسلام عزيزون بالاجتماع. فكن قطباً واستدر الرحى بالعرب، وأصلهم دونك نار الحرب، فإنك إن شخصت من هذه الأرض، انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها، حتى يكون ما تدع وراءك من العورات أهم إليك مما بين يديك. إن الأعاجم إن ينظروا إليك غداً يقولوا: هذا أصل العرب، فإذا

(١) كتاب الأموال: ص ٢٥٢.

قطعتموه أسترحتم، فيكون ذلك أشدّ لكلبهم (تكالبهم) عليك، وطمعهم فيك.

فأما ما ذكرت من سير القوم لقتال المسلمين، فإن الله سبحانه، هو أكره لمسيرهم منك، وهو أقدر على تغيير ما يكره. وأما ما ذكرت من عددهم فإنّا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة، وإنما كنّا نقاتل بالنصر والمعونة (من الله تعالى)[1].

* * *

واستطاع المسلمون بقيادة سعد بن أبي وقاص وسلمان الفارسي أن يفتحوا أرض فارس «المدائن» عاصمة الفرس، واتّخذ سعد إيوان كسرى مصلى. وقرأ في صلاته قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾[2].

وأرسل سعد إلى عمر بالمدينة كنوز كسرى وتيجانه، وبنات كسرى، وأسيافه... وكان الفرس من قبل قد غزوا الهند والترك. ومنهم غلبت الروم في أدنى الأرض، ونهبوا جواهر ملوك الهند والترك وأباطرة الروم، فآل كل ذلك للفاتحين[3].

(١) الأخبار الطوال: ص ١٣٤.

(٢) سورة الدخان، الآيات: ٢٥ ـ ٢٨.

وأرسل سعد إلى عمر إلى جوار خمس الفيء. بساطاً واحداً طوله ستون ذراعاً وعرضه مثل ذلك، وقد نقش عليه بالذهب والجواهر، طرق وأنهار وأزهار وثمار!..

وقد نال كل جندي من جنود سعد بن أبي وقاص اثني عشر ألفاً غير الدور.. وكانوا ستين ألفاً.. وبلغ ما دخل بيت المال ثلاثين ألف ألف أي ثلاثين مليوناً..

ثم أشار إلى الغنائم النفيسة وأقسم على عبد الرحمن بن عوف أن يقسمها فهو عليم بالجواهر، لتوزع في الوقت.

وقسم ابن عوف المتاع، ووزعه عمر على الناس، بادئاً بأهل السابقة في الإسلام.

وبقي البساط المرصع بالذهب والجواهر النادرة، وكان لا ينقسم، وسألهم عمر المشورة في أمر البساط فقال بعضهم: «قد جعل الجند ذلك لك». ومنهم من قال: «إنه لأمير المؤمنين لا يشركه فيه أحد» وزاد أحدهم: «يا أمير المؤمنين لقد أشغلناك عن أهلك وضيعتك وتجارتك فهو لك».

فقال الإمام علي: «لا.. إنه لم يجعل الله علمك جهلاً، ويقينك شكاً. إنه ليس من الدنيا إلّا ما أعطيت فأمضيت،

(٣) علي إمام المتّقين: ج ١، ص ٩٦.

وقسمت فسويت، أو لبست فأبليت، أو أكلت فأفنيت. وإنك إن تبقه اليوم على هذا لم تعدم في غد من يستحق به ما ليس له».

قال عمر: «صدقتني ونصحتني يا أبا الحسن».

ثم قطع البساط وقسمه، فأصاب علياً منه قطعة لم تكن أجود من غيرها فباعها بعشرين ألفاً. وأنفقها في سبيل الله!

أما بنات ملك الفرس، فقد أراد عمر أن يبيعهن كالجواري، ويضع ثمنهن في بيت المال.. وأعطاهن للدَلَّال ينادي عليهن بالسوق، فكشف الدَلَّال عن وجه إحداهن، فلطمته لطمة شديدة.

فصاح الرجل: «واعمراه»! وشكا إليه، فدعاهن عمر، وأراد أن يضربهن بالعصا فقال له علي عليه السلام: «إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: (أكرموا عزيز قوم ذل وغني قوم افتقر) إن بنات الملوك لا يبعن، ولكن قوّموهن» فقوموهن وكنّ ثلاثاً، فأعطاه أثمانهن ووهبهن واحدة لمحمد بن أبي بكر، والثانية لعبد الله بن عمر، والثالثة لابنه الحسن»[1].

* * *

(١) علي إمام المتقين: ج ١، ص ٩٧.

كانت للإمام مآخذ كثيرة على طريقة إدارة البلاد في العهود التي سبقت خلافته ولذلك فحينما اقترح عليه أن يكون هو الخليفة بعد عمر بشرط أن يعمل بكتاب الله وسُنّة نبيه، وسيرة الشيخين، رفض الشرط الأخير، وقال: «بل باجتهاد رأيي».

إلّا أنه عليه السلام كان لا يبخل على أي واحد من الخلفاء بالمشورة النافعة والموعظة الصالحة، بما يضمن لهم السير على الطريق المستقيم.

ومن ذلك ما روي من «أن عمر بن الخطاب احتاج إلى مال ليجهز الجيش، ولم تكن الفتوحات قد جاءت بالثراء العريض للدولة الجديدة بعد، وما في بيت المال! فذكر قوم حلي الكعبة وقالوا: «ما تصنع الكعبة بالحلي يا أمير المؤمنين؟ خذ هذه الحلي فجهّز بها جيوش المسلمين يكن لك أعظم الأجر».

وهَمَّ عمر بذلك إلا أنه رأى أن يسأل علياً. فقال له علي عليه السلام: «إن القرآن أنزل على النبي صلى الله عليه وآله والأموال أربعة: أموال المسلمين فقسّمها بين الورثة في الفرائض (المواريث)، والفيء فقسّمه على مستحقيه، والخُمس، فوضعه الله حيث

وضعه، والصدقات فجعلها الله حيث جعلها، وكان حُلي الكعبة فيها يومئذ فتركه الله على حاله، ولم يتركه نسياناً ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[1] ولم يخف عليه مكاناً، فأقرّه حيث أقرّه الله ورسوله». .

فقال له عمر: «لولاك لافتضحنا». وترك الحلي بالكعبة كما هي[2].

* * *

كان الإمام في صف المعارضة، وكان يختلف مع الخليفة في قضايا داخلية كثيرة. منها تولّيه لهذا المنصب، إلّا أن الأمر حينما كان يرتبط بهيبة الدولة، أو حسب تعبير الإمام بـ «سلطان الإسلام» كان ينبري للأمر حتى يضمن سلامة توجّه الخليفة، وسلامة توجّه الدولة. .

ولقد رأينا كيف أن الإمام منع عمر من أن يشخص بنفسه إلى قتال كل من الروم والفرس، ولكن في مسألة بيت المقدس، كان للإمام رأي معاكس تماماً، كل ذلك حرصاً على هيبة الدولة الإسلامية، وحفاظاً على مكانة الخليفة. فقد روي أنه «عندما حاصر المسلمون بيت المقدس، ودارت حوله

---

(١) سورة مريم، الآية: ٦٤.

(٢) المصدر السابق: ص ١٤٥.

معركة طاحنة، طلب أهله أن يتصالحوا مع العرب على الجزية، بشرط أن يقدم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بنفسه ليتّفق على شروط الصلح.

وجمع عمر الناس في المسجد فشاروهم، فقال عثمان: «لا تبرح المدينة فأنت إن أقمت هنا ولم تسر إليهم رأوا أنك بأمرهم مستخف ولقتالهم مستعدّ، فلم يلبثوا إلّا اليسير حتى ينزلوا على الصغار ويعطوا الجزية».

أما علي بن أبي طالب عليه السلام فلم ير هذا الرأي، وأشار على عمر أن يذهب، وقال: «إذا أنت قدمت عليهم كان لك وللمسلمين الأمن والعافية والصلاح والفتح. ولست آمن أن ييأسوا منك ومن الصلح، ويمسكوا حصنهم ويأتيهم المدد من بلادهم وطاغيتهم، لا سيما وبيت المقدس مُعَظَّمٌ عندهم وإليه يحجّون».

وأخذ عمر برأي علي، وٱستخلفه على المدينة. وركب إلى بيت المقدس. وكان الأمر كما قال الإمام علي عليه السلام[1].

* * *

وفي المسائل الداخلية، إذا كان الأمر يرتبط بقضايا مهمّة، مثل مسائل الولاة، وطريقة التعامل معهم، والتشدّد

---

(١) علي إمام المتّقين: ج ١، ص ١٢٩.

بحقّهم، وما شابه ذلك كان الإمام يتدخّل لمصلحة الأمة، ولم يكن من أصحاب الرأي القائل دع الحاكم غيظاً، وتزداد أخطاؤه واستحقاقاته، لتزيد النقمة عليه وتكسب المعارضة. . فهو لم يكن يريد «كرسي» الحكم مثل كثير من المعارضين - حتى لا تهمّه أمور الأمة والدولة. . بل كان يريد الإصلاح ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

ومن ذلك ما روي أن عمر بن الخطاب كان يعمد بعض الأوقات إلى ما جمعه عمّاله فيصادر نصفه لبيت المال، ويترك لهم نصفه. إرضاء لهم من جهة، وإرضاء للعامة من جهة أخرى. . مع أن بعضهم كان يجمع الأموال خيانةً، ولصوصية، مثل معاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، وغيرهما. . ولقد أقرّ أقوام من الصحابة ما كان يفعله عمر.

أما علي عليه السلام فقد كان يصنع ما يصنعه بهذا الصنف من الولاة رفقاً لا يجوز، أو شدّة ليست من حقه!

فقد قال الإمام لعمر: «لئن كان عمّالك خَوَنةٌ، وكان هذا المال في أيديهم خيانة، ما حلّ لك تركه، وكان لك أن تأخذه كله، فإنه فيء للمسلمين، فما لك تأخذ نصفه وتترك نصفه؟! ولئن كانوا غير خونة. فما حلّ لك أن تأخذ أموالهم، ولا شيئاً

منها قليلاً أو كثيراً! وأعجب من ذلك إعادتك إياهم إلى أعمالهم!.. لئن كانوا خونة، ما حلّ لك أن تستعملهم! وإن كانوا غير خونة ما حقّت لك أموالهم»[١]!

من أجل ذلك كره هؤلاء علياً عليه السلام، وخافوه على أطماعهم، وخشوا إن أصبح هو أميراً للمؤمنين، أن يصرفهم عمّا يفعلون بأموال العامة فيحملهم على الزهد، والتخلّي عن زينة الحياة!

لقد كان الإمام عليه السلام يرى «أن أعظم الخيانة، خيانة الأُمة وأفظع الغش غش الأئمة»[٢].

فلم يكن يرضى بخيانة عمّال عمر، كما لم يكن يغشه في النصيحة.. خاصة فيما يرتبط بمحاسبة الولاة، ومنعهم من نقض القانون ومخالفة الشريعة.. معتبراً التساهل مع الولاة، والسماح لهم بمخالفة الشريعة بداية وسقوط الحضارة الإسلامية، ونهاية تماسك النظام الإسلامي من ذلك ما حدث بعد أن توالت الفتوحات شرقاً وغرباً، فعكف بعض المجاهدين على الملذّات والشراب.

---

(١) علي إمام المتّقين: ج ١، ص ١٤١.
(٢) أنساب الأشراف: ج ٢، ص ١٥٩.

وواجهت عمر مشكلة جماعة من خيرة فرسان المسلمين، على رأسهم «أبو محجن»، الذي أبلى أحسن البلاء في فتح العراق وبلاد الفرس، وما وراء النهرين وأذربيجان . .

أرسل أمير الجند سعد بن أبي وقاص هذه الجماعة إلى عمر، لأنهم شربوا الخمر، بعد أن أمر عمر بأن يحدّ شاربها ثمانين جلدة . . .

فقالوا لعمر: «ما حَرَّمها الله ولا رسوله. إن الله تعالى يقول في سورة المائدة: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾(١). بل حرّمْتَها أنت بعد أن أفتاك علي بن أبي طالب»!.

فأرسل عمر إلى عليٍّ ليجادلهم.

قال علي: «إن كان معنى هذه الآية كما يقولون، فينبغي أن يستحلّوا الميتة والدم ولحم الخنزير»!.

فبهتوا وسكتوا.

فقال عمر لعلي: «فما ترى فيهم»؟. قال: «أرى إن كانوا

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٩٣.

شربوها مُسْتَحِلِّينَ لها أن يُقتلوا. وإن كانوا شربوها وهم يؤمنون أنها حرام أن يُحَدُّوا ثمانين جلدة».

فسألهم عمر فقالوا: «والله ما شككنا في أنها حرام، ولكننا قدرنا أن لنا نجاة فيما قلناه»!.

فأمر عمر بجلد كل واحد منهم ثمانين جلدة، فلما أنتهى إلى أبي محجن قام من الجلد فقال شعراً جاء فيه:

وإني لذو صبر وقد مات إخوتي

ولست عن الصهباء يوماً بصابر!

فقال عمر: «قد أبْدَيْتَ ما في نفسك ولأزيدنك عقوبة لإصرارك على شرب الخمر».

فقال له علي: «ما ذلك لك! ولا يجوز أن تعاقب رجلاً قال لأفعلنّ وهو لم يفعل، وقد قال الله تعالى في الشعراء: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾[1] . .».

فقال عمر: «أستثنىٰ الله منهم أقواماً».

فقال علي: «إلّا الّذين آمنوا وعملوا الصالحات»[2].

* * *

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢٢٦.

(٢) علي إمام المتّقين: ج ١، ص ١٧٤ ـ ١٧٥.

ومن ذلك أن عمر بن الخطاب أنشأ الديوان الذي يحتفظ فيه برواتب المسلمين آخذاً بالنظم التي كانت سائدة عند الفرس والروم وقد خالفه الإمام علي عليه السلام لأن الإمام كان مخالفاً لتأخير الفيء، وأموال الناس ولكن لم يعلن ذلك إلّا فيما بعد. غير أن عمر بن الخطاب بعد أن أنشأ الديوان وفرض للمسلمين فيئهم، جمع الناس وقال لهم:

«إني كنت آمرأ تاجراً يغني الله عيالي بتجارتي وقد شغلتموني بأمركم، فماذا ترون أنه يحل لي من هذا المال؟» فأكثر القوم عليه يقترحون الإغداق، وعلي صامت.

فقال عمر:

«ما تقول يا أبا الحسن»؟:

فقال الإمام: «ما أصلحك وأصلح عيالك بالمعروف. وليس لك في هذا المال غيره».

فقال عمر: «الله أكبر، صدقت يا أبا الحسن، لولا علي لهلك عمر».

وآستنكف جماعة من أهل الشام من اسم الجزية، وآرتضوا أن يدفعوا بشرط تغيير اسمها، ولكن عمر صمم على أن يدفعوا الجزية صاغرين بآسم الجزية، فآحتكموا إلى علي،

فأقنع عمر أن يقبل منهم الجزية بٱسم الصدقة تطهرهم. . فلما ٱقتنع عمر، دخل عدد منهم في الإسلام[1].

وٱجتمع عند عمر مال، فقسّمه، فبقي منه شيء فٱستشار بعض الصحابة فيما بقي قالوا: «نرى أن تمسكه فإن ٱحتجت إلى شيء كان عندك». فسأل علياً: «ما لك لا تتكلم يا أبا الحسن»؟ قال: «قد أشار عليك القوم». قال: «وأنت فأشر». قال: «أرى أن تقسمه». فقسمه عمر:

وقال: «يا أبا الحسن لا أبقاني الله لشدّة لست لها، ولا لبلد لست فيه»[2].

* * *

وحتى في المسائل الشخصية، فإن الإمام عليه السلام كان لا يغشّ من ٱستنصحه من الخلفاء، فهو إذا كان يعارض فلم يكن لحبه أو بغضه الشخصي إذ لم تكن لمعارضته هذه الصفة لا في كلياتها، ولا في جزئياتها. .

من ذلك ما روي «أن عمر بن الخطاب أراد أن يتزوّج عاتكة بنت زيد، بعد أن قتل عنها زوجها عبد الله بن أبي بكر

---

(١) علي إمام المتقين: ص ١٠٠.
(٢) المصدر السابق: ج ١، ص ١٠٤.

في إحدى المعارك فقالت له: «قد كان عبد الله أعطاني حديقة على أن لا أتزوج بعده».

فقال لها عمر: «ٱستفتي علي بن أبي طالب».. ولما استفته عليه السلام قال لها الإمام: «ردّي الحديقة على أهله، وتزوّجي عمر».

وكانت عاتكة كما وصفها معاصروها: «ٱمرأة ذات جمال، وكمال، وتمام في عقلها ومنظرها، وكانت حسناء بارعة»[1].

* * *

تلك كانت بعض الأمثلة على طريقة الإمام علي عليه السلام في المعارضة، والتزامه بالأخلاق الفاضلة فيها، في عهد عمر بن الخطاب.

أمّا في عهد «عثمان بن عفان» فإن الإمام كان أخلص من وقف معه ناصحاً أميناً، ليردّه إلى الجادّة ويمنع عنه ما آل إليه، فكم من موقف ردّ الإمام عنه الثائرين عليه، أو توسّط بينهما، ولكن بعض الحاقدين الجشعين من أمثال مروان بن الحكم أفسدوا في الأمر..

---

(١) المصدر السابق: ج ١، ص ١٢٣.

وكم من مرّة وقف الإمام مع الحق، وحاول عثمان أن لا يتجاوز حدود الشريعة في أُموره الخاصة، أو العامة، ولكنه تحت تأثير بني أمية، كان يفعل ما يجب أن لا يفعله؟

من ذلك مثلاً ما روي في بداية خلافة عثمان، فقد روي أن عبد الرحمن بن عوف حين رأى الخنجر الذي اَغتيل به عمر وهو خنجر غريب الشكل ذو نصلين ومقبضه في وسطه، قال إنه رأى أبا لؤلؤة بالأمس يقلب هذا الخنجر ومعه الهرمزان وجفينة، واَتهمهما في ذلك.

فخرج عبيد الله بن عمر في غضب عارم شاهراً سيفه. فقتل الهرمزان، وهو فارسي أسلم، وجفينة، وهو نصراني من نصارى الحيرة، ثم ذهب إلى بيت أبي لؤلؤة، فقتل ابنته الصغيرة، وأراد أن يقتل كل من في المدينة من سبي رجال كانوا أو نساء، فتكاثر عليه عدد من المهاجرين والأنصار، فنزعوا منه السيف، ووضعوه في محبس!

فلما جاؤوا بعبيد الله بن عمر ليحاكمه عثمان سأل عثمان جماعة من المهاجرين والأنصار فيهم علي: «أشيروا عليَّ في هذا الذي فتق في الإسلام ما فتق».

وسكت الجميع فما يدرون بم يشيرون!

فقال الإمام: «ما من العدل تركه، وأرى أن تقتله، فقد قتل رجلاً مسلماً يصلي، وقتل صبية صغيرة، وقتل رجلاً نصرانياً من ذمّة رسول الله»!.

فقال أحد الحاضرين من أقرباء عثمان، إن أبناء عمر كانوا ثائرين جميعاً لمقتل أبيهم، وهم الّذين شجّعوا عبيد الله على ما فعل.. حتى حفصة بنت عمر ممّن شجّع عبيد الله على قتلهم!

وعاد الإمام يؤكد أن القصاص لولي الأمر، فما من حق أبناء عمر أن يقيموا الحدّ أو يقضوا، فهذا لأمير المؤمنين وحده، أما أولياء الدم، فليس لهم إلّا أن يعفوا إذا شاؤوا. ثم إن عبيد الله لو لم يقتل هؤلاء لأمكن أن تعرف أسرار ما حدث.

ولم يرتح عثمان لهذا الرأي!

وقال بعض الحاضرين: «أيقتل عمر أمس، ويقتل ابنه اليوم»؟!

ولم يعقب الإمام علي!..

وكان عمرو بن العاص حاضراً في مجلس عثمان، فقال: «يا أمير المؤمنين إن الله قد أعفاك من هذا الحدث، فقد كان

قبل البيعة لك، وليس لك على المسلمين سلطان. تلك قضية لم تكن في أيامك فدعها عنك».

وضاق به الإمام عليه السلام واستشعر الأسى حيث إن أحكام الشريعة تنتقص للعواطف، وتُراق دماء بريئة من غير ذنب ثم يُعفى عن القاتل.

وأخيراً قال عثمان: «أنا ولي الّذين قتلهم عبيد الله بن عمر. وقد جعلتها دية، واَحتملتها في مالي»[1].

وحدث حادث آخر، وحاول الإمام مرة أن يمنع الخليفة من الانسياق وراء بني أُميّة. وحذّره بأشدّ ما يكون في ذلك. فقد روي أن عثمان بن عفان حجّ بالناس، فزيّن له بعض قرابته من بني أمية أن يُقيم مخيماً كبيراً يليق «بأمير المؤمنين»، فكان أول من ضرب فسطاطاً بمنى. وأتمّ الصلاة بمنى وبعرفة، والسُّنَّة قصر الصلاة بهما.

فقال له علي: «ما حدث أمر، ولا قدم عهد، ولقد عهدت النبي صلى الله عليه وآله وأبا بكر وعمر يصلّون ركعتين، وأنت صدراً من خلافتك» فقال: «رأي رأيته».

(١) علي إمام المتّقين: ج ١، ص ١٤٧.

وجاء قوم إلى عليٍّ يشكون عثمان، وينكرون عليه أُموراً، وٱشتدوا في النكير.

فجاءه علي فقال: يا أمير المؤمنين ألا تنهى سفهاء بني أُميّة عن أعراض المسلمين وأبشارهم وأموالهم؟! والله لو ظلم عامل من عمّالك حيث تغرب الشمس لكان إثمه مشتركاً بينه وبينك. فٱرجع إلى الله. فحتى متى وإلى متى»؟[1]!.

وحينما بدأت مظاهر التذمّر من عامة المسلمين وخاصتهم تزداد من تصرفات بني أميّة وغيرهم من ولاة عثمان، جاءه الإمام ناصحاً له، وهو يريد أن يبعده من الّذين استخدموا عباءته لنيل ملذاتهم، وينقذه من ثورة وشيكة، وكان الإمام قد نصحه قبل ذلك مرات عديدة وكانت هذه في الأواخر.. فقال له الإمام:

ـ «إن الناس ورائي، وقد ٱستسفروني بينك وبينهم. ووالله ما أدري ما أقول لك! ما أعرف شيئاً تجهله، ولا أدلّك على أمر لا تعرفه. إنك لتعلم ما نعلم. ما سبقناك إلى شيء فنجرّك عنه، ولا خلونا بشيء فنبلغكه، وقد رأيتَ كما رأينا، وسمعت كما سمعنا، وصحبت رسول الله ﷺ كما

---

(١) علي إمام المتّقين: ج ١، ص ١٥١

صحبنا . . فالله . . الله . . في نفسك، فإنك والله ما تبصر من عمىً، ولا تعلّم من جهل، وإن الطرق لواضحة، وإنّ أعلام الدين لقائمة.

«فاْعلم أن أفضل عباد الله، عند الله: إمام عادل هُدي وهدىٰ فأقام سُنّة معلومة، وأمات بدعة مجهولة، وإن السنن لنيّرة، لها أعلام وإنّ البدع لظاهرة لها أعلام. وإن شرّ الناس عند الله: إمام جائر ضلّ وضُلّ به، فأمات سُنّة مأخوذة، وأحيا بدعة متروكة. وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر، وليس معه نصير ولا عاذر، فيلقى في نار جهنم فيدور فيها كما تدور الرحى، ثم يرتبط في قعرها».

«وإني أنشدك الله ألّا تكون إمام هذه الأُمّة المقتول، فإنه كان يُقال: يُقتل في هذه الأمة إمام يفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة، ويلبس أمورها عليها، ويَبثّ الفتن فيها، فلا يبصرون الحق من الباطل، يموجون فيها موجاً، ويمرجون فيها مرجاً».

«فلا تكونن لمروان (بن الحكم) سَيِّقة، ليسوقك حيث شاء بعد جلال السّن، وتقضي العمر!».

فقال عثمان للإمام: «كلّم الناس في أن يؤجلوني، حتى أخرج إليهم من مظالمهم..

فقال علي عليه السلام: «ما كان بالمدينة فلا أجل فيه، وما غاب فأجله وصول أمرك إليه»[1].

ولقد بقي الإمام ناصحاً لعثمان بالرغم من أن عثمان نفى الإمام إلى خارج المدينة، ثم عندما آشتدت المعارضة عليه طلب الإمام للتوسّط بينه وبين الناس، وتهدئتهم، ثم حينما آزداد هتاف الناس بآسم الإمام للخلافة، طلب عثمان من عبد الله بن عباس أن يوصل إلى الإمام رسالة من عثمان وهو محصور في دار الإمارة يأمره عليه السلام بالخروج من المدينة إلى «ينبع» ليقل هتاف الناس بآسمه.. فقال الإمام:

- «يا ابن عباس.. ما يريد عثمان إلّا أن يجعلني جملاً ناضحاً بالغرب، أقبلْ وأدبرْ!. بعث إليّ أن أخرج فخرجت، ثم بعث إليّ أن أقدم، ثم هو الآن يبعث إليّ أن أخرج؟.

«والله لقد دفعتُ عنه حتى خشيتُ أن أكون آثماً»[2].

---

(١) العقد الفريد: ج ٤، ص ٣٠٨.
(٢) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ٦٧.

وبعد مقتل عثمان، كتب الإمام رسالة إلى أهل الكوفة يخبرهم بما جرى وذكر فيه: «أما بعد فإني أخبركم عن أمر عثمان، حتى يكون سمعه كعيانه، إن الناس طعنوا عليه، فكنتُ رجلاً من المهاجرين أكثر استعتابه، وأقلّ عتابه».

الفهرس